كتاب التاج

للجاحظ

بتحقيق أحمد زكى باشا

بسم الله الرحمن الرحيم

"الحمدُ لله الذى لهُ ما في السَّموات وما في الأرض ولهُ الحمدُ في الآخرة وهو الحكيمُ الخبيرُ." (٢)

أحمَدُه على تتابُع آلاء[1]، وتواتُر نعمائه، وترادُف مننه، وأستهديه وأستوفقُه لما يُرضيه ويَرضَى فيه.

وأشهد أنْ لا إله إلّا الله الذى لا شبيهَ له ولا نظير، الذى جلّ عن الأجزاء والتبعيض، والتحديد والتمثيل، والحركة والسكون، والنُّقْلة والزوال، والتصرُّف من حال إلى حال. لا إله إلّا هو الكبير المتعال!

وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه وأمينه ونجيّه! ابتعثه على فترة من الرسالة وطُموس من الهداية ودروس من شرائع الأنبياء والمرسلين، "لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ القَوْلُ عَلَى الكَافِرِينَ" والعربُ، تَئِدُ أولادها وتسافك دماءها وتتباوح[2] أموالها وتعبُدُ اللاتَ والعُزّى ومَناةَ الثالثةَ الأُخرى. فصدع بأمر ربّه، وجاهد فى سبيله، ودعا إلى معالم

---

(١) هذه الكلمة مأخوذة عن ص.

(٢) الوارد فى ص: "تتاوح". ولما كان السياق يدل على التناهب واستباحة الأموال، فلذلك صححتُ الكلمة بردّها إلى مادة (ب و ح). قال فى لسان العرب: "والإباحةُ شِبهُ النُّهبى، وقد استباحه أى انتهبه". على أنى لم أعثر على هذا الحرف مستعملا بصيغة التفاعل.

دينه، وجاء بما أعجز الجن والإنس أن يأتوا "بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا."

فصلى الله عليه وعلى جميع المرسلين! وخصه بصلاة من نوافله دون العالمين! وعليه السلام ورحمة الله وبركاته![1]

أما بعـد،

فإن الذى حدا على وضع كتابنا هذا معان:

منها أن الله (عز وجل) لما خص الملوك بكرامته، وأكرمهم بسلطانه، ومكن لهم فى البلاد، وخولهم أمر العباد، أوجب على علمائهم تعظيمهم وتوقيرهم وتعزيرهم وتفريغهم، كما أوجب عليهم طاعتهم والخضوع والخشوع لهم. فقال فى محكم كتابه: "وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات." وقال عز وجل: "أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم."

ومنها أن أكثر العامة وبعض الخاصة، لما كانت تجهل الأقسام التى تجب لملوكها عليها ــ وإن كانت متمسكة بجملة الطاعة ــ حصرنا آدابها فى كتابنا هذا لنجعلها قدوة لها وإماما لتأدبها.[2]

وأيضا فإن لنا فى ذلك أجرين: أما أحدهما فلما نبهنا عليه العامة من معرفة حق ملوكها، وأما الآخر فلما يجب من حق الملوك علينا من تقويم كل مائل عنها ورد كل نافر إليها.

ومنها أن سعادة العامة فى تبجيل الملوك وطاعتها، كما قال أردشير بن بابك: "سعادة الرعية فى طاعة الملوك، وسعادة الملوك فى طاعة المالك."

(١) الفقرتان المحصورتان بين نجمتين * * مأخوذتان عن صـ.

(٢) فى صـ لتأديبها.

ومنها أن الملوك هم الأُسّ، والرعيّة هم البناء، وما لا أُسّ له مهدومٌ .

ومنها أنّا ألّفنا كتاباً قبل كتابنا هذا، فيه أخلاقُ الفتيانِ وفضائلُ أهل البَطَالة[1]، وكان غيرُ ذلك أولىٰ بنا وأحقَّ فى مذهبنا[2] وأحرىٰ أن نصرف عنايتنا إلىٰ ما يجب للملوك من ذكر أخلاقها وشِيَمِها، إذ فضّلها الله علىٰ العالَمِين، وجعل ذكرها فى الباقين إلى يوم الدِّين .

ألا ترىٰ حين ذكر الله تعالىٰ الأُمَمَ السالفة والقرون الخالية، لم يقصِدْ من ذكرها إلىٰ وضيعٍ ولا خامل؟

بل قال تعالىٰ حكاية عمّن مضىٰ منهم : "رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ." وقال تبارك اسمه : "اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ ."

وقال جلّتْ عظمته : "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ ."

وقال جلّ وعلا : "وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ."

وقال تقدّست أسماؤه : "إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ."

وقال تبارك وتعالىٰ : "قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ."

وقال عزّ وجلّ، وقد بعث موسىٰ عليه السلام إلىٰ أعتىٰ خلقه وأشدِّهم عُنودًا وصُدوفًا عن أمره : "اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ . فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ."

(١) فسرها فى صـ بالشجاعة . وحينئذ تكون مماثلة للفظة Héroïsme عند الفرنسيين .
(٢) فى صـ : طبعنا .

فَلْيَفْهمِ الحكماء هـذه الأُعجوبةَ التى وصلتْ عن الله تبارك وتعالىٰ! فإنَّ فيها حكمةً عجيبةً ومَوْعِظةً بليغةً وتنبيهًا لمن كان له قلبٌ .

حدّثنـا أصحابُنا عن شَـبابة عن ورقاء عن آبن أبى نَجِيح(١) عن مُجاهـد فى قوله تبارك وتعالىٰ: "فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا" قال: كَنِّيَاه(٢).

وإنّما أمَرَهما بذلك لأن الملوك ــ وإنْ عصىٰ أكثرُها ــ فمن حقّها أنْ تُدْعىٰ إلىٰ الله بأسهل القول وألْين اللفظ وأحسن المخاطبة. فإذا كان هـذا حُكمَ الله فى العاصى من الملوك والذين آدّعَوُا الرُّبوبيّةَ وجحدوا الآياتِ وعاندوا الرُّسلَ، فما ظنُّك بمن أطاع اللهَ منها، وحَفظ شرائعَهُ وفرائضَـهُ، وقُلِّد مَقامَ أنبيائه، وجَعَلَهُ الحُجّةَ بعد حُجّته، وفَرَض طاعتَهُ حتّى قَرَنها بطاعته وطاعة رسوله، صلّى الله عليه وسلم؟

فرأينـا ــ إذ أخطأْنا فى تقديمنا أخلاقَ أهل البَطَالة، وإن كان فيها بعضُ الآداب وما يَحتاج إليـه أهلُ الشرف من محاسن الأخلاق ــ أنْ نتلافىٰ مافرَط منّـا بوضع كتابٍ فى أخلاق الملوك وخصائصها

إهداء الكتاب

مَنا الأميرالفتح بن خاقا

وعلىٰ طلبها مثابرا، وفيها وفى أهلها راغبا، ليبقى له د ره ويحيا به [illegible] بقى [illegible] والظلام. وبالله التوفيق والإعانة!

(١) فى صـ : حدّثنا أصحابنا عن مقدام عن آبن أبى نجيح[. وكلهم من رواة الحديث]

(٢) فى هامش صـ : "وكان له ثلاث كُنًى: أبو العباس وأبو الوليد وأبو مُرّة". وأنظر كتب التفسير، وأنظر "المستطرف فى كلّ فنّ مستظرف" للأبشيهى (ج ٢ ص ٤٤).

الفاتحة [1]

*وبعدُ، فإنّ أكثر كلامنا فى هذا الكتاب إنّما هو على مَن دُونَ الملك الأعظم. إذ لم يكن فى آستطاعتنا أنْ نَصِفَ أخلاقه، بل نعجِزُ عن نهاية مايجب له لو رُمْنا شرحَها. وأيضا فإنّ مَن تكلّفَ ذلك بعدَنا من الناس بأقصى تكلُّف وأغْوَرِ ذهنٍ وأحدِّ فكرٍ، فلعلّه أن يعتذر بمثل آعتذارنا.

وليس لأخلاق الملك الأعظم نهايةٌ تقوم فى وَهْمٍ، ولا يُحيط بها فِكرٌ. وأنت تراها تتزيّد مذ أوّلِ مَلِكٍ مَلَكَ الدنيا إلى هذه الغاية. ومَن ظنّ أنّه يبلغ أقصى هذا المدى، فهو عندنا كمَن [2] قال بالتشبيه مَثَلًا، وبالجسم مُعارَضةً.

ولعلّ قائلًا يقول، إذا رآنا قد حكَيْنا فى كتابنا هذا بعض أخلاق الملوك الماضين من آل ساسانَ وملوكِ العرب: "قد ناقض واضعُ هذا الكتاب، إذ زعم أنه ليس لأخلاق الملك الأعظم نهايةٌ." فيظلِمُ فى اللفظ ويعتدى فى المقال. وأُولئك الملوك هم عند ملوكنا كالطبقة الوُسطى عند النَّمَط الأعلى. أنت تجد ذلك عِيانا وتشهده عينك [3] بيانا. وعلى أنّ هذه المقالة لايقولها مَن نظر فى سِيَرِ مَن مضى وسِيَرِ مَن شاهَدَ. وبالله التوفيق!*

---

(١) وضعنا هذا العنوان للفقرات الثلاث التالية له المحصورة بين نجمتين * * وكلها منقولة عن صـ.

(٢) فى الأصل وهو صـ : كما.

(٣) فى الأصل وهو صـ : وتُشهِد عليك بيانا.

(٦)

بـاب

فى الدخول على الملوك وفيما يجب على الملك إذا دخل الرجُلُ عليه

الاشراف وسلامهم وقعودهم وانصرافهم

إنْ كان الداخلُ[١] من الأشراف والطبقة العاليـة ، فمن حقِّ الملك أن يقف منـه بالموضع الذى لايتأىٰ عنـه ولا يقرب منـه ، وأن يسـلّم عليه قائمـا . فإن آستدناه ، قَرُب منـه فأكبّ على أطرافه يُقبّلها . ثم تنحّى عنـه قائمـا حتّى يقف فى مرتبـةِ مثـله . فإن أومأ إليـه بالقعود ، قعد ؛ فإن كلّمه ، أجابه بآنخفـاضِ صوتٍ وقِلّةِ حركةٍ ، وإن سكت ، نهض من ساعته قبـل أن يتمكّن به مجلسُـه بغير تسـليمٍ ثانٍ ولا آنتظارِ أمرٍ .

الاوساط سلامهم وقعودهم وانصرافهم

وإن كان الداخلُ من الطبقة الوُسطىٰ فمن حَقِّ الملك إذا رآه ، أن يقف وإن كان نائيًا عنه . فإن آستدناه ، دنا خُطًى ثلاثًا أونحوها ، ثم وقف أيضا ، فإن آستدناه ، دنا نحوًا من دُنوّه الأوّل ، ولا ينظر إلىٰ تعب[٢] الملك فى إشـارةٍ أو تحريك جارحةٍ ، فإنّ ذلك ، وإن كان فيه على الملك مُعاناةٌ ، فهو من حقّه وتعظيمه ؛

وإن كان دخوله عليه من الباب الأوّل[٣] يقابل وجهَ الملك ويحاذيه ــ وكان له طريقٌ عن[٤] يمينه أو شماله ــ عَدَلَ نحو الطريق الذى لايقابله فيه بوجهه ثم آنحرف نحو مجلس الملك ، فسلّم قائمـا ملاحظًا للملك . فإن سكت عنه ، آنصرف راجعًا من غير سـلامٍ

(١) أى الداخل .

(٢) صـ : تَعَب .

(٣) هكذا فى سـ ، صـ . والمعنى واضح فى أن الدخول يكون من أوّل باب يقابل وجه الملك . ولذلك لم نر وجها لزيادة لفظ "الذى" أو وضعه مكان "الأوّل" .

(٤) صـ : عن .

ولا كلام. وإن آستدناه، دنا خُطًى وهو مُطْرِقٌ ثم رفع رأْسَه. فإن آستدناه، دنا خُطًى أيضا ثم رفع رأْسه حتى إذا أمسك الملك عن إشارةٍ أو حركةٍ، وقف (فى ذلك الموضع الذى يقطع الملكُ فيه إشارتَه) قائمًا. فإن أومأ إليه بالقعود، قعد مُقْعِيًا[1] أو جاثيا. فإن كلّمه، أجابه بآنخفاضِ صوتٍ وقلّةِ حركة وحُسن آستماع. فإذا قطع الملكُ كلامَه، قام فرجع القَهْقَرَىٰ. فإن أمكنه أن يستتر عن وجهه بجدارٍ أو مسلكٍ لا يحاذيه إذا ولّى، مشىٰ كيف شاء. (٧)

استقبالُ الملك للساوين له وتشييعُهم

وعلىٰ الملك ــ إذا دخل عليه من يساويه فى السلطان والتَّبَع والعزّ والولادة والبيت ــ أن يقوم فيخطو إليه خُطًى ويعانقه، ويأْخذ بيده فيُقعِده فى مجلسه ويجلس دونه. لأنّ هذه حالٌ يحتاج الملك إلىٰ مثلها من الداخل عليه، إذا زاره. فإنْ بَخَسَه حظَّه ومَنَعَه مايجب له، لم يَأْمَنِ الملكُ أن يَفْعَلَ به مِثْلَ ذلك. ومتىٰ فعل كلُّ واحدٍ منهما بصاحبه ماهو خارجٌ عن النواميس والشرائع[2]، تولّد من ذلك فسادٌ وحدثتْ ضغائنُ بين الملوك يقع بسببها التباغُض والتعادى والتحاسُد. وإذا آجتمع ذلك فى المملكة، كان سببًا للبوار وداعيةً إلىٰ التحارب. (٨)

وعلىٰ الملك ــ إذا أراد هذا الذى قدّمنا صفتَهُ الآنصرافَ ــ أن يقوم معه إذا قام، ويدعو بدابّته ليركب حيث يراه، ويشيّعه ماشيا قبل ركوبه خُطًى يسيرةً، ويأْمر حشمه[3] بالسعى بين يديه.

(١) س : "مُقعيا" بدون إيراد "جاثيا" التى تليها. وأقنع الرجل رأسه نصبه أو لا يلتفت يمينا ولا شمالا وجعل طرْفَه موازيا. (قاموس). [وآنظر صفحة ٢٢ من هذا الكتاب].

(٢) ص : الشريعة.

(٣) ص : خدمه.

وعلى هذا كانت أخلاق آل ساسان من الملوك وأبنائهم. وبهذه السياسة أخذهم أردشير بن بابك. فلم تزل فيهم حتى مَلَكَ كِسْرى أبرويزُ فغيّرها. فكان مما أعتدّ عليه شيرويه، ابنه، فى ذكر مثالبه ومعايبه.(١)

وقد قلنا إن من حقّ الملك أنْ لايُطيل أحدٌ عنده القعود. فإنْ أخطأ مُخطئٌ فى ذلك، فمنْ إذْن الملك له بالانصراف أنْ يلحظه.(٢) فإذا عَرَفَ ذلك فلم يَقُمْ، كان ممن يحتاج إلى أدب، وكان الذى وصّله بالملك ظالماً له ولنفسه.

---

(١) أبرويز هذا كاتَبَهُ النبيُّ يدعوه للإسلام فزّق كتابه وقال: "يكتبُ لى هذا، وهو عبدى؟" فدعا عليه النبىّ بتمزيق ملكه. استبدّ بفارس فوثب عليه ابنه شيرويه (وهو أيضا شيرى) فحبسه وأرسل إليه ينعى عليه ماارتكبه من المثالب والمعايب فى رسالة "خشنة يقطر منها الدم فى تقريعه بأفاعيله" ثم قتله. وأرسل شيرويه بعد أن جلس على سرير الملك كتابا إلى النبىّ فى جملته: "أما بعد فإنى قتلتُ كسرى، ولم أقتله إلاغضباً لفارسَ لِمَا كان استحلّ من قتل أشرافهم وتجميرهم فى ثغورهم "[وتجمير العساكر حبسهم فى أرض العدوّ وعدم إرجاعهم إلى وطنهم]. هذا ولكن شيرويه لم يظفر بالملك بعد أبيه سوى ستة أشهر فات بعلة أفاض المؤرّخون فى وصفها.

ومن غريب الاتفاقات التى لاحظها كتّاب العرب أن الملك الذى يقتل أباه لايمضى عليه فى الملك سوى ستة أشهر فقط، كما حصل ليزيد بن الوليد بن عبد الملك الأموىّ، وكما حصل للمنتصر العباسىّ.

ومن غريب الاتفاقات أيضا أن المنتصر هذا قتل أباه المتوكل فى نفس الموضع المعروف بالماخورة الذى قتل فيه شيرويه أباه كسرى أبرويز، وأن المنتصر جلس فى بعض الأيام على بساط فاخر مزدان بالنقوش. ومن جملة مافيه صورة شيرويه على رأسه التاج كأنه ينطق وتحتها ماتعريبه: "صورة شيرويه القاتل لأبيه أبرويز الملك. ملَك ستة أشهر". وكان من جملة الصور أيضا صورة يزيد بن الوليد بن عبد الملك، ومكتوبٌ عليها ماتعريبه: "صورة يزيد بن الوليد بن عبد الملك قاتل ابن عمه الوليد. ملك ستة أشهر". وقد أمر بعضُ المقرّبين بإحراق هذا البساط النفيس حتى لايتفطن الخليفة لمافيه من العبرة، ولكن أبى الله إلاأن يكون ثالث الثلاثة. (التفاصيل فى "غرر أخبار الفرس" ص ٧١٢–٧٣٨؛ والطبرىّ سلسلة ١ ص ١٠٤٢، ١٠٦١، ١٥٧٤ وسلسلة ٣ ص ١٤٩٦؛ وابن الأثير ج ١ ص ٣٦١؛ والمسعودىّ ج ٧ ص ٢٩٣ وما يليها؛ وفى "المحاسن والمساوى" ص ٥٩٢ – ٥٩٣). وفيه أيضا أن أبرويز انتقم لنفسه قبل أن يموت فوضع سُمًّا فى حقة وكتب عليها مايغرى الإنسان بالتناول مما فيها. فلما رآها شيرويه تعاطى منها فكانت علته التى أعقبها هلاكه (ص ١٣٨) [وانظر ص ١٠٩ من هذا الكتاب]

(٢) فى س، ص: "فمن اذن له الملك بالانصراف أن يلحظه". وقد صححتُ الرواية ليستقيم الكلام.

باب
في مطاعمة الملوك

تخفيف الأكل بحضرة الملك

ومن حق الملك — إذا تبذّل مع أحدٍ وأنِسَ به حتّى طاعمه — أنْ لا ينبسط بين يديه في مطعمه. فإنّ في ذلك خلالًا مذمومة:

منها، أنَّ انبساطه يدلُّ على شَرَهه؛

ومنها، أنّ في ذلك سوءَ أدبٍ وقِلّةَ تمييز؛

ومنها، أن فيه جُرْأةً على الملك ببسط اليد ومدِّها وكثرة الحركة.

(٩) وليس في كثرة الأكل مع الملك معنًى يُحمد، إلّا أن يكون الآكلُ كميسرةَ التَّرّاس أو حفص الـ... الذين(١) إنما يحضرون لكثرة الأكل فقط. فأما أهلُ الأدب وذوو المروءة، فإنما حظُّهم من مائدة الملك المرتبةُ التي رفعهم إليها والأُنْسُ الذي خصّهم به.

---

(١) أورد المسعوديُّ هذين الاسمين هكذا: "ميسرة التّمّار" و"حاتم الكيّال". وسمّى طابع الابشيهي أوّلهما "ميسرة البرّاش". وقد أوردا، هما والراغب الإصفهانيّ، نوادر كثيرة لطيفة لمشاهير الأَكَلَة نكتفي بالاشارة الى مواطنها للرجوع إليها. ونذكر فقط أسماءهم بالترتيب، وهم: أبو الحسن بن بكر العلّاف الشاعر، أبو العالية، أبو مُرّة، أحمد بن أبي خالد الأحول، أحمد بن أبي دُؤاد، إسحاق الحمّانيّ، بسرة الأحول، بلال بن أبي بُرْدة، الحجاج بن يوسف الثقفيّ، حفص (أو حاتم) الكيّال، درواس، دورق القصّاب، زهمان، سليمان بن عبد الملك (الخليفة الأمويّ)، العادل الأيوبيّ (سلطان مصر)، عبيد الله بن زياد بن أبيه، عمرو بن معديكرب، قاسم التمّار، قُفّ اللقم، محمد بن إسحاق بن ابراهيم المصعبيّ، مزرد، معاوية بن أبي سفيان (الخليفة الأموي)، ميسرة (البرّاش أو التّرّاس أو التمّار)، هلال بن الأسعر، هلال بن سعد المازنيّ، هلال بن مسعر التيمي، وزوجته، الواثق (الخليفة العباسي). (أنظر "العقد الفريد" ج ٣ ص ٣٨٤—٣٨٦؛ و"مروج الذهب" طبع باريس ج ٥ ص ٤٠١ و ٤٠٢ وج ٦ ص ٢١٥ — ٢١٨، وج ٧ ص ١٧٠، وج ٨ =

* قال: وحدّثنى إبراهيم بن السندى [بن شاهَك] (١) عن أبيه، قال: دخل شابٌّ من بنى هاشم علىٰ المنصور، فآستجلسه ذاتَ يومٍ ودعا بغدائه، وقال للفتىٰ: أُدْنُهْ (٢). فقال الفتىٰ: قد تغدّيتُ. فكفَّ عنه الربيعُ حتّىٰ ظننتُ أنه لم يفطَن لخطاِه. فلمّا نهض للخروج، أمهله. فلما كان من وراء السِّتر، دفع فى قفاه. فلما رأىٰ الحجّاب ذلك منه، دفعوا فى قفاه حتّىٰ أخرجوه من الدار. فدخل رجالٌ من عمومة الفتىٰ فَشَكَوْا الربيعَ إلىٰ المنصور. فقال المنصور: إنّ الربيع لا يُقْدِم علىٰ مثل هذا، إلا وفى يده حُجّة؛ فإن شئتم أغضيتم علىٰ ما فيها، وإن شئتم سألته وأنتم تسمعون. قالوا: فسَلْهُ! فدعا الربيعَ، وقصّوا قصّته. فقال الربيع: "هذا الفتىٰ كان يُسلّم من بعيدٍ وينصرف. فآستدناه أمير المؤمنين، حتّىٰ سلّم عليه من قريب، ثم أمره بالجلوس. ثم تبذّل (٣) بفضيلة المرتبة التى صيّره فيها أنْ قال حين دعاه إلى طعامه: "قد فعلت." وإذا ليس عنده (٤) لِمَن أكل مع أمير المؤمنين إلّا سَدّ خَلّة الجُوع. ومِثلُ هذا لا يقوّمه القوْل دون الفعل" (٥) *.

═ ص ١١٠؛ و"كتاب البخلاء" للجاحظ ص ٢١٥ و٢١٦؛ و"الأغانى" ج ٢ ص ١٨١ — ١٩٠؛ و"شذرات الذهب فى أخبار من ذهب" ج ١ ص ١٢٧، والفصل السادس من الباب الثانى من القسم الثالث من الفن الثانى من "نهاية الأرب فى فنون الأدب" للنويرى؛ "والمستطرف" ج ١ ص ٢١٤ و ٢١٥؛ و"مطالع البدور فى منازل السرور" ج ٢ ص ٥٧؛ و"محاضرات الراغب" ج ١ ص ٣٩٢؛ والطبرى سلسلة ٣ ص ١٤٠٤؛ و"بدائع الزهور" لابن إياس (جزء ١ ص ٧٧) و"شرح المقامات" للشريشى ج ١ ص ٢٣٧ و٢٤١ و٢٤٢؛ وكذلك "الأغانى" (فى فهرسه عن بعض الأسماء التى أوردناها). هذا وقد صنف المدايى كتابا فى "أخبار الأكلة" ذكره "صاحب الفهرست" ص ١٠٤ ولم يصل الينا سوى آسمه فيما أعلم.

(١) ذكره فى "تاج العروس" فى مادة س ن د، وأورد له شعرًا.

(٢) هو محمد بن عيسى بن علىّ الهاشمى [كما فى "المحاسن والمساوى"].

(٣) أى الفتى. [وروى الجاحظ هذه الحكاية بهذه الألفاظ عن ابراهيم بن السندى عن أبيه فى كتاب "البيان والتبيين" ج ٢ ص ٣٨ — ٤٨]

(٤) أى الخليفة.

(٥) هذه الفقرة المحصورة بين النجمتين * * منقولة عن ص ـ. وقد أوردها صاحب "المحاسن والمساوى" بعبارة أخرىٰ (ص ١٧٢).

حدّثنى أحمد بن عبد الرّحمن الحرّانىّ[١]، قال: "كنتُ أحضر على مائدة إسحاق ابن إبراهيم[٢]، أنا وهاشم ابن أخى الأبرد والناقدىّ[٣]. فكنتُ أعُدّ على مائدته ثلاثين طائرا. فأما الحُلْو والحامض والحارّ والقارّ[٤]، فأكثر من أن أُحصيه. فلا نرزأ[٥] من ذلك كلّه إلّا مقدار ما يأكل الطائر. إنما نكسر الخبز بأظفارنا." قلتُ: فما كان يُنشّطكم؟ قال: لا، ولو فعل ما فعلنا. قال: فما هو إلّا أن نتوارى عن عينه حتّى ننتهب.

وكذلك يجب للملوك أن لايشرَهَ أحدٌ إلى طعامهم، ولا يكونَ غرضُه أن يملأ بطنَهُ وينصرفَ إلى رَحْله[٦]: إلّا أن يكون الآكلُ أخا الملك أو ابنَه أو عمَّه أو ابن عمّه، أو مَن أشبه هؤلاء، ويكون أيضا ممن يُقْصَر بعد الأكل[٧] ويُطيل المنادمة، ويجعل ما يأكل غذاء يومه وليلته، إذ كان لا يمكنه الانصرافُ متى شاء[٨].

(١٠) عقوبة الشره عند الفرس

وكانت ملوكُ فارس، إذا رأت أحدًا فى هذه الحال التى وصفنا من شرهِ المطعم والنَّهَم، أخرجوه من طبقة الجدّ إلى طبقة الهزل، ومن باب التعظيم إلى باب الاحتقار والتصغير.

---

(١) س: عبد الرحيم. ورواية ص ربما كانت أصح، فقد ذكر الطبرىّ رجلا بهذا الاسم (سلسلة ٣ ص ١٣٨١) ووصفه بالراوى.

(٢) هو الأمير إسحاق بن إبراهيم المصعبى حاكم بغداد فى أيام المأمون والمعتصم والواثق وهو الذى سيرد ذكره كثيرا فى هذا الكتاب.

(٣) س: "الحرّانى قال كنت أعدّ على مائدة ثلاثين". والتكميل عن ص.

(٤) ص: والبارد.

(٥) أى: نُصيب منه. يقال: إنه لقليل الرُّزء من الطعام، أى قليل الإصابة منه. (تاج العروس)

(٦) بيته.

(٧) ص: "هؤلاء. ولا يكون إلا من يقيم بعد الأكل".

(٨) روى هذه الآداب بزيادة وباختصار فى "محاسن الملوك" (ص ٢٩) وأورد فيها قولهم: "موائد الملوك للشَّرَف لا للسَّرَف."

والملك — وإن بسطَ الرجُلَ لطعامه — فمن حقّه على نفسه وحقّ الملك عليه أنْ لايترك استعمال الأدب ولا يميلَ إلى ماتهوى طبيعتُهُ ، فإنّه من عُرِف بالشَّرَه، لم يجب له اسم الأديب، ومَن عُرِف بالنَّهَم، زال عنه اسم التمييز.

وإذا وضع الملك بين يدَى أحدٍ طعامًا، فليعلمْ ذلك الرجُلُ أنّه لم يضعه بين يديه ليأتِيَ عليه، بل لعلّه — إن كان لم يقصد بذلك إلى إكرامه أو مؤانسته — أنْ يكون أراد أنْ يعرِف ضبطَهُ نفسَه، إذا رأى مايشتهى من بسطه لها.

وحسْبُ الرجُل[1] — إذا أتحفه الملك بتُحفة على مائدته — أن يضع يَدَهُ عليها. فإن ذلك يُجزِئُه[2] ويزيد فى آدابه[3].

بين معاوية والحسين ابن عليّ بشأن دجاجة

ألا ترى إلى مُعاوية بن أبى سُفيان حين وضع بين يدَى الحسن عليه السلام دَجاجةً[4] ففكَّها، نظر إليه معاوية فقال: هل كان بينك وبينها عداوة؟[5] فقال له الحسن: هل كان بينك وبين أُمّها قرابة؟[6]

---

(١) صـ : ويجب على الرجل.

(٢) أى يكفيه.

(٣) أورد صاحب "محاسن الملوك" هذه الآداب المتقدمة مختصرة فى باب أدب مؤاكلة الملوك. (ص ٢٩)

(٤) سـ : "بين يدى سيد حليل دجاجة".

(٥) صـ : "وبين أُمّها!!".

وقد روى هذه الحكاية صاحب "المستطرف" وعلّق عليها بقوله : "أراد معاوية أنّ الحسن يوقر مجلسه كما توقر مجالس الملوك، والحسن أعلم منه بالآداب والرسوم المستحسنة". (ج ١ ص ٢١٣)

(٦) تغدّى رجل مع بعض الرؤساء، فقدّم إليه جديا ، بجعل يمعن فيه. فقال له الرئيس : إنك لتمزّقه حتى كأنّ أباه نطحك! فقال له : وأنت تشفق عليه كأنّ أمه أرضعتك. فخجل وانقطع. (أنظر "مطالع البدور فى منازل السرور" ج ٢ ص ٥٢)

ضيافات معاوية في عاصمته وسائر قواعد مملكته

إنّ هذا الكلام الذى دار بينهما قد قَرَّح(١) فى قلب كلٍّ واحد منهما ، ومعاويةُ لم يفل هذا القول ، لأنه كان يعظّم عليه قدر الدجاجة .

فكيف يكون ذلك ، وهو يكتب إلى أطرافه وعمّاله و إلى زيادٍ(٢) بالعراق بإطعام السابلة والفقراء وذوى الحاجة ، وله فى كل يوم أربعون مائدة يتقسّمها وجوهُ جُند الشام؟ ولكنْ علم أنّ من حقّ الملك توقيرَ مجلسه وتعظيمَه . وليس من التوقير والتعظيم مدُّ اليد و إظهارُ القَرَم وشدّةُ النَّهَم وطلبُ التبشّع بين يدَى الملوك و بحضرتها ؛ وعلى هذا كانت ملوك الأعاجم من لَدُنْ أردشيرَ بن بابك إلى يَزْدَجِرْدَ(٣) .

اختبار سابور لرجل رشحه لقضاء القضاة

ويقال إنّ سابورَ ذا الأكتاف(٤) ، لمّا مات مُوبَذانُ مُوبَذ(٥) ، وُصف له رجلٌ من كُورة إصْطَخْر ، يصلُحُ لقضاء القضاة فى العِلم والتألّه والأمانة . فوجّه إليه . فلمّا قَدِم ، دخل عليه . ودعا بالطعام ودعاه إليه . فدنا فأكل معه . فأخذ سابور دَجاجة فنصّفها .

(١) معناه جرح . وفى س : " قدح " .

(٢) هو زياد ابن أبيه الذى استلحقه معاوية بنسبه . وأخباره مشهورة معلومة تكفلت بها كتب التاريخ والأدب . (وانظر "العقد الفريد" ج ٣ ص ٢ — ٦) . وهو أول من أخذ الناس بقانون العجم (محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر) . وللدائنى كتاب فى أخباره ، وكتاب فى ولده ودعوته (عن الفهرست ومعجم الأدباء لياقوت) . وللهيثم بن عدى كتاب فى أخباره ويسميه (فى الفهرست) زياد بن أمية ، وذلك تصحيف من الناسخ أو الطابع ، و إلا فلا خلاف فى أنه زياد ابن أبيه .

(٣) بعضهم يضبط هذا الاسم بفتح الجيم و بعضهم بكسرها ، وطائفة تقول بالروايتين . والصواب الكسر دون سواه ، وهو الذى اعتمده الإمام الذهبىّ فى كتاب "المشتبه فى الأسماء" ، وكذلك العلّامة رتشاردسُن فى معجمه الفارسىّ العربىّ الإنكليزىّ .

(٤) تعريب شاه پور . وسماه العرب ذا الأكتاف لأنه انتصر عليهم فخلع أكتافهم .

(٥) أى قاضى القضاة فى دولة الفرس قبل الإسلام . و بقيت وظيفة الموبذ أى القاضى إلى أواخر الدولة العباسية ، للقيام بأمور المجوس الذين دخلوا فى الذمة .

ووضع نصفَها بين يدَيِ الرجُلِ ونصفَها بين يديْه. ثم أوْمأ إليــه أن كُلْ من هــذه، ولا تخلِطْ بها طعامًا، فإنّه أمرأُ لطعامك وأخفُّ علىٰ مَعِــدتك . وأقبل سابور علىٰ النصف، فأكل كنحو ما كان يأكُل . ففرغ الرجُل من النصف قبل فراغ سابور. ثم مدّ يده إلىٰ طعام آخر، وسابورُ يلحظه.

(١٢) فلما رُفعت المــائدة قال له : وَدِّع وٱنصرف إلىٰ بلدك! فإنّ آباءنا وسَلَفَنا من الملوك كانوا يقولون: "من شَرِهَ بين يَدَيِ الملك إلىٰ الطعام كان إلىٰ أموال الرعيّــة والسُّوقة والوضعاء أشدَّ شَرهًا." فلم يستكْفِه[١] علىٰ ما كان أحضره له[٢]

عدم النظر للملك عند مؤاكلته

ومن حقّ الملك أنْ لا يرفع أحدٌ إليه طَرْفَهُ، إذا أكل، ولا يحرِّكَ يده معه فى صَحْفَة .

التسوية بين الملك و بين مدعوّيه

ومن قوانين المُلك أن توضع بين يدىْ كلّ رجُلٍ صحفةٌ فيها كالذى بين يدَيِ الملك من طعامٍ غليظٍ أو دقيقٍ أو حارٍ أو قارٍ، ولا يخصَّ الملك نفسَه بطعام دون أصحابه . لأن فى ذلك ضَعَةً علىٰ المَلك ودليلا علىٰ الٱستئثار.

---

(١) فى س : لم يستنكفه . ولعلها محرفة عن "لم يستكفِه" بمعنى أنه لم يطلب كفايته لمؤونة العــمل، وكثيرا ما يستعمل الجــاحظ وغيره ، استكفاه بمعنى ولاه [انظر البيــان والتبيين ج ٢ ص ١٨٦] ومن هــذه المادة "الكفاة" وهم العُمّال أهل القدرة على العمل والنهوض به . [أنظر ص ٠ ٥ س ٧ ــ ١ ١ من هذا الكتاب] ، ومنها أيضا " كافى الكفاة " لوظيفة كبيرة كانت فى الدولة الإسلامية . يؤيد ذلك أنه قيل لعروة بن عدىّ آبن حاتم (وهو صبىٌّ) فى وليمة كانت لهم : قِفْ بالباب ، فٱحجُبْ مَن لاتعرِف وأدْخِلْ مَن تعرِف . فقال : والله لايكون أوّلُ شيْءٍ أستكفيه منعَ الناس عن الطعام ! (طراز المجالس للشهاب الخفاجى ص ٩٢) . هذا . وربما يجوز أن تكون محرفة عن "يستكفئه" أي "يجده كفؤا" . والذى فى ص : "فلما رفعت المــائدة اليه إلا أن نغسل ويحدد" . [وليس للجملة بقية ، وهى مبتورة ومشوّهة ، كما ترى] .

(٢) وردت هــذه القصة بحروفها ماعدا بعض ألفاظ فى صحيفتى ٢٦ و ٢٧ من كتاب "تنبيه الملوك والمكايد" . وهى مختتمة بهذه العبارة : "فلم يستكفه لمــا كان أحضره إليه وعوّل فيه عليه" . ووردت أيضا مبتورة فى "محاسن الملوك" (ص ٢٩ و ٣٠)

غسل اليد الملك

ومن حقّ الملك أنْ لا يغســل أحدٌ بحضرته يديْه من خاصّته وبِطانته(١)، إلّا أنْ يكون معه مَن يساويه في الجاه والعز والبيت والولادة. فقد بيّنا مايجب لأولئك آنفا.

إيثار الملك لمد

ومن العدل أن يُعطِيَ الملك كلّ أحد قِسطَه(٢)، وكلّ طبقةٍ حقّها، وأن تكون شريعةُ العدل في أخلاقه كشريعة مايقتدى به من أداء الفرائض والنوافل التي تجب عليــه رعايتُها والمثابرةُ على التمسُّــك بهــا، وإيناسُ الناس في بَسْــط أيديهم في الطعام حتّى يُسَوِّيَ في ذلك بين الملوك والنَّمط الأوْسط والعامّة.

(١٣)

مباينة الملو سواه

وليس أخلاقُ الملوك كأخلاق العامّة، وكانوا لايُتَشَبَّهون في شيء(٣). وإنما تحسن كثرة الأكل مع الصــديق والعشــير والمُساوى في منازل الدنيا من الرفعة والضَّــعَة. فأما الملوك فيرتفعون عن هذه الصفة ويَجِلُّون عن هذا المقدار.

قيام ا عن ا

ومن حقّ الملك ـ إذا رفع يديْه عن الطعام ـ أنْ يَنْهَضَ عن مائدته كلٌّ مِنَ الحافّ(٤) بها حتى يتواروْا عنه بجدارٍ أوحائلٍ غيره. فإن أراد الدخول، كان ذلك بحيث لايرون قيامه؛ وإذا أراد القعود لهم، دخلوا إليه بإذنٍ ثانٍ.

منشفة ا

ومن قوانين الملك أن يكون منــديل غَمَره(٥) كمنديل وجهه في النقاء والبياض، وأنْ لايعاد إليه إلّا أنْ يُغسَل أويُجدّد.

---

(١) أُنظر في الحاشية التي في ص١١٦ ما كان يفعله ابن دأب من غسل يده في حضرة الخليفة الهادى.

(٢) في س : "بقسطه" . وليست هذه الفقرة واردة في ص .

(٣) في س : "لايشتهون في شيء" . وليست هذه الفقرة واردة في ص .

(٤) أراد "الحافّين" فوضع المفرد في موضع الجمع ، باستعمال "أل" التي للجنس . ومثـل ذلك كثير في عبارات البلغاء .

(٥) في س : "عمره" بالمهملة . وصــوابه بالمعجمة ، والغَمَر بالتحريك زَنَخ اللحم وما يعلق باليــد من دسمه . وهو يماثل ما نسميه الآن في مصر : فوطة الذَّفَر . وليست هذه العبارة واردة في ص .

حديث الملك على المائدة

ومن حقّ الملك أن لا يُحَدَّث على طعامه بحديث جِدٍّ ولا هزل. وإن ٱبتدأ بحديث، فليس من حقّه أن يُعارَض بمثله. وليس فيه أكثر من الٱستماع لحديثه، والأبصارُ خاشعةٌ.

زمزمة الفرس على الطعام وامتناعهم عن مطلق الكلام

[١٤]

ولشيءٍ مَا كانت ملوك آل ساسان ـ إذا قُدِّمتْ موائدهم ـ زمزموا عليها، فلم ينطق ناطقٌ بحرفٍ حتّى تُرفع. فإن ٱضطُرُّوا إلى كلام، كان مكانه إشارةٌ وإيماءٌ يدلّ على الغرض الذى أرادوا والمعنى الذى قصدوا.(١)

---

(١) الزمزمة : تراطُنُ العلوج على أكلهم، وهم صُموتٌ، لايستعملون لسانا ولاشفة فى كلامهم؛ لكنّه صوتٌ تُديره فى خياشيمها وحلوقها، فيفهم بعضها عن بعض. وقد زمزم العلج، إذا تكلف الكلام عند الأكل، وهو مُطبِقٌ فمه. وقال الجوهرىّ: الزمزمة كلام المجوس عند أكلهم. زاد ٱبن الأثير [فى النهاية]: بصوت خفىّ (عن تاج العروس). وذلك يرادف قول الفرنسيين Murmotter.

قال فى مروج الذهب: "ذكروا أن كيومرث هو أوّل من أمر بالسكوت عند الطعام، لتأخذ الطبيعة بقسطها، فيصلح البدن بما يرد إليه من الغذاء. وتسكن النفس عند ذلك، فتدبر لكل عضو من الأعضاء تدبيراً يؤدّى إلى ما فيه صلاح الجسم من أخذ صفو الطعام. فيكون الذى يرد إلى الكبد وغيره من الأعضاء المقابلة للغذاء ما يناسبها وما فيه صلاحها. وإن الإنسان متى شغل عن طعامه بضرب من الضروب، ٱنصرف قسط من التدبير وجزء من التغذى إلى حيث ٱنصباب الهمة ووقوع الأشتراك، فأضرّ ذلك بالنفس الحيوانية والقوى الإنسانية. وإذا كان ذلك دائما، أدّى ذلك إلى مفارقة النفس الناطقة المميزة الفكرية لهذا الجسد المرئىّ. وفى ذلك ترك للحكمة وخروج عن الصواب." (مروج الذهب طبع باريس ج ٢ ص ١٠٨ – ١٠٩)

وأقول إن عادة العرب والإفرنج قد جرت على خلاف ذلك.

وبمناسبة الزمزمة، نروى ما حكاه ٱبن النديم فى كتاب "الفهرست" (ص ١٩) عن الجاحظ فى "البيان والتبيين" إن "للزنج خطابة وبلاغة على مذهبهم وبلغتهم، وإن من رأى ذلك وشاهده قال إذا حزبتهم الأمور ولزّتهم الشدائد، جلس خطيبهم على ما علا من الأرض وأطرق، وتكلم بما يشبه الدمدمة والهمهمة، فيفهم عنه الباقون. قال الجاحظ: وإنما يظهر لهم فى تلك الخطابة الرأى الذى يريدونه فيعملون عليه. والله أعلم".

وكانوا يقولون: "إنّ هذه الأطعمة بها حياةُ هذا العالم. فينبغى للإنسان أنْ يجعل ذهنه فى مطعمه ويَشْغَل رُوحه وجوارحه فيه، لأنْ تأخذ كلُّ جارحة بقسطها من الطعام، فيغتذى بها البدنُ والرُّوح الحيوانية التى فى القلب والطبيعةُ التى فى الكَبِد، أغتذاءً تامًّا، وتقبله الطبيعة قبولا جامعا."

وفى ترك الكلام على الطعام فضائل(١) كثيرة هى فى آيينهم(٢) تركنا ذكرها، إذ كانت ليست من جنس كتابنا هذا.

---

(١) ... : وفى ترك الكلام فضائل.

(٢) الآيين كلمة فارسية عرّبها العرب وأستعملوها. ومعناها القانون والعادة. (وأنظر ص ٢٣ و ٣٠ و ٧٧ من هذا الكتاب)

قال السيد صديق بن حسن خان فى "لف القماط فى تصحيح ماتستعمله العامة من المعرّب والدخيل والمولد والأغلاط" مانصه: "آيين بمعنى العادة. وأصل معناه السياسة المسيرة بين فرقة عظيمة. أعجمىّ عرّبه المُوَلَّدون. وفى الكشاف. ليس من آيين الملوك آستراق الظفر." وعلى هامشه للسيد نور الحسن مانصه: "أى فى سورة النمل. قيل لذى القرنين: بيّت على العدوّ! فقال: ليس من آيين الملوك آستراق الظفر. وقال مهيار فى قصيدة له:

يَجْمَعُ الخِرِّيتُ حَوْلًا أَمْرَهُ * وَهْوَ لَمْ يَأْخُذْ لَهَا آيِينَهُ"

وهاتان العبارتان منقولتان بدون تنبيه عن "شفاء الغليل" للخفاجىّ. والخرّيت هو الدليل البصير بالطريق. وكلمة "آيين" لا تزال مستعملة إلى الآن بهذا المعنى عند الفُرس والأتراك.

وفى المعجم الفارسى العربى الانكليزى تأليف رتشاردصن مانصه:

آيين = An institution, rite, custom, or ordinance, canon, usage, prescription. Common law (in contradistinction to the laws delivered by Muhammad, and which are called شرع). Mode, form, manner.

ولابن ا... ... بهذا الأسم ذكره صاحب الفهرست. وكلام الجاحظ هنا يدل على كتاب بعينه ضمّنه الفُرس مجموع القوانين ... والعادات والأصطلاحات المقررة عندهم. وإلى "آيين الأكاسرة" أشار البيرونى فى "الآثار الباقية عن القرون الخالية" (ص ٢١٨)

*قال: وحدّثني بعض المحدّثين قال: قال بعض الأمراء ــ وأظنه بلال بن أبي بُردة (١) ــ لأبي نوفل الجارود بن أبي سَبْرة (٢):

ماذا تصنعون عند عبد الأعلى [بن عبدالله بن عامر بن كريز القرشي] (٣)، إذا كنتم عنده؟

قال: نشاهد (٤) أحسن حديث وأحسن آستماع، ثم يأتي الطّباخ فيتمثّل بين عينيه، فيقول: ماعندك؟ فيقول: عندي لون كذا، ودجاجة كذا، ومن الحلواء كذا.

قال: ولِمَ يسألُ عن ذلك؟

قال: ليقصّر كلّ رجُلٍ عمّا لايشتهيه، حتّى يأتيه بما يشتهي. قال: ثم يُؤْتَى بالخِوان، فيتضايق ويتّسع، ويقصر ويجتهد. فإذا آستغنى، خَوّى (٥) تخويةَ الظّليم (٦) ثم أكَلَ أكْلَ الجائع المقرور (٧).

قال: والجارود هذا هو الذي قال: "سوء الخُلُق يُفسد العمل، كما يفسد الخَلّ العسل."* (٨)

---

(١) كان أميرًا على البَصرة وكان قاضيها. وهو أوّل من جار في القضاء. كان يقول: إن الخصمين يتقدّمان إليّ فأجد أحدهما أخفّ على قلبي من الآخر، فأقضي له. (محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر). وكان مع ذلك كريمًا مدحه ذو الرُّمّة والحُطَيْئة. وأنظر ترجمته في خزانة الأدب للبغدادي (ج ١ ص ٤٥٣)؛ وله في "الأغاني" و"كامل" المبرّد ذكر كثير (أُنظر فهارسهما).

(٢) الهُذلي البصري. صدوق. تُوفّي سنة ١٢٠ (تقريب التهذيب للحافظ العسقلاني ص ٢٨)

(٣) الزيادة عن "العقد الفريد" وفهرس الطبري.

(٤) في الأصل وهو صـ: فشاهدنا.

(٥) الخَوُّ والخَوَاء: الجوع. والخَوىٰ والخَواءُ خُلُوّ الجوف من الطعام. وخَوىٰ خَوًى وخَوَاءً: تتابع عليه الجوع. وخَوَّى الطائر تخوية بسط جناحيه، وذلك إذا أراد أن يقع (عن تاج العروس). ولعلّ هذا المعنى الأخير هو الذي أراده الجاحظ، لأنه في كتاب الحيوان يُلحق النعام بالطير.

(٦) الذكر من النّعام.

(٧) روى هذه الحكاية صاحب "العقد الفريد" بزيادة ونقص في الألفاظ والمعاني (ج ٣ ص ٣٨٢)

(٨) هذه الفقرات المحصورة بين نجمتين * * منقولة عن صـ.

باب
في المنادمة

مراتب الندماء واحتياج الملوك لجميع الطبقات

ومن أخلاق الملك أن يجعل نُدماءه طبقاتٍ ومراتبَ، وأن يُخصَّ ويعُمَّ، ويقرِّب ويباعد، ويرفع ويضع، إذ كانوا على أقسام وأدوات.(١)

فإنّا قد نرى الملك يحتاج إلى الوضيع لِلَهْوِه، كما يحتاج إلى الشجاع لبأسه، ويحتاج إلى المُضحك لحكايته، كما يحتاج إلى الناسك لعظته، ويحتاج إلى أهل الهزل، كما يحتاج إلى اهل الجدّ والعقل(٢)، ويحتاج إلى الزامر المُطرِب، كما يحتاج إلى العالم المُتقن(٣).

[١٥] وهذه أخلاق الملوك أنْ يحضرهم كلُّ طبقة، إذ كانوا يتصرّفون من حالِ جِدّ إلى حالِ هزل، ومن ضَحِكٍ إلى تذكير، ومن لَهْوٍ إلى عظةٍ.

فكلُّ طبقة من هذه الطبقات تُرْفَع مرّةً وتُحَطُّ أخرى، وتُعْطَى مرّةً وتُحرم أخرى، خلا الأشرافَ والعلماءَ(٤). فإنّ الذى يجب لهم رفعةُ المرتبة وإعطاءُ القِسطِ من الميزة والنَّصَفَةُ عند المعاشرة، ما لزموا الطاعة ورَعَوْا حقَّها.

---

(١) كذا فى صـ، سـ. [والسياق يقتضى معنى المراتب.]

(٢) صـ: والنبل.

(٣) صـ: المفتى. قال فى "محاسن الملوك" (ص ٤٣): "ولما كان الملك محتاجا إلى اصطناع الرجال كحاجته إلى اصطفاء الأموال، وجب أنْ يتخيّر لمسامرته من يكون طيّبَ الأعراق، باعثا على مكارم الأخلاق؛ ولكنه قد يحتاج إلى المطرب المُلْهى كما يحتاج إلى العالم المفتى. لأنه يحتاج إلى أن يتصرّف بين الهزل والجدّ لما هو بصدده من التعب فى النظر فى أمر الجمهور".

(٤) صـ: المرتبة.

آداب الخروج من حضرة الملك والرجوع إليها

وليس من حقّ الملك أن يَبْرَحَ أحدٌ من مجلسه (١) إلّا لقضاء حاجة. فإذا أراد ذلك، فمن الواجب أن يلاحظه. فإنْ سكت الملكُ، قام بين يديْه ثم لاحظه. فإنْ نظر إليه، مضَى لحاجته. فإذا رجع، قام ماثلاً بين يديه أبداً، وإن طال ذلك، حتّى يُومِئَ إليه بالقعود. فإذا قعد، فمقعيا (٢) أو جاثيا. فإنْ نظر إليه بعد قعوده، فهو إذنٌ له بالتمكُّن في قعوده.

كمية الشرب وكيفيته موكولتان للملك، وعليه العدل

وليس له أن يختار كميّة مايشرب ولا كيفيّتها، إنما هذا إلى الملك. إلا أنَّ من حقّه على الملك أن يأمر بالعدل عليه والنَّصَفَة له، ولا يجاوز به حدّ طاقته ولا وُسْعَ استطاعته، فيخرج به من ميزان القسط وحدّ القصد: لأنّه لا يأْمن أنْ يُتلف نفسا، وهو يجد إلى إحيائها سبيلا.

ومن أخلاق الملك السعيد أن يحرص على إحياء بطانته، حِرْصَه على إحياء نفسه، إذ كان بهم نظامه.

طبقات الندماء المغنين عند الفرس وفي الإسلام

وإذ قد انتهينا إلى هذا القانون من القول، فبنا حاجة إلى الإخبار عن مراتب الطبقات الثلاث من النُّدماء والمغنِّين، وإن كانت مراتبهم في كتاب الأغاني (٣) محصورةً، فقد يجب ذكرها في هذا الموضع أيضا، لأنها داخلة في أخلاق الملوك.

---

(١) كذا في س، ص "يبرح أحد من مجلسه" بتعدية يبرح بمن. والذى في كتب اللغة تعديته بنفسه. على أن بعض أكابر أهل الادب قد يُعدّون هذا الفعل بحرف "من" كما فعل الجاحظ هنا. فقد ورد في التبريزى "لم يبرح من مكانه" و"مابرحت من مكان كذا" (شرح الحماسة للخطيب التبريزى طبع أوربة ص ١٦٤ و ٢٥٠) وفي الأغانى "ما أنا بارح من بابها" (ج ٢ ص ١٣٧). وفي "المحاسن والمساوى" قوله: لا أبرح من بغداد (ص ١٩٣). [وانظر ص ١٤٤ من هذا الكتاب].

(٢) س: قعد مقنعا. [وانظر الحاشية ١ ص ٨ من هذا الكتاب].

(٣) ليست الإشارة هنا إلى كتاب الأغانى المشهور الذى لأبى الفرج الاصفهانىّ. فقد تُوُفّى الجاحظ سنة ٢٥٥ هـ، وكانت وفاة أبى الفرج في سنة ٣٥٦. ولا بدّ أن الجاحظ يعنى كتابا للفرس أوسفرا آخر =

ولنبدأ بملوك الأعاجم، إذ كانوا هم الأوّل فى ذلك، وعنهم أخذنا قوانين المُلك والمملكة[1] وترتيبَ الخاصّة والعامّة، وسياسةَ الرعيّة، وإلزامَ كلّ طبقة حظّها والاقتصار على جديلتها[2].

كان[3] أردشيرُ بن بابَكَ أوّل من رتّب النُّدماءَ وأخذ بزمام سياستهم، فجعلهم ثلاث طبقات:

= من أسفار الاغانى التى كانت متداولة فى صدر الدولة العباسية كما تدل عليه عبارة الاصفهانى فى مقدمته. هذا وقد أشار المسعودى (مروج الذهب ج ٦ ص ١٠) إلى كتاب الأغانى ولم يقيده بشىء آخر من حيث ذكر المؤلف أو غيره. فلعله هو نفس الكتاب الذى يشير إليه الجاحظ. لان المسعودى فرغ من مروج الذهب فى سنة ٣٣٦ أى قبل وفاة أبى الفرج الاصفهانىّ بعشرين سنة. وهو لم يعرفه المسعودى ولم يشر إليه ولا إلى مؤلفاته مطلقا فى كتبه التى بلغتنا.

ويتلخص مما ذكره المسعودى وأبو الفرج الاصفهانىّ فى هذا الموضوع: أوّلا — أن إبراهيم بن المهدى المعروف بأبن شِكلة (وهى جارية فارسية افترشها الخليفة المهدى) صنّف كتابا فى الاغانى. وهو أوّل كتاب فى هذا المعنى وصلنا خبره، غير الذى يشير إليه الجاحظ والمسعودىّ؛ ثانيا — أن الرشيد أمر إبراهيم الموصلىّ وإسماعيل بن جامع وفليح بن العوراء فألفوا له كتابا فى الاغانى وضمّنوه المائة الصوت المختارة؛ ثالثا — أن كتاب هؤلاء الثلاثة وقع إلى الواثق، فأمر إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ بتهذيبه وتوسيعه. وقد روى صاحب الأغانى (أعنى أبا الفرج) أن هذا الكتاب ليس من تأليف إسحاق بل هو مصطنع عليه ومنسوب إليه، وأورد حججا تؤيد ذلك فى مقدمة كتابه. ولكن المسعودى ذكره بأعتبار أنه من تأليفه.

(١) «صـ: وعنهم أخذنا آيين المملكة» [وانظر الحاشية ٢ ص ١٩ وص ٣٠ و ٧٧ من هذا الكتاب.]

(٢) هذه الكلمة وردت فى سـ مهملة من النقط هكذا: «جد طها». وفوقها كلمة «كذا». وقد أعتمدنا رواية صـ. وفيه تفسيرها بقوله: «شا كلتها». وهذا التفسير منقول عن القاموس.

(٣) من هنا إلى قوله «أنت يا فلان كذا وكذا» فى ص ٢٩ من هذا الكتاب نقله المسعودىّ فى «مروج الذهب» بالحرف الواحد تقريبا، ولم يشر إلى أنه نقل هذه البيانات عن التاج للجاحظ. وقد جرى هو وغيره على هذه العادة فى كثير من العبارات، كما ستراه فيما يرد عليك من الحواشى. وقد زاد فى هذه العبارة التى نحن بصددها ألفاظا تزيد المعنى وضوحا، وضم إليها معلومات أخرى. (أنظر مروج الذهب طبع باريس ج ٢ ص ١٥٣ — ١٥٩، وطبع بولاق سنة ١٢٨٣ ج ١ ص ١١٧ — ١١٨)

فكانت الأساورة(١) وأبناء الملوك فى الطبقة الأُولىٰ. وكان مجلس هذه الطبقة من الملك علىٰ عشرة أذرع من الستارة،

ثم الطبقة الثانية، كان مجلسها من هذه الطبقة علىٰ عشرة أذرع (وهم بِطانة الملك وندماؤه ومحدِّثوه من أهل الشرف والعلم)؛

ثم الطبقة الثالثة، كان مجلسهم علىٰ عشرة أذرع من الثانية، وهم المُضحِكون وأهل الهزل والبطالة. غير أنه لم يكن فى هذه الطبقة الثالثة خسيسُ الأصل ولا وضيعه ولا
(١٧) ناقص الجوارح ولا فاحش الطول والقِصَر ولا مَؤُوفٌ(٢) ولا مرمِىٌ بأُبْنَة(٣) ولا مجهولُ الأبوَيْن ولا ابن صناعة دنيئة، كابن حائك أو حجّام، ولو كان يعلم الغيب مثلا.

وكان أردشير يقول: "ماشئٌ أضرّ علىٰ نفس ملكٍ من مباشرة سخيف أو مخاطبة وضيع. لأنه كما أنّ النفس تصلُح علىٰ مخاطبة الشريف الأديب الحسيب كذلك تفسُد بمعاشرة الدنىء الخسيس، حتى يَقدَح ذلك فيها ويُزيلَها عن فضيلتها. وكما أن الريح، إذا مرّت بطيب، حملت طيبًا تحيا به النفس وتقوىٰ به جوارحها، كذلك إذا مَرّتْ بالنّتن فحملته ألِمَتْ له النفس وأضرّ بأعلاقها إضرارًا تامًّا(٤)."

(١) الأُسوار: الواحد من أساورة الفرس. قال أبو عُبيد: هم الفرسان، والاساورة أيضا قوم من العجم بالبصرة كالأحامرة بالكوفة (الصحاح) [حاشية عن صـ]. قال الخوارزمى فى "مفاتيح العلوم" إن العجم لا تضع اسم أُسوار إلا على الرجل الشجاع البطل المشهور. وعلى ذلك يكون مقابله فى اللغة الفرنسية: Chevalier.

(٢) هذه الكلمة وردت فى صـ فقط. [ومعناها مصاب بآفة].

(٣) الأُبنة: العيب. (قاموس)

(٤) هذه العبارة منقولة عن ابن المقفع فى "الادب الصغير" وفى "كليلة ودمنه".

أقسام الناس عند الفُرس أربعة

وكذلك جعل الناس على أقسام أربعة،(١) وحَصَر كل طبقة على قسمتها:(٢)

فالأول الأساورة من أبناء الملوك؛

والقسم الثانى النُّسَّاك وسَدَنَةُ(٣) بيوت النِّيران؛

والقسم الثالث الأطبَّاء والكُتَّاب والمنجِّمون؛

والقسم الرابع الزُّرَّاع والمِهَّان(٤) وأضرابهم.

وكان أردشير يقول: "ما شيءٌ أسرعَ فى انتقال الدُّول وخراب المملكة من انتقال هذه الطبقات عن مراتبها حتّى يُرفَعَ الوضيع إلى مرتبة الشريف، ويُحَطَّ الشريف إلى مرتبة الوضيع."

(١٨)

مقابلة كل طبقة من الندماء بمثلها

وكان الذى يقابل الطبقة الأولى من الأساورة وأبناء الملوك أهلَ الحذاقة بالموسيقيات والأغانى. فكانوا بإزاء هؤلاء نُصْبَ خطِّ الاستواء.

وكان الذى يقابل الطبقة الثانية من ندماء الملك وبِطانته الطبقةَ الثانية من أصحاب الموسيقيات.

---

(١) فى س، ص: خصَّ.

(٢) أردشير بن بابك هو أول من رتب الرعية على طبقات ووضع لهم الكتب فى الآداب الملوكية من أحوال الدين والدنيا، وعلَّم مراتب الخلق فى الديوان والدول، ونصب الموبذان موبذ يعنى كبير القضاة الشهير اليوم بقاضى العسكر. (عن محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر)

(٣) أى خدَمَة.

(٤) ضبطها فى س بكسر الميم وفتح الهاء بغير تشديد. [وقد تكون هذه الكلمة جمع ماهن أى صاحب المهنة. وهو أيضا الخادم والعبد. وجمعه يكون حينئذ "مُهَّان" مثل كاهن وكُهَّان وصانع وصُنَّاع]. وعلى هذا الوجه الثانى ضبطها فى ص.

وكان الذى يقابل الطبقة الثالثـة من أصحاب الفكاهات والمضحكين أصحـاب[(١)] الوَنج[(٢)] والمعازف والطنابير[(٣)]. وكان لا يَزْمُر الحاذق من الزامرين إلا على الحـاذق من المُغنِّين. وإنْ أمره الملك بذلك، راجعه وآحتجّ عليه.

إحتفاظ الفرس بهذا الترتيب

وقلّما كانت ملوك الأعاجم خاصــةً تأمر أن يَزْمُر على المُغنّى إلّا من كان معه فى أسلوب واحد، إذ لم يكن من شأنهم أن ينقلوا أحدا من طبقة وضيعة إلى طبقة

---

(١) فى س، ص: وأصحاب.

(٢) كلمة فارسية معرّبة. والعرب تقول الونّ بتشديد النون. وهى الصنج، آلة من آلات الطرب. وقيل إنه الصنج ذو الأوتار (أنظر تاج العروس، ومفاتيح العلوم للخوارزمى). وروى فى كتاب الملاهى بيتاً للأعشى، وهو:

ومُستَق صينى ووَنٌّ وبَرْبَطٌ * يجاوبه صَنْجٌ إذا ما ترنّما

وقال صاحب شفاء الغليل: "إن الونج هو عود الطيب، معرب". فانظر من أين أتى بالطيب هنا. ولعله أراد عود الطرب. فصحفها الناسخ وفاتت الطابع.

(٣) أنظر أسماء آلات الموسيقى عند العرب فى الجزء ١٣ من "المخصص" لابن سِيده (ص ١١ ـــ ١٥)، فتعرف أن الطُّنْبُور والطِّنْبار من الأسماء المعروفة عند العرب [نقلا عن الفرس]. أما ما زعمه العلامة دوزى من أنهم أخذوا هذا الأسم عن اللغة السلتية Celtique، فهو زعمٌ يقوم الدليل على خلافه:

أوّلا ـــ ورد هذا اللفظ فى شعر ذى الرمة (المتوفى سنة ١٠١ أو ١١١ للهجرة). قال:

"من الطنابير يَزْهى صَوْتَه ثَمِلٌ ... فى لحنه عن لغات العُرْب تعجيمُ."

ومعلومٌ أن العرب آبتــدءوا فتح الأندلس فى سنة ٩٢ هـ. ولا يكفى سبعُ سنواتٍ أو ثمانٍ لأنتقال اللفظ من أقصى الغرب إلى بادية العرب وشيوعه فيها حتى رضى ذو الرُّمة بآستعماله وآرتضاه الناس منه.

ثانيـا ـــ إن الاسـبانيين يقولون إلى الآن Atambor، وهو لفظ مأخوذ عن الأسم العربىّ بأداة التعريف العربية. فلو كانَ آسم هذه الآلة شائعا عندهم قبل دخول العرب بلادهم لما بقى فى لغتهم بهذه الصورة العربيــة. وهذا رأىُ الأُستاذ ليناردى الطليانى فى معجمه المسمّى Le parole italiane derivate dall'arabo وهو رأىٌ رجيح، أيدناه بشعر صحيح، لبدوىّ قحّ فصيح، نبت فى المهامه الفيح، وبات بين القيصوم والشيح. (أنظر ترجمته فى الاغانى ج ١٦ ص ١١٠ وما يليها)

رفيعة. إلّا أن الملك كان ربما غلب عليه السُّكر حتّى يؤثّر فيه، فيأمر الزامر من الطبقة الثانية أو الثالثة أن يزمُر على المغنى من الطبقة الأُولى، فيأبىٰ ذلك. حتّى إنه ربما ضربه الخدم بالمراوح والمذَابّ(١) فيكون من اعتذاره أن يقول: إن كان ضربى بأمر الملك وعن رأيه، فإنه سيرضىٰ عنى إذا صحا، بلزومى مرتبتى. (١٩)

معاقبة أردشير لنفسه لمخالفته هذا القانون

وكان أردشير قد وكّل غلامين ذكيين — لا يفارقان مجلسه — بحفظ ألفاظه عند الشرب والمنادمة. فأحدهما يُمِلّ(٢) والآخر يكتب حرفًا حرفًا. وهذا إنما يفعلانه إذا غلب عليه السكر. فإذا أصبح ورفع عن وجهه الحجاب، قرأ عليه الكاتبُ كلّ ما لفظ به فى مجلسه إلىٰ أن نام. فإذا قرأ عليه ما أمر به الزامرَ ومخالفةَ الزامر أمْرَه، دعا بالزامر فخلع عليه وبحزاه الخير، وقال: "أصبتَ فيما فعلتَ وأخطأ الملكُ فيما أمرك به. فهذا ثوابُ صوابك(٣). وكذلك العقوبة لمن أخطأ. وعقوبتى أنْ لا نزمزم اليوم إلا علىٰ خبز الشعير والجُبْن." فلم يَطْعَم فى يومه ذلك غيرهما.

وما ذاك إلا حثًّا علىٰ لزوم سُنَّتهم وحفظ نواميسهم وأخذ العامّة بالسياسة التامّة والأمر اللازم.

---

(١) جمع مِذَبّة. وهى آلة لطرد الذباب، وهى التى نسميها فى مصر بالمنشة. أما المراوح فمعروفة، وانظر تفصيلا شافيا عن أنواعها فى أيام الدولة العباسية وما بعدها فى كتاب "مطالع البدور فى منازل السرور". (ج ١ ص ٦٤ — ٦٦)

(٢) صـ: يُملِل.

(٣) سـ: "فهذا صوابُ هذه ثمرته"؛ وهى رواية صحيحة تشابه التى اخترناها فى المتن عن صـ لأنها مختصرة مفيدة.

اختلال هذا النظام أيام بهرام جور وإعادة أنوشروان له

فلم يزل على ذلك ملوك الأعاجم حتّى ملك بَهرام جُور بن يَزْدَجِرْد[١]، فأقرّ مرتبة الأشراف وأبناء الملوك وسَدَنَة بيوت النِّيران على ما كانت، وسوّى بين الطبقتين من (٢٠) الندماء والمغنّين ورفع مَن أطْرَبَهُ ـ وإن كان في أوضع الدرجات ـ إلى الدرجة الأُولى، وحطّ مَن قصّر عن إرادته إلى الطبقة الثانية. فأفسد سيرة أردشير في المغنّين وأصحاب الملاهي خاصّةً. فلم يزل الأمر على ذلك حتّى ملك كسرى أنوشِرْوَانَ، فردّ الطبقات إلى مراتبها الأُولى.

احتجاب ملوك الفرس عن الندماء ومقدار المسافة بين الطبقات

وكانت ملوك الأعاجم كلّها من لَدُنْ أردشير بن بابك إلى يَزْدَجِرْدَ تحتجب عن الندماء بستارة. فكان يكون بينه وبين أوّل الطبقات عشرون ذراعا. لأن الستارة من الملك على عشرة أذرع، والستارة من الطبقة الأولى على عشرة أذرع.

وكان الموكّل بحفظ الستارة رجُلا من أبناء الأساورة يقال له "خُرَّم باش"[٢]. فإذا مات هذا الرجُل وُكّل بها آخر من أبناء الأساورة وسُمِّيَ بهذا الاسم. فكان "خرم باش"[٢] إذا جلس الملك لندمائه وشغله، أمر رجلا أن يرتفع[٣] على أعلى مكان في قرار دار الملك ويُغرِّد[٤] بصوت رفيع يسمعه كل من حضر فيقول: "يالسان! احفظ رأسك[٥]، فإنك تجالس في هذا اليوم ملك الملوك!" ثم ينزل.

---

(١) أنظر السبب في إضافة الجور إلى اسمه في كتاب "غرر أخبار ملوك الفُرْس وسِيَرِهم" للثعالبيّ (صفحة ٥٤٤).

(٢) سـ: "خومرتاش". وصححنا عن صـ وعن المسعوديّ الذي قال: "وتفسير ذلك: كنْ فرِحًا."

(٣) في سـ "يرفع". والتصحيح عن صـ وعن المسعوديّ.

(٤) سـ: "يعرب". والتصحيح عن صـ وعن المسعوديّ.

(٥) صـ: الرأس.

فكان هــذا [فِعلَهم] فى كل يوم يجلس فيــه الملك لِلَهْوِه، ولا يجترئ أحد من خلق الله أن يدير[١] لســانه فى فيه بخير ولا غيره، حتّى تُحرَّك الستارة، فيَطَّلِعَ القائمُ عليها فيُؤْمَرَ[٢] بأمرٍ[٣] فينفِّذه، ويقول: افعل يافلان كذا، وتُغَنِّى أنت يافلان كذا وكذا. (٣١)

وكان الندماء من العظماء والأشراف وأبناء الملوك وإخوة الملك وعمومته وبنى عمّه وأوضع الطبقات فى مجلس الملك فى نِقابٍ[٤] واحد: إطراقا[٥] وإخباتا وسكونَ طائرٍ وقلّة حركةٍ.

فلم يَزَل أمر الملوك من الأعاجم كذلك حتّى ملك الأرْدَوَان الأحمر[٦]، فكان يقول: «مَن كانت له منكم حاجة، فليكتبها فى رُقعة وليرفعها قبــل شُغْلى[٧] فأفهمَ مافيها

(١) صـ: يفيض.

(٢) سـ: تحوّل الستارة فيؤمر.

(٣) انظر حاشية ٣ ص ٢٣ من هذا الكتاب. (وهنا ينتهى ما نقله المسعودىّ عن الجاحظ.)

(٤) قال فى أساس البلاغة: كانا فى نقاب واحد: أى كانا مِثْلَيْن ونظيرين. وفى سـ: فى نصاب واحد.

(٥) أى خشوعا وخضوعا وتواضعا.

(٦) كذا فى سـ، صـ هنا [ثم فى صفحتى ١١٨ و ١٥١ من هذا الكتاب]. والذى يستفاد مما ذكره المسعودىّ فى "مروج الذهب" وفى "التنبيه والإشراف" أن الأردوان هو عَلَمٌ على جماعة من ملوك النَّبَط، وكانوا من ملوك الطوائف بعد الإسكندر. وهؤلاء ليس لهم شأن فيما نحن بسبيله الآن.

ويستفاد منه أيضا أن فارس قام عليها ملكان أحدهما اسمه الأردوان الأكبر والثانى الأصغر. وأن هذا الثانى كان أعظم شأنا وأكبر ملكا. وهو الأردوان بن بهرام بن بلاش آخر ملوك الأشكانية. قتله أردشير بن بابك وقام بأعباء الملك بعده. يؤيد ذلك ابن الأثير والثعالبىّ. والراجح أن هــذا الأردوان هو المراد هنا وأن كلمة "الأحمر" تحريف من الناسخ للفظة "الأصغر".

(٧) سـ: تنقّــل.

ويَخرجُ إليـه أمرى، وعقلى صحيحٌ وفكرى جامعٌ.» فمَن سأل فى غير هذا الوقت حاجة، ضُرِبتْ عنقه. وهو أوّل مَن فتح هذا. وكان لا يُرَدّ سائلاً، ولا يُعطِى مبتدئا.

فلم يزل الأمر علىٰ ذلك حتّٰى ملك بَهْرام جُور، فكان يقول للنـدماء: «إذا رأيتمونى قد طَرِبْتُ وخرجتُ من باب الجِدّ إلىٰ باب الهزل، فسلوا حوائجكم.» وكان يُوَكِّل بحوائجهم صاحبَ الستارة. فكان إذا سَكِر، مدّ الناس أيديهم برقاعهم، فأخذها صاحب الستـارة، فأنفذها إليه. فأخذها بيـده وضمّها عليها، ثم رمىٰ بهـا من غير أن ينظر فى شىء منها، ويقول: «أنفِذوا كلَّ ما فيها.» فكان ذلك ربمـا بلغ فى ليـلة (٣٢) واحدة من سؤالٍ فى إقطاع أو قضاءِ دَيْنٍ أو طلب مِنْحةٍ(١) ألف ألف أو أكثر. إلاّ أنّ ذلك لم يكن تِبَاعا.

وكان إذا رفع أحدهم فى رقعته ما ليس يجوز لمثله ــ وهو خارج من حدّ القصد وأَدْخَلُ(٢) فى باب الإفراط ــ لم تُقضَ له حاجةٌ، وسُمِّىَ جاهـلا، ولم تؤخَذ له رُقعـةٌ بعـــدها أبدا.

التسوية بين الطبقات فى أيام يزيد بن عبدالملك

ثم لم يكن ذلك بعدُ فى أخلاق الملوك من الأعاجم والعرب حتّٰى ملك يزيد بن عبد الملك. فسوّٰى بين الطبقة العُلْيـا والسُّـفلىٰ، وأفسد أقسام المراتب، وغلب عليه اللهْوُ، واستخفّ بآيين(٣) المملكة، وأذِنَ للنُّدماء فى الكلام والضحك والهزل فى مجلسه والردّ عليـــه.

أوّل خليفة شُتِم فى وجهه هزلا

وهو أوّل من شُـتِمَ فى وجهه من الخلفاء علىٰ جهة الهزل والسُّخف.

(١) صـ: «منيحة»، وهى المنحة أيضا.

(٢) صـ: وداخـــل.

(٣) سـ: بقوانين. (أنظر الحاشية رقم ٢ ص ١٩ وص ٢٣ وص ٧٧ من هـذا الكتاب)

قلتُ لإسحاق بن إبراهيم(1): هل كانت الخلفاء من بني أُميّة تظهر للندماء والمغنين؟

(١) في ص : لأبي اسحاق بن ابراهيم الموصلي. (وأبو، زائدةٌ ولاشك).

لم أترك طريقا من طرق البحث للتعريف بهذا الاسم إلّا سلكتُها. فتقصّيتُ كلّ مَن اسمه "إسحاق بن إبراهيم" ممّن عاصر الجاحظ فلم أستطع أن أحصر مصدر هذا الخبر إلّا في رجلين: أحدهما (وهو الذي يتبادر الذهن إليه) إسحاق بن إبراهيم الموصلي صاحب الصيت البعيد في الغناء والأدب والرواية؛ والثاني إسحاق بن إبراهيم المُصعبي (حاكم بغداد في أيام المأمون والمعتصم والواثق) وهو من أرباب المكانة العالية في الأدب والرواية ونقد الغناء.

غير أنه ليس من المحتمل أن يكون الراوي هو إسحاق المصعبي، لأنه من ذوي قرابة طاهر بن الحسين قاتل الأمين. وأهل هذا البيت بجميعهم نشأوا في بوشنج من خراسان، ولم يحضروا بغداد إلا بعد دخول المأمون فيها. يعرف ذلك كل من عانى التاريخ الإسلامي. فكيف يكون إسحاق المصعبي قد شهد مجالس الأمين في دار السلام أو أخذ منه الجوائز والصِّلات؟ (أُنظر ص ٤٣ من هذا الكتاب).

أما إسحاق الموصلي فما أشبهه بأن يكون هو الراوي للخبر، لولا أن عبارة الجاحظ مضطربة مشوّشة بحيث إنها لو بقيت على حالها كما هي واردة في س، ص (وكما جرت العادة به في الكتابة العربية أي بدون علامات الترقيم) لكان من المتعذر معرفة وجه الصواب أو نسبة الحديث إلى صاحبه. وذلك لأن القصة تضمنت خبرا فيه تحقير لأبيه وتصغير لشأنه (كما تراه في ص ٣٩ و ٤٠) فضلا عن أنها تنتهي بخبر هو إسحاق الموصلي نفسه (في ص ٤٣ و ٤٤). وهذا الخبر الثاني منقول بصيغة الغائب المحدَّث عنه، لا كما يتكلم الإنسان عن نفسه. وفيه ما يجدر بمثل الموصلي أنْ يملأ به فمه تشدُّقا وفخرا ويرفع له رأسه تيها وكبرا. كيف! وفيه أنّ المأمون ضمّ إسحاق وقبّله. فكان المعقول والمتحتم أن يقول الراوي مُدِلًّا معجبا: "فضمّني وقبّلني"

على أن الشكّ في راوي هذا الحديث قديم. يرجع أوّل عهده إلى الطبريّ المتوفى سنة ٣١٠. فقد روى إمام المؤرّخين واقعة إبراهيم (والد إسحاق الموصلي) مع الهادي. (راجع السلسلة ٣ ص ٥٩٥). والخبر بنصه تقريبا وارد في عبارة الجاحظ (ص ٣٦). لكن الطبريّ رواه بصيغة الغائب وصدّره بقوله: "وذُكِر عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي أو عن غيره". وكذلك روى صاحب "الأغاني" خبر إبراهيم بن المهدي مع الأمين (الوارد في حديث الجاحظ ص ٤٣) بروايتين مختلفتين جدا، إحداهما عن إسحاق الموصلي متكلما عن نفسه والثانية عن محمد بن الحارث بن بسخنر (راجع الأغاني ج ٩ ص ٧١). والخبر نفسه وارد أيضا عن إسحاق الموصلي بلهجة المحدِّث عن نفسه في "العقد الفريد" لابن عبد ربه (ج ٣ ص ٢٤٤) وفي "معجم الأدباء" لياقوت (ج ٢ ص ٢٠٦).

=

قال: „أما مُعاويَةُ ومَرْوَانُ وعبد المَلِك والوليد وسليمان وهشام ومَرْوان"
„ٱبن محمد، فكان بينهم و بين الندماء ستارة. وكان لا يظهر أحدٌ من الندماء علىٰ مايفعله"
(٣٣) „الخليفة، إذا طرِبَ للمَغْنىٰ وٱلتَذَّهُ حتّى ينقلِبَ ويمشى ويحرّك كتفيه ويرقص"
„ويتجرّد حيث لا يراه إلا خواصّ جواريه. إلاّ أنّه كان إذا ٱرتفع من خلف الستارة"
„صوتٌ أو نعير طَرَبٍ أو رقصٌ أو حركةٌ بزفير تجاوز المقدار، قال صاحب الستارة:"
„حَسْبُكِ ياجارية! كُفّى! إنتَهِى! أقْصِرى! ـ يُوهِمُ الندماء أنّ الفاعل لذلك بعض"
„الجوارى."

„فأما الباقون من خلفاء بنى أُميّة فلم يكونوا يتحاشَوْن أن يرقصوا ويتجرّدوا"
„ويحضروا عُراة بحضرة الندماء والمغنّين. وعلىٰ ذلك، لم يكن أحدٌ منهم فى مثل حال"
„يزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد فى الُمجُون والرَّفَث بحضرة الندماء والتجرّد:"
„ما يُباليان ماصنعا."

= وعندى أنه لا يمكن التوفيق بين جميع هذه الروايات، إلا إذا فرضنا أن هذا الحديث قد رواه الجاحظ عن إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ، ثم حشاه بٱستطرادات من عنده وروايات أخرىٰ ضمّها إليه مما يَتّسق معه ويناسب المقام أو يرتبط بالموضوع. فكان الجاحظ إذا ٱنتهى من الحشو والأستطراد على ما ٱعتادته طبيعته وألفته نفسه كما هو المعهود فى كلّ كتبه وتصانيفه، عاد إلى الحديث الأصلىّ مستعملا لفظة "قال" تنبيهاً للقارئ إلى رجع ما ٱنقطع ووصل ما ٱنفصل وٱستئنافا لما حدثه به إسحاق بن إبراهيم (الموصلىّ). فحينما كان المقام يدعو الجاحظ للكلام عن نفس إسحاق (صاحب الحديث)، وضع لفظة "ويقال". فيذكر من عنده خبرا عن نفس إسحاق بصيغة الغائب المحدّث عنه. أما إذا عرض للجاحظ أن يحشر فى تضاعيف الحديث الأصلى شيئا من عنده لأجل زيادة التعريف بأحد الخلفاء أو أحد الأشخاص المذكورين فى الحديث، فكان يستعمل لفظة "وهو" أو "وكان". فإن أتى المؤلف برواية أخرى، عبّر بقوله "وزعم فلان" أو "ولقد حدثنى فلان".

فلذلك كله وضعتُ بين شولتين مزدوجتين „ " كل سطر من السطور التى ورد فيها كلامٌ دلّنى السياق والبحث والأستقصاء على أنه من حديث إسحاق بن إبراهيم الموصلى للجاحظ. وأغفلتُ من هذه الإشارة كل ما تأكد عندى أنه من حشو الجاحظ وٱستطراداته، لأنه من ضمن عبارته، والكتاب كله له.

(عمر بن عبد العزيز)

قلتُ : فعمر بن عبد العزيز؟

قال : „ماطنَّ فى سمعه حرفُ غِناء، منذ أفضتْ الخلافة إليـه إلىٰ أن فارق الدنيا.“ „فأما قبلها ــ وهو أمير المدينة ــ فكان يسمع الغِناء، ولا يظهر منه إلا الأمر الجميل.“ „وكان ربمـا صفَّق بيديه، وربمـا تمرغ علىٰ فراشه وضرب برجليْه وطَرِبَ. فأما أن“ „يخرج عن مقدار السرور إلىٰ السُّخْف، فلا.“

(٣٤)

قلتُ : فخلفاؤُنا؟[1]

أحوال العباسيين فى الشرب واللهو

(السفاح)

قال : „كان أبو العباس فى أوّل أيامه يظهر للندماء ثم آحتجب عنهم بعد سنة.[2]“ „أشار بذلك عليه أَسَـيْد[3] بن عبد الله [الخُزاعىّ]. وكان يطرَب ويبتهِجُ ويصيح من“ „وراء الستارة : „أحسنْتَ والله ! أعِدْ هذا الصوتَ !“ فيُعاد له مرارًا. فيقول فى كلها :“ „„أحسنتَ !“ وكانت فيه فضيـلة لاتجـدها فى أحد. كان لا يحضُره نديم ولا مُغنٍّ“ „ولا مُلْهٍ فينصرف إلّا بِصِـلةٍ أو كُسْوَة، قلّتْ أم كَثُرَتْ[4]. وكان لايؤَخِّرُ إحسانَ“ „مُحْسِنٍ لغدٍ، ويقول : „العجب ممن يُفرِّحُ إنسانا، فيتعجّلُ السرورَ ويجعلُ ثوابَ مَن“ „سَرَّه تسويفا وعِدَةً !“، فكان فى كل يوم وليلة يقعد فيه لشـغله، لاينصرف أحدٌ ممن“ „حضره إلّا مسرورا. ولم يكن هذا لعربىّ ولا عجمىّ قبله. غير أنه يُحْكَىٰ عن بَهْرَامَ جُورٍ“ „مايُقارِب هذا[5].“

(١) صـ : لخلفاء بنى العباس؟

(٢) أنظر شذرات الذهب. „ج ١ ص ٢١٦“

(٣) كان من القائمين بالدعوة العباسية ومن رجالات أبى مُسلم الخراسانى، وكان على مقدّمته عند دخوله مرو. توفى سنة ١٥٦ هـ وهو أمير خراسان. (أنظر المهارس فى الطبرىّ وفى ابن الأثير)

(٤) أورد صاحب „محاسن الملوك“ مايضارع ذلك (ص ٣٠)

(٥) قارِنْ ذلك بما نقله صاحب „مروج الذهب“ (ج ٦ ص ١٢١ و ١٢٢).

(المنصور) „فاما أبو جعفر المنصور، فلم يكن يظهر لنديمٍ قطُّ، ولا رآه أحد يشرب غير الماء.“
„وكان بينه وبين الستارة عشرون ذراعا، وبين الستارة والندماء مثلها. فإذا غنّاه“
(٢٥) „المُغَنِّى فاطربه، حَرّكتِ الستارةَ بعضُ الجوارى فاَطّلعَ إليه الخادمُ صاحبُ الستارة“
„فيقول: قل له: «أحسنتَ! بارك الله فيك!» وربما أراد أن يُصفِّق بيديه، فيقوم عن“
„مجلسه ويدخل بعض حُجَر نسائه، فيكون ذلك هناك. وكان لا يُثيب أحدًا من ندمائه“
„وغيرهم درهما، فيكون له رَسْمًا فى ديوانٍ. ولم يُقْطِعْ أحدًا ممن كان يضاف إلى مُلْهِيَةٍ“
„أو ضَحِكٍ او هزْلٍ موضعَ قَدَمٍ من الأرض. وكان يحفظ كلَّ ما أعطىٰ واحدًا منهم“
„عشرَ سنين ويحسبُه ويذكره له.“

وكان أبو جعفر المنصور يقول: «مَن صنع مثل ما صُنع إليه، فقد كافأ؛ ومَن أضعفَ، كان مشكورًا؛ ومَن شكر، كان كريمًا؛ ومَن علم أن ما صَنع فإلىٰ نفسه صنع، لم يستبطئ الناس فى شكرهم ولم يستزدهم فى مودّتهم. ولا تلتمس من غيرك شكر ما أتيتَه إلىٰ نفسك ووقيتَ به عِرضَك. وآعلم أن الطالب إليك الحاجةَ لم يُكْرِمْ وجهه عن مسالتك، فأكْرِمْ وجهك عن ردّه.»(١)

(المهدى) „وكان المهدىُّ فى أوّل أمره يحتجب عن الندماء، متشبّها بالمنصور نحوًا من سنة.“
„ثم ظهر لهم. فأشار عليه أبو عَوْنٍ(٢) بأن يحتجب عنهم، فقال: «إليك عنى، يا جاهل!“

(١) هذه الفقرة المحصورة بين نجمتين** منقولة عن صـ . وهى آستطرادٌ أجنبىٌّ من موضوع الحديث.

(٢) هو عبد الملك بن يزيد الخراسانىّ الأزدىّ. كان من أهل الرأى ومن وجوه الشيعة القائمين بالدعوة العباسية، ومن قوّاد أبى مسلم الخراسانىّ. وكان له بلاء حسن فى تمهيد الأمر لبنى العباس. دخل بجنوده دمشق عنوة من باب كيسان ثم تعقب مروان بن محمد الجعدىّ إلى مصر عند هربه إليها، وفيها قتله. وبقى فيها ومعه السلاح والأموال والرقيق. فولّاه عليها أبو العباس السفاح مرتين: الأولىٰ من شعبان سنة ١٣٣ =

„إنما اللذة فى مشاهدة السرور وفى الدُّنُوّ ممن سرَّنى . فأما من وراء وراء ، فما خيرُها“
„ولذّتها؟ ولو لم يكن فى الظهور للندماء والإخوان إلّا أنّى أُعطيهم من السرور“
„بمشاهدتى مثل الذى يُعطونى من فوائدهم ، لجعلتُ لهم فى ذلك حظًّا مُوفَّرًا . » وكان“
„كثير العطايا ، يواترها[1] . قلَّ من حضره إلّا أغناه . وكان لَيِّنَ للعريكة ، سَهْلَ الشريعة ،“ (٢٦)
„لذيذ المنادمة ، قصير المناوِمة[2] ، ما يَمَلُّ نديما ولا يتركه إلّا عن ضرورة ، قطيع الخنا ،“
„صبورا على الجلوس ، ضاحك السنّ ، قليل الأذىٰ والبَذاء .“

„وكان الهادى شَكِسَ الأخلاق ، صعْب المرام ، قليل الإغضاء ، سيّئ الظنّ[3] . قلَّ“ (الهادى)
„مَن توقّاه وعرف أخلاقه ، إلّا أغناه . وما كان شئٌ أبغضَ إليه من ٱبتدائه بسؤال .“
„وكانَ يأمر للمغنّى بالمال الخطير الجزيل ، فيقول : « لا يُعطينى بعدَها شيأ » ، فيعطيه“
„بعد أيام مثل تلك العطيّة .“

= إلى سنة ١٣٥ . وهو الذى أمر أصحابه بالبناء فى الأرض الفضاء التى محلها الآن جامع آبن طولون . و بنى هو هنالك دار الإمارة ومسجدًا عُرف بجامع العسكر . ولذلك سمى المكان كله بٱسم العسكر من ذلك الوقت ، وصار فيابعد مدينة عامرة . ثم أرسله أبو العباس السفاح على رأس الجيش المتوجه إلى المغرب فى جمادى الآخرة سنة ١٣٦ . ولكن الخليفة مات ، فجاء أمر الخليفة الجديد أبى جعفر المنصور بالعدول عن هذه الغزوة . فأقام أبو عون ببرقة شهرًا . ثم عاد إلى مصر بجيشه فذهب إلى فلسطين لحرب الخوارج . فهزمهم وقتل منهم جما غفيرا ، وأرسل إلى مصر ثلاثة آلاف رأس . ثم تولّى خراج مصر وصلاتها بطريق النيابة حتى جاءه التقليد فى ٢٠ رمضان سنة ١٣٧ . وأقام فى هذه الولاية الثانية ثلاث سنين وستة أشهر . وعاد إلى مصاحبة المنصور وحضر معه واقعة الراوندية . فلما أفضت الخلافة إلى المهدىّ ، ٱستعمله على خراسان سنة ١٥٩ ثم عزله عنها سنة ١٦١ . (أُنظر الأغانى وٱبن الأثير وأبى المحاسن تغرى بردى ، فى فهارسها)

(١) صـ : وافرها .

(٢) سـ : قصير المباومة والملايلة .

(٣) سـ : النظـر .

ويقال إنه قال يوما، وعنده ٱبن جامع وإبراهيم الموصليّ ومُعاذ بن الطبيب —وكان أوّل يوم[١] دخل عليه مُعاذ وكان حاذقا بالأغانى عارفا بها—: مَن أطربنى اليومَ منكم فله حُكْمُه. فغنّاه ٱبن جامع غِناءً لم يحرّكه، وكان إبراهيم قد فهم غرضه فغنّاه:

سُلَيمى أجمعَتْ بينا * فأينَ تقولُها[٢] أينا ؟

فطرِب حتّى قام عن مجلسه ورفع صوته، وقال: "أَعِدْ بالله، وبحياتى!" فأعاد، فقال: «أنت صاحبى فٱحتكِمْ» فقال إبراهيم: يا أمير المؤمنين، حائط[٣] عبد الملك بن مروان وعينه الخرارة[٤] بالمدينة! قال: فدارت عيناه فى رأسه حتّى صارتا كأنهما جمرتان ثم قال: «يا ٱبن اللخناء! أردتَ أن تُسْمِعَ العامّةَ أنك أطربْتَنى، وأنّى حكّمْتُك فأقطعتُك! [أما والله][٥] لولا بادرةُ جهلك التى غلبتْ على صحيح عقلك وفكرك، لضربتُ الذى فيه عيناك!» ثم سكت هُنَيْهَةً. قال إبراهيم: فرأيتُ مَلَكَ الموت قائما بينى وبينه ينتظر أمره. ثم دعا إبراهيم الحرّانىّ[٦]، فقال: «خذ بيد هذا الجاهل، فأدخِله بيت المال، فليأخُذْ منه ماشاء!» فأخذ الحرّانىّ بيدى حتّى دخل بى بيت

(٢٧)

---

(١) صـ: من.

(٢) "تقولها" هنا مثل "تظنّها" معنًى وعملاً. وقد تحرّفت هذه الكلمة فى كثير من كتب الأدب المطبوعة. وهذه القصة التى ذكرها الجاحظ أوردها الطبرى أيضا (سلسلة ٣ ص ٥٩٥) بٱختلاف قليل، وهى غير واردة فى الأغانى، وإنما هنالك حكاية أخرى وفيها الأبيات بأكلها. (أنظر ج ٢١ ص ١٦٦)

(٣) أى بستان.

(٤) الينبوع الذى يخرج منه جدول يتدفق ماؤه.

(٥) الزيادة عن الطبرىّ (سلسلة ٣ ص ٥٩٦).

(٦) هو عديل هارون الرشيد. وكان من ندماء الهادى وهو ولىّ العهد. ويظهر من كلام ٱبن الأثير أنه كان قيّما على خزائن الأموال فى أيام الهادى. (الأغانى ج ٦ ص ٦٧ وج ١٧ ص ١٧)

المال، فقال: كم تأخذ؟ فقلتُ: مائة بدرة[(١)]. فقال: دعنى أؤامره. قلتُ: فآخذُ تسعين. قال: حتى أؤامره. قلتُ: فثمانين. قال: لا. فأبى إلّا أن يؤامره، فعرفتُ غرضه، فقلت له: آخذُ سبعين لى، ولك ثلاثون. قال شأنك[(٢)]! قال: فآنصرفتُ بسبعمائة ألف، وآنصرف مَلَك الموت عن الدار[(٣)].

قال[(٤)]: «وكان الرشيد فى أخلاق أبى جعفر المنصور، يمتثلها كلّها إلّا فى العطايا والصِّلات والخِلَع. فإنه كان يقفو فعل أبى العبّاس والمهدىّ. ومَنْ خبّرك أنه رآه قطُّ وهو يشرب إلّا الماء، فكذِّبْه[(٥)]. وكان لايحضُر شربه إلّا خاصّ جواريه. وربما طرب للغناء فتحرّك حركةً بين الحركتين فى القِلّة والكثرة.» (٢٨) (الرشيد)

وهو من بين خلفاء بنى العباس مَن جَعَل للمغنِّين مراتب وطبقات، على نحو

(١) البدرة فى الأصل جلد السخلة (أى ولد الضائنة أو الماعزة). كانوا يضعون فيها الأموال، ثم أطلقوا آسمها على المال نفسه مجازا. والمستفاد من كتب اللغة أن البدرة كيس فيه ألف درهم أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار. ورواية الجاحظ هنا تدل على أن مقدارها فى أيام العباسيين كان عشرة آلاف درهم.

(٢) فى س، ص: شارك. وفى الطبرى: «قال الآن جئتَ بالحق، فشأنك!» (سلسلة ٣ ص ٥٩٦)

(٣) أورد صاحب «محاسن الملوك» هذه القصة بآختصار ألفاظ الجاحظ. (ص ٣٠ و ٣١)

(٤) أى إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ راوى هذه الحكاية كلها للؤلف.

(٥) هـذا النصّ الصريح يؤيد رأى آبن خلدون فى مقدمته (ص ١٤). وذلك أن «إلّا» هنا معناها «غير» كما وردت فى غير ما آية قرآنية و بيت شعرىّ. فيكون المعنى الذى أراده محدِّث الجاحظ: لو خبّرك إنسان بأنه رأى هارون وهو يشرب شرابا غير الماء، فآعلمْ أنه كاذبٌ. لأن الرشيد، كان إذا أراد الشرب، فإنما يشرب بحضرة خاصّ جواريه دون سائر الناس، بحيث لم يره أحد يشرب شيئا سوى الماء، حتى يجوز له الإخبار بذلك عنه [وانظر ص ١٥٣ من هذا الكتاب]. يؤيد ذلك ماوقع له مع آبن بختيشوع بشأن السمكة التى منعه الطبيب من أكلها. (مروج الذهب ج ٦ ص ٣٠٥ — ٣٠٦؛ وعيون الأنباء ج ١ ص ١٢٩)

ما وضعهم أردشير بن بابك وأنوشروان. فكان إبراهيم [الموصلىّ] [1] و [إسماعيل أبو القاسم] ابن جامع وزلزل [منصور الضارب] فى الطبقة الأُولى. وكان زلزلٌ [2] يضرب، ويُغنّى هذانِ [3] عليه.

---

(١) الأسماء والكُنى والألقاب الموضوعة بين [ ] فى هذه الصفحة والتى تليها مأخوذة عن الأغانى لأبى الفَرَج.

(٢) كان زلزل هذا ممن يضرب به المثل فى حسن الضرب بالعود وكان من الأجواد. وقد اشتهر فى أيام المهدىّ والهادى والرشيد. ومن آثاره العمرانية بركةٌ أنشأها فى بغداد ووقفها على المسلمين، فاشتهرت باسمه؛ واشتهرت المحلة الكائنة فيها باسمها. قال فيها نفطويه النحوى:

لو أنّ زُهيرا وامْرأ القَيس أبصرا * مَلاحةَ ما تحويه بركةُ زَلْزَلِ،
لمَا وصَفا سَلْمى ولا أُمّ جُندُبٍ * ولا أكثرا ذكر الدَّخول فحَومَلِ.

وقد أكثر الشعراء من ذكرها.

غضب عليه الرشيد فحبسه سنين. وكانت أُخته تحت إبراهيم الموصلى، فقال إبراهيم فيه:

هل دهرُنا بك عائدٌ يا زَلزَلُ * أيامَ يغنينا العدوّ المُبطِلُ،
أيامَ أنت من المكاره آمنٌ * والخير مُتَّسِعٌ علينا مُقبِلُ؟
يا بُؤسَ مَن فقد الإمام وقُربَه! * ما ذا به من ذِلّة، لو يعقل؟
ما زلتُ بعدك فى الهموم مردّدا * أبكى بأربعة كأنى مثكل.

فرضى عنه الرشيد وأخرجه من الحبس. (أُنظر معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٥٩٢ وج ٤ ص ١٢٣ و ٢٥٢؛ وأنظر شفاء الغليل للخفاجىّ ص ١١٧؛ والأغانى ج ٥ ص ٢٢)

(٣) أى صاحباه الآخران وهما إبراهيم الموصلىُّ وابن جامع. والذى جاء "فى الأغانى" (ج ٥ ص ٤٠) أن إبراهيم الموصلى وزلزلا وبرصوما اجتمعوا بين يدَيِ الرشيد فضرب زلزلٌ وزَمَر برصوما وغنّى إبراهيم:

عصا قلبى وراغ إلىّ عقلى * وأقصرَ باطلى ونسيتُ جهلى.
رأيتُ الغانيات، وكنّ خُزْرًا * إلىّ، صرمْنَنى وقطَعْنَ حبلى.

فطرب هارون حتى وثب على رجليه وصاح: يا آدم! لو رأيتَ مَن يحضرنى من ولدكَ اليوم، لسرّك! ثم جلس =

والطبقة الثانية سُلَيم بن سلام (١) [أبو عبيدالله الكوفىّ] وعمرو الغزال (٢) ومَن أشبههما. والطبقة الثالثة أصحاب المعازف والوبج والطنابير. وعلى قدر ذلك كانت تخرج جوائزهم وصِلاتهم. وكان إذا وصل واحدًا من الطبقة الأُولى بالمال الكثير الخطير، جعل لصاحبيه اللذين معه فى الطبقة نصيبا منه، وجعل للطبقتين اللتين تليانه منه أيضا نصيبا. وإذا وصل أحدا من الطبقتين الأُخرَيَيْن بصلة، لم يقبل واحدٌ من الطبقة العالية منه درهما، ولا يجترئُ أن يعرض ذلك عليه. (٤٩)

قال: "فسأل الرشيد يومًا برصوما الزامر، فقال له: يا إسحاق (٣)! ما تقول فى آبن جامع؟ فحرّك رأسه [و] قال: خَمْرٌ قُطْرُبُلٌ، يعقل الرجْل ويُذهب العَقْل. قال: فما تقول فى إبراهيم الموصلىّ؟ قال: بستانٌ فيه خوخ وكُمَّثرى وتُفّاح وشَوْكٌ وخُرْنُوبٌ."

قال: "فما تقول فى سليم بن سلام؟ فقال: ما أحسنَ خِضابه! قال: فما تقول فى عمرو الغزال؟ قال: ما أحسن بنائه (٤)!"

قال: وكان منصورٌ زلزل من أحسن وأحذق مَن بَرَأ الله بالجَسّ. فكان إذا جَسّ العُود، فلو سمعه الأحنف (٥) ومَن تحالم فى دهره كله، لم يملكْ نفسه حتّى يطرب.

—— وقال: أستغفر الله!

وفى العقد الفريد (ج ٢ ص ٢٤٧) أن زلزلا كان يضرب على إبراهيم، يعنى الموصلى.

(١) صـ: سليمان بن سلامة (وهكذا فى بقية الحكاية).

(٢) فى سـ، صـ: "العزال" بالعين المهملة (وهكذا فى بقية الحكاية). وقد آعتمدتُ ما أورده صاحب الأغانى (ج ١١ ص ٣٤ و ٧٧ وج ٢٠ ص ٦٤ و ٦٥).

(٣) أى إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ راوى الحكاية للجاحظ.

(٤) سـ: "ثيابه". وفى الأغانى (ج ٦ ص ٧٢) أن برصوما الزامر ذكر إبراهيم الموصلى وآبن جامع، فقال: "الموصلىّ بستانٌ تجد فيه الحلو والحامض، وطريا لم ينضج، فتأ كل منه من ذا ومن ذا؛ وآبن جامع زِقّ عسل، إن فتحتَ فمه خرج عسل حُلْوٌ، وإن خرقتَ جنبه خرج عسل حُلْوٌ، وإن فتحت يده خرج عسل حُلْوٌ: كله جيّد."

(٥) هو أبو بحر الضحّاك بن قيس. ينتهى نسبه إلى زيد مناة. وهو الذى يضرب به المَثَل فى الحلم. وكان آية فى الجِدّ والوقار. (أنظر ترجمته فى آبن خلكان والأغانى وغيرهما)

قال إبراهيم[١] : فغنّيتُ يومًا على ضربه، فخطّأنى. فقلتُ لصاحب الستارة: هو والله أخطأ! قال: فرفع الستارة، ثم قال: يقول لك أمير المؤمنين: أنت والله أخطأتَ! فحيِىَ زَلزلٌ وقال: يا إبراهيم، تخطّئنى؟ فوالله ما فتح أحدٌ من المغنين فاهُ بغير لفظ إلّا عَرَفتُ غرضَه! فكيف أُخطئُ وهذه حالى؟ فأدّاها صاحبُ الستارة، فقال الرشيد: قل له: صدقتَ! أنت كما وصفتَ نفسك، وكَذَبَ إبراهيم وأخطأ. (٣٠) قال إبراهيم: فغمّنى ذلك، فقلتُ لصاحب الستارة: أبلغْ أمير المؤمنين، سيّدى ومولاى، أنّ بفارسَ رجلا يقال له سُنَيْد[٢]، لم يخلُق الله أضربَ منه بعود ولا أحسن مجسًّا، وإن بعث إليه أمير المؤمنين فحمله عرف فضله وتغنّيتُ على ضربه. فإنّ زَلزلًا يكايدنى مُكايدةَ القُصّاص والقرادين. قال: فوجّه الرشيد إلى الفارسىّ فحُمل على البريد، فأقلق ذلك زَلزلًا وغمّه. فلما قدم بالفارسىّ، أحضرنا وأخذنا مجالسنا وجاؤا بالعيدان قد سُوّيت. وكذلك كان يُفعَل فى مجلس الخلافة، ليس يُدفَع إلى أحدٍ عودُه فيحتاج إلى أن يحرّكه لأنها قد سُوّيت وعُلّقتْ مثالثها مُشاكِلَةً للزِّيَرة[٣] على الدقة والغلظ. قال: فلما وُضع عُود الفارسىّ فى يديه، نظر إليه منصور زلزل، فأسفر وجهه وأشرق لونه. فضرب وتغنّى عليه إبراهيم. ثم قال صاحب الستارة لزلزل: يامنصور: اِضرِبْ! قال: فلما جسّ العود، ماتمالك الفارسىّ أنْ وثب من مجلسه بغير إذنٍ حتّى قبل رأس زَلزَل وأطرافه، وقال: مِثْلُكَ ــ جُعِلتُ فداك! ــ (٣١)

(١) أى إبراهيم الموصلىّ حكاية عن نفسه. وهذه القصة من آستطرادات الجاحظ أيضا

(٢) لم يذكره صاحب الأغانى، ولم يورد هذه الحكاية. وهى غير واردة فى صــ.

(٣) جمع زير، مثل ديك ودِيَكَة. والزير: هو الوتر الدقيق من الأوتار وأحكمها فتلًا (فى عود الطرب). فكأنّ المؤلف قال: وعُلّقتْ مثالثه مشاكلة لمثانيه. قال المفضل بن سلمة النحوى فى كتاب الملاهى ما نصه: "و يقال لأوتاره [أى العود] المحابضُ واحدها مَحْبَض وهى الشِّرَع واحدتها شِرْعَة. فمنها الزير، والذى يليه المَثْنَى ومنهم من يسميه الثانى، والمَثْلَث ومنهم من يسميه الثالث، والبَمّ. و يقال للتى يسميها الفرس دساتين، العَتَب. وكل ذلك قد جاء فى الشعر."

لا يُمتهَن ويُستعمل، مثلك يُعبَد. فعجب الرشيد من قوله وعرف فضيلة زلزل على الفارسيّ، فأمر له بصلة وردّه إلى بلده.

* وكان منصور زلزل من أسخى الناس وأكرمهم. نزل بين ظهرانَي قوم، وقد كان يحلّ لهم أخذ الزكاة. فما مات حتّى وجبت عليهم الزكاة. *(١)

„وكان إسحاق برصومًا فى الطبقة الثانية. قال: فطرب الرشيد يوما لزمره، فقال له صاحب الستارة: يا إسحاق! أزمُر على غناء آبن جامع. قال: لا أفعلُ. قال: يقول لك أمير المؤمنين، ولا تفعلُ؟ قال: إن كنت أزمُرُ على الطبقة العالية، رُفعتُ إليها. فأمّا أنْ أكون فى الطبقة الثانية وأزمُرَ على الأُولىٰ، فلا أفعلُ! فقال الرشيد لصاحب الستارة: اِرفعه إلى الطبقة الأُولىٰ؛ فإذا قمتُ، فآدفَع البساط الذى فى مجلسهم إليه. فرُفع إسحاق إلى الطبقة العالية وأخذ البساط، وكان يساوى ألفَى دينار. فلما حمله إلى منزله آستبشرت به أمّه وأخواته. وكانت أمه نَبَطيةً(٢) لكناء. فخرج برصوما عن منزله لبعض حوائجه، وجاء نساء جيرانه يُهنِّئْنَ أمّه بما خُصّ به دون أصحابه ويدعون لها. ٣٢ فأخذت سِكّينًا وجعلت تقطع لكل مَن دخل عليها قطعة من البساط، حتّى أتت على أكثره. فجاء برصوما فإذا البساط قد تُقُسِّمَ بالسكاكين. فقال: وَيْلَكِ! ماصنعْتِ؟ قالت: لم أدرِ، ظننتُ أنه كذا يُقَسَّم. فحدّث الرشيد بذلك، فضحك ووهب له آخر.“

* وزعم سعيد بن وهب(٣) أنّ إبراهيم الموصليّ غنّى أمير المؤمنين هارون صوتًا، فكاد

---

(١) هذه العبارة المحصورة بين نجمتين *.* منقولة عن ص.

(٢) التى لا تُقيم العربية لعجمة لسانها. (قاموس)

(٣) هو أبو عثمان سعيد بن وهب البصريّ. كان كاتبا شاعرا مطبوعا. مات فى أيام المأمون. (أنظر أخباره فى الأغانى ج ٢١ ص ١٠٤ – ١١٠)

يطير طربًا، فأستعاده عامّة ليله، وقال: «ما رأيت صوتًا يجمع السخاء والطرب وجودة الصنعة والسخف غير هذا الصوت!» فأقبل إبراهيم، فقال: «يا أمير المؤمنين! لو وهبَ لك إنسان مائة ألف درهم، أو لو وجدتَ مائة ألف درهم مطروحة، كنتَ أَسَرّ بها أو بهذا الصوت؟». قال: «والله لأَنَا أَسَرُّ بهذا الصوت منى بألف ألف، وألف ألف!» قال: «فلو فقدتَ من بيت مالكَ مائةَ ألف كان أشدَّ عليك، أو لو فقدتَ هذا الصوت وفاتك هذا السرور؟» قال: «بل ألف ألف، وألف ألف أهونُ علىَّ.» قال: «فلِمَ لا تهبُ مائة ألف أو مائتى ألف لمن أتاك بشيءٍ فَقْدُ ألفي ألف أهونُ عليك منه؟» فأمر [له] بمائتى ألف درهم.[1] *

(الامين) قلتُ لإسحاق: فالمخلوع[2]، أين كان ممن ذكرتَ؟

قال: «ما كان أعجبَ أمرَه كلَّه! فأما تبذّله، فما كان يبالى أين قعد ومع مَن قعد.» «وكان، لو كان بينه وبين ندمائه مائة حجاب، خرّقها كلَّها وألقاها عن وجهه حتى» «يقعد حيثُ قعدوا. وكان مِنْ أعطى الخلق لذهبٍ وفضةٍ، وأنهبهم للأموال إذا» «طَرِب أو لَهَا. وقد رأيتُه وقد أمر لبعض أهل بيته[3] فى ليلةٍ بوقْرِ زورقٍ ذهبًا،» «فأنصرف به. وأمر لى[4] ذات ليلة بأربعين ألف دينار، فحُملتْ أمامى. ولقد غنّاه» «إبراهيم بن المهدىّ غناء لم أرتضه. فقام عن مجلسه فأكبّ عليه فقبّل رأسه. فقام»

(١) هذه الجملة المحصورة بين نجمتين * * منقولة عن صـ .

(٢) يعنى الأمين الخليفة العباسى. وبذلك اللقب يسميه أغلب الكتّاب والمؤرخين المعاصرين له أو الذين بعده بقليل، لقرب عهدهم بخلعه وأشتهاره بينهم. وشاهدُ ذلك بين أيدينا الآن، فإن الأتراك لا يُسَمُّون السلطان عبد الحميد فى كتاباتهم وأحاديثهم إلا بأسم "المخلوع".

(٣) الإشارة إلى إبراهيم بن المهدىّ عمّ الخليفة. (أنظر الأغانى ج ٩ ص ٧١)

(٤) الضمير يعود إلى راوى الحكاية وهو إسحاق بن إبراهيم الموصلى.

"ابراهيم فقبّل ما وطِئَتْ رجلاه من بِساطه. فأمر له بمائتى ألف دينار. ولقد رأيتُه" (٣٣)
"يوما، وعلى رأسه بعض غلمانه، فنظر إليه فقال: وَيْلَكَ! ثيابُك هذه تحتاج الى أنْ"
"تُغْسَلَ. انطلقْ، فَخُذْ ثلاثين بَدرة، فاْغسلْ بها ثيابك."

ولقد حدَّثنى عَلَّوَيْه[1] [الأعسر وهو أبو الحسن علىّ بن عبد الله بن سيف] عنه قال: لما أُحِيطَ به وبلغت حجارة المنجنيق بِساطه، كنا عنده فغنّته جاريةٌ له بغناء تركتْ فيه شيئاً لم تُجِدْ حكايته. فصاح: يا زانية! تغنيني الخطأ! خذوها! فحُمِلتْ. وكان آخرَ العهد بها.

(المأمون)

قلتُ: فالمأمون؟

قال: "أقام بعد قدومه عشرين شهرًا لم يسمع حرفًا من الغناء. ثم سمعه من وراء" "حجابٍ، متشبِّها بالرشيد. فكان كذلك سَبْعَ حِجَجٍ. ثم ظهر للندماء والمغنين."

قال: "وكان حين أَحَبَّ السماع ظاهراً بعينه، أَكْبَرَ ذاك أهلُ بيته وبنو أبيه."

ويقال إنه سأل عن إسحاق بن ابراهيم الموصِلىّ[2] فغمزه بعضُ مَن حضر، وقالوا: مايُغادر تيهًا وبَأْوًا[3]. فأمسك عن ذكره. قال: فجاءه زُرْزُر يوما فقال له: يا إسحاق، نحن اليومَ عند أمير المؤمنين! فقال إسحاق: فغَنِّهِ بهذا الشعر:

---

(١) الزيادة التى بين [ ] عن كتاب الأغانى لأبى الفرج.

(٢) كان المأمون يعقد مجلسا لتفريق الأرزاق، فكان إسحاق هذا أوّلَ مَن يدخل عليه فى طائفة الوزراء، ثم القُوّاد، ثم القضاة، ثم الفقهاء والمعدّلين، ثم الشعراء، ثم المغنّين، ثم الرماة فى الهَدَف. (عن ذيل أمالى القالى ص ٩٠)

(٣) البأْو هو الفخر والكبر والتيه. قال حاتم الطائىّ:

فما زادنا بأْوًا على ذى قرابة * غِنانا، ولا أزرى بأحسابنا الفقرُ.

وانظر هذه القصة أيضا فى العقد الفريد (ج ٣ ص ٢٤٤).

يَاسَرْحَةَ(١) المَـاءِ قدسُدّتْ مَوارِدُهُ، * أما إليك طريقٌ غيرُ مســدودِ؟
لِحَـائِمٍ حَامَ(٢) حـتّى لاحَرَاكَ به * مُحَلَّإٍ(٣) عن سبيلِ(٤) المَـاءِ مَطرودِ(٥).

فلما غنّاه به زُرْزُر، أطربه وأبهجه وحرّك له جوارحه. وقال: ويلك! مَن هذا؟

(١) وردت هذه الكلمة هكذا: "سرحة" فى سـ، صـ وفى "الأغانى" و"الطبرى" و"معجم الأدباء" وأكثر كتب الأدب التى وقعت لنا، ومنها محاسن الملوك. وأما صاحب العقد الفريد فقد روى صدر البيت هكذا: "يامشرع الماء". والرواية الأولى هى الأصدق والأصوب، وإن كانت الثانية فيها شبهة من جهة المعنى. والسَّرحةُ شجرةٌ عظيمة بلا شـوك تنبت فى بلاد العَرَب وفى نجد خصوصًا، وورقها أخضر دائمًا، وهى جميلة المنظر. [ويسمّيها أهل شنقيط (آتيل). وفى أشعارهم "ذو السَّرح" وهو موضع يسمّى عندهم باللغة البربريّة "إنواتيل" وهو تعريبٌ له كما ترى. إستفدت ذلك من الأُستاذ الشيخ أحمد بن الأمين الشنقيطىّ.] ومثل ذلك فى بلاد العرب مواضع كثيرة مثل السرحة، وذات السرح، وذو السرح. (أُنظر ياقوت ج ٢ ص ٣٠٥، ج ٤ ص ٤٨٠؛ وج ٣ ص ٢٨٦؛ وج ١ ص ٥٣٦و٥٨٠، ج ٣ ص ٧٨٢)

وأصل الكناية عن المرأة بالسرحة أن عمر بن الخطاب أنذر الشعراء بالجلد إذا هم شبّبوا بالنساء. فقال حُمَيْد ابن ثَوْر فى ضمن قصيدة له:

أَبَى اللهُ إِلّا أَنّ سَرْحَةَ مالِكٍ * على كُلِّ سَرْحاتِ العِضاهِ تَرُوقُ

تُرَانِىَ إِنْ عَلَّلْتُ نفسى بسرحةٍ * من السَّرْح موجودٌ علىَّ طريقُ

(وأنظر ياقوت ج ٣ ص ٧١).

هذا وقد أُورد صاحب "لسان العرب" البيتين اللذين نحن بصددهما وقال كُنِىَ بالسرحة النابتة على الماء عن المرأة، لأنها حينئذ أحسن ما تكون. (أُنظر مادة س رح)

(٢) فى صـ: "حيام" وكذلك فى الأغانى (ج ٩ ص ٦١)، وفيه "حوام" (ج د ص ١٠٦) وقد أورد هذه الحكاية باسم علويه بدلا من زرزر وأضاف بيانات أخرى. ولكنها هنا أوفى وأكمل.

(٣) ممنوع أى مطرود.

(٤) فى الأغانى فى الموضعين المذكورين: "طريق". وكذلك فى صـ. وفى لسان العرب: "طريق الورد".

(٥) إستحسن الأصمعىُّ هذا الشعر وقال: "غير أن هذه الدالآت لو اجتمعت فى آية الكرسىّ، لعابتها".

(عن الوسيط فى تراجم أُدباء شنقيط للأُستاذ أحمد بن الأمين الشنقيطىّ، طبع القاهرة سنة ١٩١١؛ ـــ ص ٢١١)

قال : عبدُك المجفُوّ المطَّرَح، ياسيِّدى، إسحاقُ. قال : يحضُر الساعةَ. فجاءه رسوله، وإسحاقُ مستعدٌّ، قد علِمَ أنه إنْ سمع الغناء من مُجيد مؤدّ أنه سيبعث إليه. فجاءه الرسول. فحُدِّثْتُ[1] أنه لما دخل عليه ودنا منه، مدّ يده إليه ثم قال: آدنُ منى! فأكبّ[2] عليه وآحتضنه المأمونُ وأدناه وأقبل عليه بوجهه مُصْغِيًا إليه ومسرورا به.

* * *

مساسطة الملك لندمائه

ومن أخلاق الملك السعيد تركُ القُطوب فى المنادمة، وقلّة التحفُّظ على ندمائه، و[لا][3] سِيَّما إذا غُلِبَ أحدُهم على عقله، وكان غيرُه أملكَ به منه بنفسه.

(٣٥)

وللسكر حدّ إذا بلغه نديمُ المَلِكِ، فأجملُ الأُمور وأحراها بأخلاقه أنْ لا يؤاخذه بزَلَّةٍ إنْ سبقته، ولا بالفخْرِ إنْ غلبتْ لسانه، ولا بهفوةٍ كانت، إحدى خواطره.

حد الإغضاء عن الزلات

والحدُّ فى ذلك أنْ لايعقل مايقول ولا مايقال له، وإنْ خُلِّيَ ونفسَه رمى بها فى مَهواة، وإن أراد أحدٌ أخْذ ثيابه لم يمانعه.

مواطن المعاقبة عليها

فأما إذا كان ممن يعرف مايأتى وما يَذَرُ، وكان إذا رام أحدٌ أخْذَ ماممه قاتله دونه، وكان إذا شُتِمَ غضِبَ وآنتصر، وإذا تكلّم أفصح وقلّ سَقَطُه[4]: فإذا كانت هذه صفته ثم جاءت منه زَلّةٌ، فعلى عَمْدٍ أتاها وبقصدٍ فعلها. فالملك جديرٌ أن يعاقبه بقدر ذنبه. فإنْ رأى عقوبة هذا ومن أشبهه، قدحٌ فى عزّه وسلطانه.

(١) الضمير للجاحظ.

(٢) روى صاحب "محاسن الملوك" هذه القصة بألفاظ الجاحظ مختصرةً. (ص ٦١)

(٣) لاشك أن أداة النفى (لا) قد سقطت من عبارة الجاحظ. وقد نصوا على وجوبها وآستشهدوا بقول آمرئ القيس ✽ ولاسيَّما يوم بدارة جُلْجُلِ ✽ وأكد أئمة اللغة أن من أهملها فقد أخطأ. (أنظر التسهيل وشرحه وخاتمة الأشمونى فى باب الأستثناء، وآنظر البيان الوافى فى "تاج العروس" (مادة س و ى). [وانظر أيضا ص ١٥٧ من هذا الكتاب].

(٤) أى لغطه.

الاقتصاد في العقوبة

ومن الحقّ على الملك أنْ لا يُجاوز بأهل الجرائم عقوبةَ جرائمهم. فإنَّ لكلِّ ذنبٍ عقوبةً: إمّا في الشريعة والنواميس، وإمّا في الإجماع والاصطلاح. فمَنْ تَرَكَ العقوبةَ في موضعها، فبالحَرى أن يعاقب مَن لا ذنب له. وليس بين ترك العقوبة (إذا وجبت) وعقوبة من لا ذنب له، فرقٌ. وإنما وضع الله الملوكَ بهذه المواضع الرفيعة لِيُقوّموا كلَّ ميلٍ ويَدْعَموا كلَّ إقامة.

[٣٦]

* * *

تفرد الملك بالطيب والتجمل دون ندمائه

ومن أخلاق الملك أنْ لا يشاركه بطانته وندماؤه في مَسِّ طِيبٍ ولا تَجَمُّرٍ. فإنَّ هذا وما أشبهه يرتفع الملك فيه عن مساواة أحد.

وكذا يجب على بطانة الملك وقرابته[1] أنْ لا يَمَسُّوا طيبًا إذا تطيَّبَ، لينفردَ المَلِكُ بذلك دونهم.

وليس الطِّيب كالطعام والشراب اللذين لا بدّ من مشاركة الندماء فيهما.

فأما كلُّ ما أمكن الملكَ أن ينفرد به دون خاصّته وحامّته[2]، فمن أخلاقه أن لا يُشارك أحدا فيه.

وكذا حُكِيَ عن أنوشروان ومعاوية بن أبي سُفيان. وبعض أهل العلم يحكى عن الرشيد ما يقرب من هذا.

وأَوْلَى الأمور بأخلاق الملك ـ إنْ أمكنه التفرد بالماء والهواء ـ أنْ لا يُشْرِكَ فيهما أحدًا. وإن البهاء والعز والأُبَّهة في التفرّد.

---

(١) نهى صاحب القاموس عن استعمال "القرابة" بمعنى الأقارب، ونسبه الجوهريُّ إلى العامّة، ووافقهما الأكثرون ومنهم الحريريّ في "درّة الغوّاص". ومن رأيهم أن الواجب أن يقال "ذوو القرابة". ولكن هذا اللفظ ورد بهذا المعنى في الحديث الشريف، وعليه جرى الجاحظ في جميع هذا الكتاب. (وانظر التفصيل في تاج العروس في مادة ق ر ب)

(٢) الحامّة هي العامة، وأيضا أخصّاء الرجل من أهله وولده وذوى قرابته.

سنة ملوك الفرس فى ذلك

ألا ترى أنّ الأمم الماضية من الملوك، لم يكن شئ أحبّ إليهم من أنْ يَفعلوا[1] شيأ تعجز عنه الرعيّة، أو يتزيّوا بِزِىٍّ يَنْهَوْن الرعيّة عن مثله.

فمن ذلك أردشير بن بابك، وكان أنبل[2] ملوك بنى ساسان. كان إذا وَضَعَ التاجَ علىٰ رأسه، لم يضع أحدٌ فى المملكة علىٰ رأسه قضيبَ رَيحانٍ متشبّهًا به. (٣٧)

وكان إذا ركب فى لِبْسَةٍ[3]، لم يُرَ علىٰ أحدٍ مثلُها. وإذا تختّمَ بخاتمٍ، فحرامٌ علىٰ أهل المملكة أن يتختّموا بمثل ذلك الفَصّ، وإن بَعُد فى التشابه.

سنة سادات العرب والخلفاء فى ذلك

وهذه من فضائل الملوك. وطاعةُ أهلِ المملكة أنْ تَتَحامىٰ أكثر زِيِّ الملك وأكثرَ أحواله وشِيَمِه، حتّى لا يأتى، إلا بدٍّ لها منه.

وهذا أبو أحيحة سعيد بن العاص. كان إذا اعتمّ بمكة لم يعتمّ أحدٌ بعِمّةٍ مادامت علىٰ رأسه[4].

وهذا الحجّاج بن يوسف. كان إذا وضع علىٰ رأسه طويلةً[5]، لم يَجْترئ أحدٌ من خلق الله أن يدخل وعلىٰ رأسه مثلُها.

وهذا عبد الملك بن مَرْوَان. كان إذا لبِس الخُفَّ الأصفر، لم يلبَس أحدٌ من الخلق خُفا أصفر حتى ينزِعه.

(١) فى س، ص: يفعل.

(٢) ص: أمثل.

(٣) حالةٌ من حالات اللبس.

(٤) أوّل من روىٰ ذلك ابن الكلبىّ فى كتاب الأصنام الموجودة نسخته الوحيدة المدوّنة فى العالَم بخزانة كتبى. قال (فى ص ٢٠ من الأصل و ٢٠ من طبعتنا): "وكان سعيد بن العاص أبو أحيحة يعتمّ بمكة. فإذا اعتمّ لم يعتمّ أحدٌ بلون عمامته". وروى ذلك أيضا ابن دريد فى كتاب الاشتقاق (ص ٢٩) وقال إنه ذو العمامة وإن "أحيحة تصغير أحّة وهو ما يجده الانسان فى قلبه من حرارة غيظ وحزن. والأحّة والأحاح واحد وقد استقصينا هذا فى كتاب الجمهرة".

(٥) أى قلنسوة طويلة عالية. وكان هذا النوع من القلانس خاصّا بالأمراء، وبالقضاة أيضا (كما تدلّ على ذلك عبارة البيهق فى "المحاسن والمساوى" ص ٢١٣).

وهذا إبراهيم بن المهدىّ بالأمس[١] . دخل علىَّ [أحمد] آبن أبى دُؤاد[٢] [بن علىّ] وعليه مُبطَّنة مُلَوَّنة من أحسن ثوب فى الأرض، وقد آعتمّ على رأسه رُصافيّة[٣] بعمامةِ (٣٨) خزّ سوداء لها طرفان خلفه وأمامه، وعليه خُفّ أصفر، وفى يده عُكّازة آبنوس ملوّح بذهب، وفى إصبعه فصّ ياقوت تضىء يده منه. فنظر إلى هيئةٍ[٤] ملأتْ قلبه، وكان جسيمًا، فقال: "يا إبراهيم! لقد جئتنى فى لِبْسةٍ وهيئةٍ ماتصلُح إلا لواحدٍ من الخلق[٥] ." فآنصرف فلم يأتِه حتّى مات.

وحدّثنى أبو حسّان الزِّيادىّ[٦] (وذكَرَ الفضلَ بن سَهْلٍ فترحَّم عليه) وقال: وجَّهَ إلىّ فى ليلة — وقد أوَيتُ إلى فراشى — رسولاً فقال: يقول لك ذو الرياستين:

(١) أى من عهد قريب من المؤلف. [وآنظر ص ١٠٤ و ١٠٧ و ١٠٨ و ١٢٦ من هذا الكتاب]

(٢) من أكابر رجالات بنى العباس وخصوصا فى دولة المأمون والمعتصم والواثق.

(٣) هذه العبارة توضّح لنا ما لم يتيسر للعلامة دوزى Dozy الوقوف عليه أثناء تأليفه لمعجم الثياب عند العرب Dictionnaire des Vêtements chez les Arabes . فيؤخذ من كلام الجاحظ هنا وممّا يليه بأربعة عشر سطرا أن الرصافية هيئة عِمّة على قلنسوة خاصة بالخليفة أو ولىّ عهده. ويؤخذ من كلام آبن خلكان (فى ترجمة جعفر البرمكى) أن أكابر بنى هاشم كان لهم هـذا الحق أيضا. ذكر آبن خلكان أن عبد الملك بن صالح دخل مجلس جعفر هذا، وقال إنه كان على رأسه رصافية. وقد روى صاحب الأغانى هذه الحكاية بحروفها تقريبا (جزء ٥ ص ١١٨) وقال إن عبد الملك نزع قلنسيته. فذلك دليل على أن الرصافية نوع مخصوص من القلانس المعممة.

(٤) صـ : فنظر إليه بهيبة.

(٥) يعنى الخليفـة.

(٦) من أكابر فقهاء بغداد الذين آمتحنهم المأمون بخلق القرآن. وهو من أهل الفتوى والرواية. وقد ولّاه المتوكل قضاء مديرية الشرقيّة بمصر سنة ٢٤١ (أبو المحاسن فى "النجوم الزاهرة" ج ١ ص ٦٣٩ و ٧٣٥)

لاتعتمّ غدًا على قلنسوة إذا حضرتَ الدارَ (١) . قال : فَبِتُّ واجمًا ، وأنا لا أعلم مايريد بذلك . وغَدَوْتُ ، وغدا الناس على طبقاتهم ومراتبهم . فجاء الحسين (٢) بن أبي سعيد إلى مَن في الدار ، فقال : إن أمير المؤمنين يقعد في هذا اليوم ويعتمّ على قلنسُوة ، فأنزِعوا عمائمكم !

وحدّثني بعض أصحابنا عن الحسن بن قريش (٣) قال : لما مات القاسم بن الرشيد ، وجّه إليّ المأمونُ رسولا فأتيتُه . فجعل يسألني عن عياله وعن أمواله ، ويشكوه إليّ ، ويقول : كان يفعل كذا ويفعل كذا . فكان في تلك الشكاية أن قال : وكان إذا ركب بمَرْو (٤) ، ركب في رُصَافية (٥) .

+++

عدل الملك في مجلس الشراب

*ومن أخلاق الملك إذا علم أن بعض النُّدماء قد بلغ غاية مجهوده في الشرب وأن الزيادة بعد ذلك تضر ببدنه وجوارحه أن يأمر بالكفّ عنه ، وأنْ لا يُكَلَّف فوق وسعه . فإنه مَن تجاوز حقَّ العدل عن الخاصّة ، لم تطمع العامة في إنصافه . * (٦)

+++

(٣٩) مكالمة الندماء الملوك

ومن حقّ الملك أنْ لايكلّمه أحدٌ من الندماء مبتدئاً ولا سائلاً لحاجة ، حتّى يكون

---

(١) يعني قصر الخلافة . والحكاية تدل على أن الواقعة حصلت بمرو ، لأن الفضل بن سهل قُتل في بلده (سرخس) عند عودة المأمون إلى بغداد .

(٢) صـ : الحسن .

(٣) صـ : مرس . وانظر الطبري (سلسلة ٣ ص ٢ ٥ ٦) فقد ورد فيه اسم هذا الرجل . وكان من خاصّة المأمون ، وقد حدّثه الخليفة عن أخيه القاسم هذا . (المحاسن والمساوى ص ١٨٧)

(٤) متى أطلق الكُتّاب هذا الاسم ، فإنما يريدون به مرو الشاهجان ، لا مرو الرُّوذ . والأولى هي أكبر مدائن خُراسان ، وكان المأمون عاملا عليها لأبيه .

(٥) تأفّف المأمون لأن أخاه كان يتعمّد التشبه به ؛ ولم يراع الواجب في تركه يتفرد بالرصافية في عاصمة ملكه ؛ ولو أن للقاسم حقا في لبسها لأنه هو أيضا ابن الخليفة .

(٦) هذه الجملة المحصورة بين النجمتين * * منقولة عن صـ .

هو المبتدئ بذلك.(١) فإنْ جهل أحدٌ ما يلزمه فى ذلك، تقدّم إليه فيما يجب عليه. فإنْ عاد، فعلى الموكَّل بأمر الدار أن يُحسن أدبه وأنْ لايأذَنَ له فى الدخول، حتّى يكون الملك يبتدئ ذكره. ثم يوعز إليه أنه إن عاد، أُسقِطتْ مرتبته فلم يطأْ بساطَ الملك.

وكان شيرَوَيْهِ بن أبرويز يقول: "إنما تُعْذَرُ البِطانة برفع حوائجها إلى الملوك عند ضِيقةٍ تكون، أو عند جفوة(٢) تنالهم من ملوكهم، أو عند موت يحدث لهم، أو عند تتابع أَزْمَةٍ. فإذا كان ذلك، فعلى الملك تعهُّدُ ذلك من خاصّته حتّى يُصلِحَ لهم أمورَهم ويَسُدَّ خَلّتهم. فإذا كانوا من الكفاية فى أقصى حدودها، ومن خفض العيش فى أرفع خصائصه، ومن ذات اليد وإدرار العطايا فى أتم صفاتها، ثم فتح أحدٌ فاهُ بطلبِ ما فوق هذه الدرجة، فالذى حداه على ذلك الشَّرَهُ والمنافسة. ومَن ظهرت هاتان منه كان جديرا أن تُنْزَعَ كفايته من يده وتُصَيَّرَ فى يد غيره، ويُنقَل إلى الطبقة الخسيسة، فيُلْزَم أذناب البقر وحراثة الأرض."

٭٭٭

(٤٠) مَنّ الملوك بنعمهم عند الضرورة فقط

ومن أخلاق الملك أنْ لا يَمُنَّ باحسان سَبَقَ منه، ما آستقامتْ له طاعةُ مَن أنعمَ عليه ودامت له ولايته، إلا أنْ يخرُجَ من طاعةٍ إلى معصيةٍ. فإذا فعل ذلك، فمن

(١) دخل الإمام الشافعىُّ على الرشيد وسلَّم فردّ الخليفة عليه السلام ثم قال: "من العجب أن تتكلم فى مجلسى بغير أمرى!" (أُنظر شرح القصة فى ص ٤٢ من كتاب "مناقب الشافعى" لفخر الدين الرازى، طبع حجر بمصر سنة ١٢٧٩). وأول خليفة منع الناس من الكلام عند الخلفاء وتقدم فيه وتوعد عليه عبد الملك بن مروان "البيان والتبيين ج٢ ص١٢" وعلى هذا النظام جرى خلفاء الإسلام، حتى جاء القاضى أحمد بن أبى دُؤاد المتوفى سنة ٢٤٠ هـ، فكان أوّل من بدأهم بالكلام، وكانوا لايُكَلَّمون حتى يتكلموا. (أُنظر آبن خلكان فى ترجمته، وآنظر "شذرات الذهب" ج ١ ص ٥١٦)

(٢) س: عقوبة.

أخلاقه أن يَمُنّ عليــه أوّلاً بإحسانه إليه، ويُذَكّره بلاءه عنده وقلّة شــكره ووفائه، ثم يكون من وراء [ذلك] عقوبته بقدر مايستحقّ ذلك الذنب فى غِلَظه ولِينِه.

وحدّثنى محمد بن الجَهْم(١) وداود بن أبى داود قالا: جلس الحسن بن سهل فى مُصَلّى الجماعة لنُعيم بن خازم(٢)، فأقبل نُعيم حافياً حاسراً وهو يقول: "ذنبى أعظم من السماء! ذنبى أعظم من الهواء! ذنبى أعظم من الماء!" قالا: فقال له الحسن بن سهل: "على رِسْلك! تقدّمتْ منك طاعةٌ، وكان آخرأمرك إلى توبة. وليس للذنب بينهما مكانٌ. وليس ذنبك فى الذنوب بأعظم من عفوِ أمير المؤمنين فى العفو."(٣)

***

عدم المعاقبة فى حال الغضب

ومن أخلاق الملك السـعيد أنْ لا يُعاقب وهو غضبانُ. لأنّ هذه حالٌ لا يَسْـلَمُ معها من التعدّى والتجاوز لحدّ العقوبة. فإذا سَكَنَ غضـبُه ورجع إلى طبعه، أَمَرَ بعقوبتـه على الحدّ الذى سنّته الشريعة ونقلتـه الملة(٤). فإنْ لم يكن فى الشريعة ذِكْرُ عقوبةِ ذنبه، فمن العـدل أنْ يجعل عقوبة ذلك الذنب واسطةً بين غليظ الذنوب ولَيِّنها، وأن يجعل الحكم عليه فيه، ونفسُه طيّبةٌ وذِكْرُ القِصاص منه على بالٍ.

فأما العقوبة فلا تجوز إذا رُفِـعَ أمرُها إلى الملك(٥).

---

(١) كثيرا مايروى الجاحظ عن هذا الإنسان فى كتاب "الحيوان" وفى كتاب "البيان والتبيين".

(٢) كان فى معية المأمون حينما أرسله إلى مرو أبوه هارون قبل وفاته بثلاث وعشرين ليلة. وصار من قواده ورجال دولته حينما أفضت إليه الخلافة. (طبرى سلسلة ٣ ص ٧٣٤ و ٨٤١ و ١٠٢٢)

(٣) هذه الجملة المحصورة بين النجمتين* *منقولة عن صـ. (وهى واردة فى "البيان والتبيين" ج١ ص٤٥)

(٤) سـ: الأئمة.

(٥) سـ: "فأما العفو فلا يجوز إذا رفع أمره إلى الملك". ولهذه الرواية أيضا وجه وجيه. والضمير راجع إلى الذنب. والمعنى أن الملك لا يجوز له تعطيل الشريعة بالعفو عن الجانى.

وليس الذنب بحضرة الملك كالذنب بحضرة السُّوقة، ولا الذنب بحضرة الحاكم[1] كالذنب بحضرة الجاهل. لأن الملك هو بين الله و بين عباده. فإذا وجب بحضرته الذنب، فمن حقه العقوبة عليه ليزدجر الرعايا عن العياثة والتتايُع[2] فى الفساد.

✤

ومن حقّ الملك ـ إذا همّ بالحركة للقيام ـ أن تسبقه بِطانته وخاصته بذلك. فإن أومأ إليهم أنْ لا يبرحوا، لا يقعُدْ واحدٌ منهم حتّى يتوارىٰ عن أعينهم.

فإذا خرج، فمن حقه أن تقع عينه عليهم وهم قِيَام.

فإذا قعد، كانوا علىٰ حالهم تلكَ.

فإن نظر إليهم ليقعدوا، لم يقعدوا جملةً. بل تقعد الطبقة الأُولىٰ أوّلا. فإذا قعدت عن آخرها، تبعتها الطبقة الثانية. فإذا قعدت عن آخرها، تبعتها الطبقة الثالثة.

وأيضًا فإن لكل طبقة رأسا وذَنَبًا. فمن الواجب أن يقعد من كلِّ طبقةٍ رأسُها ثم هَلُمَّ جَرًّا علىٰ مراتب الطبقة أوّلا أوّلا.

✤

ومن حقِّ الملك أنْ لا يدنُوَ منه أحدٌ ـ صَغُر أو كبر ـ حتّى يَمَسَّ ثوبُه ثوبَه إلّا وهو معروفُ الأبوين، فى مُرَكَّبٍ[3] حسيبٍ، غيرُ خامل الذكر ولا مجهولٍ.

---

(١) هكذا فى س، ص. ولعل الصواب: "الحكيم" أو "الحليم"

(٢) التتايع بالمثناة التحتية: التهافت، الإسراع فى الشرّ (قاموس).

(٣) المُرَكَّب كمعظم الأصل والمنبت (قاموس).

فإن احتاج الملك إلى مشافهة خامل أو وضيع واستنطقه إليها، إمّا لنصيحة يُسِرُّها إليه أو لأمر يسأله عنه، فمن حقّ الملك أن لا يُخَلِّيَ أحدًا يدنو منه حتّى يُفَتَّش أوّلا، ثم يأخذ بضَبْعَيْه اثنان، أحدهما من يمينه والآخر عن شماله. فإذا أبدى ما عنده وقبل منه الملك ما جاء به، فمن حقّه على الملك الإحسانُ إليه والعائدةُ عليه والنظرُ في حاجته — إن كانت له — ليرغب ذوو النصائح في رفعها إلى ملوكهم والتقرّب بها إليهم. (٤٣)

***

الاستماع لحديث الملك

ومن حق الملك، إذا حدّث بحديث أن يصرف مَن حضره فكره وذهنه نحوه. فإن كان يعرفُ الحديثَ الذى يُحَدِّث به الملك، استمعه استماعَ مَن لم يَدْرِ في حاسّة سمعه قطّ ولم يعرفْه، وأظهرَ السرورَ بفائدة المَلِك والاستبشارَ بحديثه. فإنّ فى ذلك أمرين: أحدهما مايظهر من حسن أدبه، والآخر أنه يُعطى الملك حقّه بحسن الاستماع. وإن كان لم يعرفه، فالنفس[1] إلى فوائد الملوك والحديث عنهم أقرم[2] وأشهى منها إلى فوائد السُّوقة ومن أشبههم.

وإنما مدار الأمر والغاية التى إليها يُجرى، الفهمُ والإفهامُ والطلبُ ثم التثبُّتُ. قال عمرو بن العاص: "ثلاثة لا أملّهن: جليسى ما فهم عنّى، وثوبى ما سترنى، ودابّتى

(١) فى س: "الاستماع وان كان لم يعرفه فللنفس". وقد أكملت موضع البياض وصححت العبارة، بناء على ما فى ص وعلى ما أورده المسعودى. فانه نقل هذه الحكاية برمّتها مع تغيير قليل، وزيادة ونقصان، واضطراب فى التقسيم، وقال إنها مما قاله حكماء اليونان. لعله نقلها هو والجاحظ عن كتاب آخر. (أنظر مروج الذهب ج ٦ ص ١٢٨)

(٢) أى أشدّ قرما. [حاشية فى ص]. ورواية س: "أقرب". [وهى بعيدة عن الصواب].

ماحملتْ رَحْلِى.(١)" وذكر الشّعبىُّ ناسًا، فقال: "مارأيتُ مثلهم أشدَّ تناقدًا فى مجلس ولا أحسنَ فهمًا عن محدِّث."

وقال سعيد بن سَلْم [الباهلىّ] لأمير المؤمنين المأمون: "لو لم أشكرِ الله إلّا على حُسن ما أبلانى أميرُ المؤمنين من قصده إلىّ بالحديث وإشارته إلىّ بطَرْفه، لقد كان ذلك من أعظم ماتفرضه الشريعة وتوجبه الحرّيّة." قال المأمون: "لأن أمير المؤمنين والله يجد عندك من حُسن الإفهام إذا تحدّثتَ، وحسن الفهم إذا حُدِّثتَ ما لم يجده عند أحدٍ فيما مضى، ولا يظنّ أنه يجده فيما بَقِى.(٢)"

(ما حصل لرجل كان أنوشروان يسايره)

٤٣

وفيما يُحكَى عن أنوشروان أنه بَيْنَا هو فى مسيرٍ له (وكان لا يسايره أحدٌ من الخلق مبتدئا وأهلُ المراتب العالية خَلْفَ ظهره على مراتبهم، فإن ٱلتفت يمينا، دنا منه صاحب الحَرَس، وإن ٱلتفت شمالا، دنا منه المُوبَذ، فأمره بإحضار مَن أراد مسايرته)، قال: فٱلتفتَ فى مسيره هذا [يمينا]، فدنا منه صاحب الحرس، فقال: فلانٌ. فأحضره. فقال: حدِّثنى عن أردشير بن بابك حين واقع ملك الخَزَر(٣)، وكان الرجُل قد سمع من أنوشروان هذا الحديث مرّةً. فٱستعجم عليه وأوهمه أنه لايعرفه. فحدّثه أنوشروانُ بالحديث. فأصغى الرجُل إليه بجوارحه كلها، وكان مسيرهما على شاطئ نهرٍ. وترك الرجُلُ ـ لإقباله على حديثه ـ النظرَ إلى مواطئ حافر دابّته. فزلّت إحدى قوائم الدابّة، فمالت بالرجُل إلى النهر فوقع فى الماء ونَفَرت دابّته. فٱبتدرها حاشيةُ الملك وغلمانُه، فأزالوها عن الرجُل، وجذبوه فحملوه على أيديهم حتى أخرجوه. فٱغتمّ لذلك أنوشروان ونزل عن دابّته، وبُسِط له هناك. فأقام حتى

(١) أُنظر رواية أخرى لهذه الكلمة فى "كامل" المبرّد. (ص ١٥٠)
(٢) هاتان الفقرتان المحصورتان بين نجمتين * * منقولتان عن ص. ٢
(٣) هو بفتح الخاء والزاى إسم جيل (قاموس). والمتعارف الآن عند الفرنج ضم الخاء. وأما ياقوت.

تغدّى فى موضعه ذلك. ودعا بثيابٍ من خاصّ كُسوته، فأُلقِيَتْ علىٰ الرجُل، وأكل معه. وقال له: كيف أغفلتَ النظرَ إلىٰ موطئ حافر دابّتك؟ قال: "أيها الملك! إنّ الله إذا أنعم على عبدٍ بنعمةٍ، قابلها بمحنةٍ وعارضها ببليّـةٍ. وعلىٰ قدر النعم تكون المِحَنُ. وإنّ الله أنعم علىّ بنعمتين عظيمتين، همـا[1]: إقبال الملك علىّ بوجهه من بين هـذا السواد الأعظم؛ وهـذه[2] الفائدةُ وتدبيرُ هـذه الحرب التى حدّثت فيها عن أردشـير حتّى لو رحلتُ إلىٰ حيث تطلُع الشمس أوتغرب، كنتُ فيه رابحًا. فلما آجتمعت نعمتان جليلتان فى وقتٍ [واحدٍ][3]، قابلتهما هذه المحنةُ. ولولا أساورة الملك وخَدَمُه [وحسن جِدّه][3]، كنتُ بمعرض هَلَكةٍ. وعلىٰ ذلك، فلو غرِقتُ حتّى أذهب عن جَديد الأرض، كان قد أبقىٰ لى الملكُ ذكرا مُتلِدًا مُخلّدًا، ما بَقِىَ الضياءُ والظلام.

(٤٤)

فسُرَّ الملكُ وقال: ماظننتُك بهذا المقدار الذى أنت فيه!

فحشا فَمَهُ جوهرا ودُرّا رائعا ثمينا، وآستبطنه حتّى غلب علىٰ أكثر أمره.[4]

(ماوقع لابن شجرة الرهـاوىّ حينا حادثه معاوية)

وهكذا يُحكَىٰ عن [أبى شجرة] يزيد بن شَجَـرَة الرُّهاوىّ[5]، أنه بينَا هو يساير معاوية

---

(١) فى س، ص: "منها" تحريفا عن "منهما". وقد صححتُ بمعونة المسعودىّ.

(٢) فى س، ص: "ومنها هذه" تحريفا عن "منهما". وقد صححتُ بمعونة المسعودىّ.

(٣) الزيادة عن المسعودىّ.

(٤) نقل المسعودىّ هذه الحكاية بتمامها وبحرفها، إلا فى كلمات قليلة. وقال إنه وجدها فى كتب سِيَر الملوك من الأعاجم. ونسبها إلى شيرويه بن أبرويز، وقال إن الرجل هو بُندار بن خُرشيد (جزء ٦ ص ١٢٤ — ١٢٦). ونقلها أيضا صاحب كتاب "تنبيه الملوك والمكايد" (ص ٢٧ — ٢٩). وآختصرها صاحب "محاسن الملوك" (ص ٨١ — ٨٢). ونقلها بالحرف الواحد فى "المحاسن والمساوى" ص ٤٩٤ — ٤٩٥.

(٥) من أركان دولة معاوية. أرسله إلى مكة سنة ٣٩ ليقيم للناس الحج وليأخذ له البيعة ويطرد عامل علىّ عنها. ثم أرسله بعد ذلك لغزو الروم فى البحر مرة أو مرتين (سنة ٤٩ وسنة ٥٦). وهو منسوب إلى قبيلة من العـرب (أنظر تاج العروس فى مادّة ره و). وأما النسـبة إلى المدينة المشهورة بآسـيا الصغرىٰ فهى الرُّهاوىّ بضم الراء.

آبن أبي سفيان، ومعاوية يحدّثه عن يوم خزاعة وبني مخزوم وقريش(١). وكان هذا قبل الهجرة. وكان يومًا أشرف فيه الفريقان على المَلْكَة حتّى جاءهم أبو سـفيان فآرتفع ببعيره على رابية ثم أَوْمأ(٢) بكُمِّه(٣) إلى الفريقين، فآنصرفوا.

قال: فبينا معاوية يحدّث يزيد بن شجرة بهذا الحديث، إذ صكّ وجهَ يزيدَ حَجَرٌ عائرٌ(٤) فأدماه، وجعلت الدماءُ تسيل من وجهه على ثوبه، [وهو] ما يمسح وجهه. ٤٥

فقال له معاوية: لله أنت! ما ترى ما نزل بك؟ قال: وماذاك، ياأمير المؤمنين؟ قال: هذا دم وجهك يسيل على ثوبك! قال: أُعتِقُ ما أَمْلِكُ(٥)، إنْ لم يكن حديث

---

(١) في المسعوديّ: "يحدّثه عن جرعان يوم كان لبني مخزوم وغيرهم من قريش". وفي بعض نسخه: "بجزعان". [والصواب خزاعة كما هو وارد في سـ، صـ].

(٢) سـ: "بكمه" صـ: "بكفه". [والتصحيح عن "محاسن الملوك"].

(٣) هـذه القصة لم نجدها لغير الجاحظ والذين نقلوا عنه مثل المسعوديّ وصاحب "تنبيه الملوك" وصاحب "محاسن الملوك". ولعلّ الواقعة التي يشير إليها هي المذكورة في آخر ديوان حسان بن ثابت الصحابيّ، وفي السـيرة الحلبيـة (ج ١ ص ١٤٣ طبع المرحوم الزبير رحمت باشا العباسيّ في بولاق سنة ١٢٩٥ هـ، وج ١ ص ٢٧٣ طبع العلّامة وستنفلد في مدينة ليبسك سنة ١٨٥٨ م)

(٤) في سـ غاير. وفي صـ عاير. [وهذه الكلمة كثيرا ما يصحفها النساخون والطابعون. فتارة يضعون "غاير" وأخرى "غار" وأخرى "عابر". والصواب "عائر" بالعين المهملة والياء التحتية المثناة المهموزة. قال صاحب تاج العروس في مادة (ع و ر): والعائر من السهام مالايدرى راميه وكذا من الحجارة . . . والجمع العوائر].

(٥) في المسعوديّ: أعتقُ ما أملكُ. ولكن سـ آنفرد بجعل الضمير للغائب على سبيل الحكاية لئلا تقع اليمين على المتكلم أو القارئ. فوردت فيه العبارة هكذا: "عتق ما يملك". وعلى ذلك جرى كثير من الكتّاب. وذلك من باب التشدد في التأثم والتحرج. وإذا كان ناقل الكفر ليس بكافر، فكيف يقع في اليمين من يروى مجرد كلام لغيره؟ ولعلهم أرادوا عدم جريان اللسان بمثل هذه الأَيْمان

أمير المؤمنين ألهانى حتّى غمر فكرى وغطّى علىٰ قلبى، فما شعرتُ بشئ حتّى نبّهنى أمير المؤمنين. فقال له معاوية: لقد ظلمك مَن جعلك فى ألف من العطاء، وأخرجك من عطاء أبناء المهاجرين، وكَمَاةِ[1] أهل صِفّين! فأمر له بخمسمائة ألف درهم، وزاده فى عطائه ألف درهم، وجعله بينْ جلده وثوبه[2].

فلئن كان يزيد بن شجرة خدع معاويةَ فى هذه، فمعاويةُ ممن لايُخادَع ولا يُجارىٰ[3]. ولئن كان بلغ من بلادة يزيد بن شجرة وقلة حِسِّه ماوصف به نفسه، ما كان بجدير بخمسمائة ألف وزيادة ألف فى عطائه. وما أظنّ ذلك خَفِيَ عن معاوية، ولكنه تغافل علىٰ معرفةٍ، لمّا وفّاه حَقّ رياسته[4].

[ويروى عن معاوية أنه كان يقول: "السَّرْوُ التغافُلُ"[5]]

---

(١) صـ : حماة.

(٢) روى هذه القصة فى "تنبيه الملوك" بألفاظ الجاحظ (ص ٢٩)، ورواها صاحب "محاسن الملوك" باختصار (ص ٢٠). وأوردها صاحب "المحاسن والمساوى" بالحرف الواحد (ص ٤٩٥ — ٤٩٦).

(٣) صـ : يجارى.

(٤) نقل المسعودى هذه الحكاية أيضا عن الجاحظ، ولم يسمّه كما جرت عادته. ولكنه حينما اضطُرّ لنقل فكره وتقديره عند قوله "فلئن كان يزيد بن شجرة . . . ." ، لم يجد بُدًّا من الإشارة اليه بطريق الوصف والتعميم، فقال : " قال بعض أهل المعرفة والأدب ممن صنف الكتب فى هذا المعنى وغيره" ثمّ نقل العبارة الثانية برمتها أيضا، مع تغيير قليل فى الألفاظ أو فى مواضعها. (مروج الذهب جزء ٦ ص ١٢٨ — ١٣٠)

(٥) هذه الجملة من زيادات صـ . [ومعنى السَّرْوِ السخاءُ فى مروءة . فيكون المراد من هذه المقولة أن التظاهر بالغفلة هو من دلائل السخاء الممزوج بالمروءة . وسترد هذه المقولة أيضا صفحة ١٠٣ من هذا الكتاب].

(ماوقع لابى بكر الهذلى حينا حادثه السفاح)

(٤٦)

وكذلك حُكِيَ عن أبى بكر الهُذَلِيّ[١] أنه بينَا هو يسامر أبا العباس إذ تحدّث أبوالعباس بحديث من أحاديث الفُرس. فعصفتِ الريح، فأذرتْ طَسًّا[٢] من سطح إلىٰ مجلس أبى العباس، فآرتاع ومَن حضره. ولم يتحرّك أبو بكر لذلك، ولم تزل عينه متطلعةً لعين أبى العباس. فقال له: ماأعجبَ شأنَك، ياهُذَلِيُّ! لم تُرَعْ مما راعنا! قال: يا أمير المؤمنين، إنّ الله عزّ وجلّ يقول: "مَا جَعَلَ ٱللّٰهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ". وإنما للمرء قلبٌ واحدٌ. فلما غمره السرور بفائدة[٣] أمير المؤمنين، لم يكن فيه لحادثٍ مجالٌ. وإنّ الله، إذا آنفرد بكرامة أحدٍ وأحبّ أن يبقىٰ له ذكرُها، جعل تلك الكرامة علىٰ لسان نبيّه أو خليفته. وهذه كرامةٌ خُصِصْتُ بها، مال إليها ذهني وشُغِلَ بها فكرى. فلو آنقلبت الخضراء علىٰ الغبراء[٤]، ماحَسَستُ بها ولا وَجَمْتُ[٥] لها إلّا بما يلزمنى فى نفسى

(١) إسمه سليمان بن عبد الله (الأعلاق النفيسة لآبن رُسته ص ٢١٣). وهو من مشاهير أهل البصرة وكان من أخص جلساء أبى العباس السفاح، وله بحضرته مناظرة بديعة فى تفضيل البصرة على الكوفة وأهلها وكان مناظره آبنَ عياش المتوف (الآتى ذكره فى متن الكتاب وحاشيته فى الصفحة التالية) أوردها آبن الفقيه فى كتاب البُلدان (ص ١٦٧ — ١٧٣ وتكلمتها فى ص ١٩٠). وهو من الضعفاء فى الحديث، ومات سنة ٦٧ (شذرات الذهب ج ١ ص ٢٩٣).

(٢) أى أوقعت الريح طستا. وفى صـ: "فأوردت طستا"، وقد رواها صاحب "مطالع البدور" (ج ١ ص ١٩٢). والذى فى المسعودىّ: "فأذرتْ ترابا وقطعا من الآجُرّ من أعلى السطح إلى المجلس". وآنظر "شذرات الذهب" (ج ١ ص ٢١٧). وقد روى الراغب الاصفهانى فى "محاضراته" (ج ١ ص ١١٧) واقعة أخرى شبيهة بهذه من كل الوجوه، فقال: كان أبوالقاسم الكعبي المتكلم فى مجلس أمير خراسان فسقط من السطح طستٌ فتزلزلت منه عَرْصة الدار. فلم يلتفت أبو القاسم عن الأمير. فقال الأمير لا يصلح لوزارتى إلا هو.

(٣) فى المسعودى: "بمحادثة".

(٤) صـ: البيضاء.

(٥) صـ: توجهت.

لأمير المؤمنين. فقال أبو العباس: لئن بقيتُ لك لأرفعنّ منك ضَبُعاً[1] لا تطيف به السباع ولا تحطّ عليه العِقْبان.[2]

(كلمة ابن عياش المتوف)

وكان [عبد الله] بن عيّاش المنتوف[3] يقول: لم يتقرّب العامّة إلى الملوك بمثل الطاعة، ولا العبيد بمثل الخدمة، ولا البِطانة بمثل حُسن الاستماع.[4]

---

(١) الضَّبُع (بضم الباء) العضد. والجملة هنا كناية، بمعنى لأنوّهنّ بآسمك. (أُنظر القاموس وأساس البلاغة). وفى المسعودىّ: "صعبا". [وهو تحريف ظاهر].

(٢) أورد المسعودىّ هذه القصة بتبديل فى الألفاظ وزيادة ونقصان (مروج الذهب ج ٦ ص ١٢٢ — ١٢٣). وأوردها صاحب "محاسن الملوك" بآختصار (ص ٢٠). ونقلها بتحريف يسير صاحب "المحاسن والمساوى" (ص ٤٩٦).

(٣) هو من رجالات المنصور العبّاسىّ، وكان من النّسّابين. ويعرف بالمنتوف لأنه كان ينتف لحيته. (ابن قتيبة فى كتاب "المعارف" ص ٦٨). ذكره ابن الأثير فى حوادث سنتى ١٤٧ و ١٥٨. ركب المنصور معه يوما، فقال له: تعرف ثلاثة خلفاء أسماؤهم على العين، قتلت ثلاثةً خوارجَ مبدأُ أسمائهم على العين؟ قال: لا أعرف إلا مايقول العامّة إن عليّاً قتل عثمان (وكذبوا)، وعبد الملك قتل عبد الرحمن بن الأشعث، وعبد الله بن علىّ سقط عليه البيت. [وكان المنصور، وآسمه عبد الله بن محمد، سجن عبد الله بن علىّ هذا فى بيت أساسه ملح، وأجرى الماء فى أساسه فسقط عليه فمات.] فقال المنصور: إذا سقط عليه، فما ذنبى أنا؟ قال: ما قلتُ إنّ لك ذنبا. وقد روى المسعودىّ هذه المحادثة بتفصيل أوفى (ج ٦ ص ٢١٧ — ٢١٨)، وساقها الراغب الإصفهانى فى محاضراته بألطف سياق (ج ٢ ص ٢٠٥).

وفى صبح الأعشى (ج ١ ص ٢٦٥): ملكان إسلاميّان أوّل آسم كلّ واحد منهما عينٌ، قتَل كلُّ واحد منهما ثلاثة ملوك أوّل آسم كل واحد منهم عينٌ. أحدهما عبد الملك بن مروان، قتل عمرو بن سعيد، وعبد الله ابن الزُّبير، وعبد الرحمن بن محمد الأشعث. والثانى أبو جعفر المنصور (وآسمه عبد الله) قتل أبا مسلم الخراسانىّ (وآسمه عبد الرحمن)، وعمّه عبد الرحمن بن علىّ، وعبد الجبار بن عبد الرحمن والى خُراسان. [وآنظر ص ١١٤ من هذا الكتاب].

(٤) نقلها المسعودىّ (ج ٦ ص ١٢٣ — ١٢٤).

(كلمة روح بن زنباع) (٤٧)

وكان [أبو زُرْعة] رَوْح بن زِنْبَاع[(١)] [بن رَوح بن سلامة الجُذَامىّ] يقول: إن أردتَ أن يُمكّنك المَلك من أُذنه، فأَمْكِنْ أُذنَك من الإصغاء إليه إذا حدّث[(٢)].

(كلمة أسماء بن خارجة الفزارى)

وكان أسمـاء بن خارجة [الفَزَارىُّ[(٣)]] يقول: ما غلبنى أحدٌ قطُّ غلبةَ رجُلٍ يصغى إلىٰ حديثى[(٢)].

(كلمة معاوية)

وكان معاوية يقول: يُغْلَبُ المَلكُ حتّى يُركَب بشيئيـن: بالحلم عنـد سَوْرته، والإصغاء إلىٰ حديثه[(٢)].

---

(١) قال فى "تاج العروس" إن كل من سمى "رَوْح" من المحدّثين فهو بالفتح، إلا رُوح بن القاسم، فانه بالضم. وروح بن زنباع الجُذَامىّ من رجالات بنى أُمية. كان فى سنة ٦٤ واليا على فلسطين للخليفة مروان بن الحَكَم، فوثب عليه بابل بن قيس الجُذَامى فأخرجه، وبايع لأبن الزبير حين قيامه بالخلافة فى الحجاز. ثم عاد رَوْح واليا عليها، بعد أن أَلْقىٰ خطابة جذب بها النـاس لبيعة مرْوان بن الحَكَم دون عبـدالله بن عمـر بن الخطاب ودون عبدالله بن الزبير. (أنظرها فى ابن الاثير فى حوادث سنة ٦٤). ولذلك صار من أجلّ الناس عنده وعند ابنه عبد الملك بن مرْوان. وكان جليســه وأنيسه ونديمه وسميره ومشــيره حتى قال الخليفة فيه إنه جمع ثلاث خصال لم تجتمع فى غيره: فقه الحجاز، فى دهاء أهل العراق، فى طاعة أهل الشأم. (العقد الفريد ج ١ ص ٩ و ٢٠٧ وأسد الغابة). وقد وقعت له مع هــذا الخليفة ومع زوجته الأعرابيــة حكاية طريفة أوردها فى "المحاسن والمساوى" (ص ٤١٩). [وأنظر صفحة ١١٣ و ١١٧ و ١٣٠ من هذا الكتاب].

ثم صار مشــيرًا للوليد بن عبد الملك. ومع ما كان عليه من الفضــل والدهاء والذكاء، فقد وقعت له حكاية ظريفة مضحكة أثناء وجوده بالكوفة مع بِشْر أخى عبدالملك بن مروان واليا. أوردها فى "مروج الذهب" (ج ٥ ص ٢٥٤ ــ ٢٥٨ ــ وفى المستطرف ج ٢ ص ١١٢)

(٢) نقلها المسعودىّ (ج ٦ ص ١٢٣ ــ ١٢٤).

(٣) أسماء بن خارجة هو ابن حصن بن حُذيفة بن بدر. كان سيد بنى فزارة، وكان من أسخياء الكوفة. مات سنة ٩٦. وله ترجمة فى "فوات الوفيات" (ج ١ ص ١٤). ولم يل أسمـاء بن خارجة شيأ للسلطان (العقد الفريد ج ١ ص ٢١).

✤

آداب أهل الزلفى بعد المضاحكة

ومن أخلاق الملك، إذا قرّب إنسانا أو أنِسَ به حتّى يهازله ويضاحكه ثم دخل عليه بعدُ، أنْ يدخل دخولَ مَن لم يجرِ بينهما أُنْسٌ قطّ، وأن يُظهر من الإجلال له والتعظيم والاستخذاء (١) أكثر مما كان عليه قبلُ. فإنّ أخلاق الملوك ليست على نظامٍ.

✤

تنكر أخلاق الملوك

ومن أخلاقهم أن لا تكون أخلاقهم معروفة فيُتَمَثَّلُ عليها ويُعامَلون بها.

ألا ترى أنّ الملك قد يغضب على الرجُل من حُمَاته، والرجُل من حامّته وبطانته: إما لجنايةٍ في صُلب مالٍ، أو لخيانةٍ حُرمةِ المَلك، فيؤخّر عقوبته دهرا طويلا، ثم لا يُظهِر له ما يُوحِشُه حتى يتّقيَ ذلك في اللحظة والكلمة والإشارة وما أشبه ذلك.

وليست هذه أخلاق سائر الناس، إذ كنّا نعلم أن طبائعَ الناس الانتصارُ في أول أوقات الجنايات وعند أول بوادر الغضب.

(٤٨)

صبر الملوك على مضض الحقد حتى تحين الفرصة

فأما الملوك وأبناؤهم، فليست تُقاس أخلاقهم ولا يُعايَرُ (٢) عليها. إذ كان أحدهم يضع أعدى خَلق الله له بين أُذُنه وعاتقه، وبين سَحْرِه ونَحْرِه (٣). فتطول بذلك المدّة وتمرّ به الأزمنة. وهو (٤) لو قتله في أول حادثة تكون وعند أول عثرة يَعْثُرُ لم يكن

(١) الخضوع والانقياد. وفي "الأغاني": أنت تخضع لهذا، هذا الخضوع وتستخذي له؟ (ج ٧ ص ١٨٣)

(٢) صـ: تعامل.

(٣) السَّحْر (بالفتح) هو الرئة. والمراد به هنا ما يحاذيه، وهو الصدر. قالت عائشة (رضي الله عنها): "مات رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بين سحري ونحري." تعني بين صدرها ونحرها. والمقصود شدّة الاقتراب والالتزاق، كما تقول أيضا: بين سمعه وبصره. (عن تاج العروس)

(٤) صـ: وهو له. سـ: ويقولون.

بين هذه القِتلة وبين الأخرى بعدها بعشرين سنة فرقٌ، إذ كان لا يخاف ثأرا، ولا في المُلك وَهْنًا.

(معاقبة أنوشروان لمن خانه في حريمه)

وفيما يُذكر عن سيرة أنوشروان أنّ رجُلا من خاصّ خَدَمه جنى جناية ٱطّلع عليها أنوشروان، والرجُل غافلٌ عنه. وكانت عقوبة تلك الجناية توجب القتل في الشريعة. فلم يدرِ كيف يقتله: لا هو وَجَدَ أمرًا ظاهرًا يَقْتُلُ بمثله الحُكّامُ فيسفك به دَمَه، ولا قدر على كشف ذَنْبه لما في ذلك من الوَهْن على المَلِك والمملكة، ولا وجد لنفسه عذرا في قتله غِيلةً، إذ لم يكن ذلك في شرائع دينهم ووراثة سَلَفهم. فدعا به بعد جنايته بسنةٍ فٱستخلاه وقال: قد حزبني أمرٌ[1] من أسرار مَلِك الروم، وبي حاجة إلى أن أعلمها، وما أجدُني أسكُنُ إلى أحد سُكوني إليك، إذ حللتَ من قلبي المحلَّ الذي أنت به. وقد رأيتُ أن أدفع إليك مالًا لتحمِل إلى هناك تجارةً وتدخلَ بلاد الرُّوم فتقيم بها لتجارتك. فإذا بِعْتَ ما معك، حملتَ ممّا في بلادهم من تجاراتهم وأقبلتَ إليّ. وفي خِلال ذلك تُصْغِي إلى أخبارهم وتطَّلِع طِلْعَ[2] ما بنا حاجةٌ إليه من أُمورهم وأسرارهم. (٤٩)

فقال الرجُل: أفعَلُ أيها الملك، وأرجو أن أبلُغَ في ذلك محبة المَلِك ورضاه.

فأمر له بمالٍ، وتجهز الرجُل وخرج بتجارة. فأقام ببلاد الروم حتّى باع وٱشترى ولَقِنَ[3] من كلامهم ولغتهم ما عرف به مخاطبتهم وبعض أسرار مَلِكهم[4]. ثم ٱنصرف إلى

(١) حزَبَه الأمر اشتدّ عليه وأصابه منه غمّ.

(٢) أي: وتعلم سرّ أمرهم الذي نحن في حاجة إلى معرفته.

(٣) أي فهِم وحفظ بسرعة.

(٤) صـ: أسرارهم.

أنوشروان بذلك. فٱستبشر بقدومه وزاد فى برّه، وردّه إلى بلادهم وأمره بطول المُقام بها والتربُّص بتجارته. ففعل حتّى عُرِف وٱستفاض ذِكره. فلم تزل تلك حاله ستّ سنين. حتّى إذا كان فى السنة السابعة، أمر الملك أن تُصوَّر صورةُ الرجُل فى جامٍ من جاماته التى يَشْرَبُ فيها، وتُجعلَ صورتُه بإزاء صورة المَلك، ويُجعلَ مخاطبًا للملك ومشيرًا إليه من بين أهل مملكته، ويُدنى رأسَه من رأس المَلك فى الصورة كأنّه (٥٠) يُسِرُّ إليه[1]. ثم وَهَبَ ذلك الجام لبعض خدمه، وقال له: "إن الملوك ترغب فى هذا الجام. فإنْ أردتَ بيعه، فٱدفعه إلى فلان إذا خرج نحو بلاد الروم بتجارته. فإنه إنْ باعه من المَلك نفسه، نفعك، وإنْ لم يُمكنْه بيعه من الملك باعه من وزيره أو من بعض حاشيته." فجاء غلامِ الملك بالجام ليلاً، وقد وضع الرجُل رِجْله فى غَرْزِ[2] ركابه، فسأله أن يبيع جامه من الملك، وأن يَتّخِذَ بذلك عنده يدًا. وكان الملك يقدّم ذلك الغلام، وكان من خاصّ غلمانه وصاحبَ شرابه. فأجابه إلى ذلك، وأمره بدفع الجام إلى صاحب خزانته، وقال: "احفظْه! فإذا صرتُ إلى باب الملك، فليكن فيما أعرضه عليه." فلما صار إلى ملك الروم، دفع صاحب الخزانة إليه الجامَ فعزله فيما يَعرض على الملك. فلما وقع الجام فى يَدَيِ الملك، نظر إليه ونظر إلى صورة أنوشروان فيه وإلى صورة الرجل وتركيبه: عُضوًا عُضوًا وجارحةً جارحةً. فقال: "أخبِرْنى، هل يُصوَّر مع الملك صورةُ رجُلٍ خسيسِ الأصل؟ قال: لا. قال: فهل يُصوَّر فى آنية الملك صورةٌ لا أصلَ لها ولا علّة؟ قال: لا. قال: فهل فى دار الملك ٱثنان يتشابهان (٥١)

---

(١) يسرّ: يسارّه.

(٢) الغرز هو الركاب من جلد مخروز.

فى صورةٍ واحدةٍ حتّى يكون هذا كأنه هذا فى الصورة، وكلاهما نديما المَلك؟ قال: لا أعرفه. فقال: قم! فقام. فتأمّله قائما، فوجد صورته قائمـا فى الجام. ثم قال: أدْبِرْ! فأدْبَرَ، فتأمّلَ صورته فى الجام مُدْبِرًا. ثم قال: أقْبِلْ! فأقْبَلَ. فتأمّلَ صورته فى الجام مقبلًا. فوجدها بحكاية واحدة وتخطيط واحد. فضحك الملك ولم يجترئ الرجُل أنْ يسأله عن سبب ضحكه، إجلالًا له وإعظامًا. فقال ملك الروم: الشاةُ أعقـل من الإنسان إذ كانت تأخذ بِمُدْيتها[(١)] فتدفنها[(٢)]، وأنت أهديْتَ إلينا مُديتك بيدك! ثم قال له: تغدّيتَ؟ قال: لا. قال: قرّبوا له طعاما. فقال الرجُل: أيها الملك! أنا عبـد ذليل، والعبـد لا يأكل بحضرة الملك. فقال: أنت عبدٌ ما كنتَ عند ملك الروم متطلّعا علىٰ أُموره [٥٢] متتبعا لأسراره؛ بل أنت مَلِكٌ ونديمُ ملكٍ إذا قدمتَ بلاد فارس. أطعِموه! فأُطْعِمَ وسُـقِيَ الخمرَ حتّى إذا ثَمِل، قال: إنّ من سُنن ملوكنا أنْ تقتل الجواسيس فى أعلىٰ موضع تقدر عليه، وأنْ لا تقتله جائعًا ولا عطشانَ. فأمر أنْ يُصـعد به إلىٰ صَرْحٍ كان يُشْرِف منـه علىٰ كلّ مَن فى المدينة، إذا صَعِد. فضُربتْ عنقُه هناك، وأُلقِيَتْ جُثّتُه من ذلك الصّرح، ونُصِبَ رأْسه للناس.

فلمـا بلغ ذلك كسرىٰ، أمر صاحب الحرس أن يأمر المفرّد بصوت[(٣)] الحراسـة ـــ إذا ضَرَبَ بأجراس الذهب ـــ أنْ يقول، إذا مرّ علىٰ دور نساء المَلك وجواريه:

(١) سـ : تجيء.

(٢) روى المقريزىّ عن ٱبن عبد الظاهر "أن خادما رأىٰ من مَشْرف عال ذبّاحا، وقد أخذ رأسين من الغنم فذبح أحدهما ورمىٰ سكينته ومضىٰ ليقضى حاجته. فأتى رأسُ الغنم الآخرُ وأخذ السّكّينَ بفمه ورماها فى البالوعة. فجاء الجزّار يطوف على السّكّين، فلم يجدها. وأما الخادم، فانه ٱستصرخ وخلّصه منه. وطولع بهذه القضية أهل القصر، فأمروا بعمله جامعا" (الخطط ج ٢ ص ٢٩٣). وهذا الجامع هو المعروف اليوم بجامع الفاكهانى.

(٣) صـ : يأمر بالعود يضرب.

"كلُّ نفسٍ وجب عليها القتلُ ففى الأرض تُقتل، إلّا من تعرّض لحُرَمِ المَلك فإنه يُقتل فى السماء."

فلم يدرِ أحدٌ من أهل مملكته ماذا أراد بذلك حتّى مات.[1]

فليس فى الأرض نفسٌ تصبر علىٰ مَضَض الحِقد ومطاولة الأيام بها[2] صبرَ الملوك. ولذلك يطل القياس علىٰ أخلاقهم، ووُجِّهَتْ آراء ذوى الحِجا والتميز فى العمل عليها والمقابلة بها حتّى تخرج علىٰ وزنٍ واحدٍ وبنظمٍ مؤتلفٍ.

٥٣ (نكبة عبد الملك بن مروان بمن نازعه الملك)

وكذلك يُحكىٰ عن عبد الملك بن مَرْوَان وعمرو بن سعيد الأشدق،[3] أنه أقام

---

(١) روى صاحب "تنبيه الملوك" هذه القصة عن الجاحظ (ص ٣٠ — ٣٤)، وهى واردة بالحرف فى "المحاسن والأضداد" (ص ٢٧٧ — ٢٨٠)

(٢) الضمير يعود إلى النفس.

(٣) فى "الاشتقاق" لابن دُرَيْد (ص ٤٩) مانصه: عمرو بن سعيد بن العاص يعرف بالأشدق، وهو الذى يلقب بلطيم الشيطان. لما بلغ خبره الى ابن الزبير (وهو مطالب بالخلافة فى مكة) صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن أبا ذِبَّان قتل لطيم الشيطان "وكذلك نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ". قتله عبد الملك بن مروان فى خطب طويل ذكره المؤرخون بالتفصيل، مثل المسعودى (ج ٥ ص ١٩٨ و ٢٣٤—٢٣٩)، وابن الأثير (فى حوادث سنة ٦٩). لكن حكاية ابن الأثير لاتدل على تردّد عبد الملك فى شأنه بضع سنين كما يصرّح به الجاحظ، وهو الحق. كان الرجل ذا شهامة وفصاحة وبلاغة وإقدام، وكبرياء وعظمة لا نهاية لها. سعى فى حمل الناس على مبايعة مروان، بعد أن اتفق معه على أن يجعله ولىّ عهده بعد خالد بن يزيد. فلما تم الأمر لمروان، نقض الشرط وجعل الخلافة لابنه عبد الملك، على أن يكون خالد وعمرو وليّى عهده بعده. ولكن عبد الملك تخلص من خالد بأيسر سبب، وحزبه أمر عمرو وهو يصابره. وكان بينه وبين عبد الملك مكاتبات ومحادثات بشأن الخلافة. كتب إليه عبد الملك: "إنك لتُطمع نفسك بالخلافة، ولستَ لها بأهلٍ"! فأجابه عمرو: "إستدراج النعم إياك أفادك البغىَ، ورائحة القدرة أورثتك الغفلة. زجرتَ عما وافقت عليه، وندبتَ الى ماتركتَ سبيله. ولو كان ضعف الإنسان يؤيس الطالب، ما انتقل سلطان ولاذلَّ عزيز. وعن قريب يتبينَّ مَن صريعُ بغيٍ وأسيرُ غفلةٍ". قال فى المستطرف =

بضع سنين يُزاول قتلَه[1]. فمرّةً يُرجئه، وأُخرى يَهُمّ به، ومرّةً يُحجِم، وأُخرى يُقدِم، حتّى قتلَه، على أخبث حالاته.

(نكبة الرشيد بالبرامكة)

وحدّثنى قُثَمُ بن جعفر بن سليمان[2]، قال: حدّثنى مسرور الخادم[3]: قال: أشهدُ بالله! لكُنتُ من الرشيد[4] وهو متعلِّقٌ بأستار الكعبة بحيث يَمَسّ ثوبى ثوبَه، وهو يقول فى مناجاته ربَّه: "اللهم! إنى أستخيرك فى قتل جعفر بن يحيى." ثم قتله بعد ذلك بخمس سنين أو ستّ.[5]

✤

مراعاة حرم الملك

ومن حقّ الملك أن لا يَرفعَ أحدٌ من خاصّته وبطانته رأسَه إلى حُرْمةٍ له، صَغُرت أم كَبُرت. فكم من فيلٍ قد وطئ هامةَ عظيم وبطنَه حتى بدت أمعاؤه؛ وكم من

=(ج ٢ ص ٤٤) إنه سُمّى بالأشدق لأنه كان مائل الشدق. وانظر التفاصيل فى المواطن التى نبهنا عليها. [وانظر الأقوال الأخرى التى رواها الجاحظ فى سبب تسميته بالأشدق وأنه كان خطيبا مفوّها "البيان والتبيين" ج ١ ص ١٢١ — ١٢٢ وانظر أيضا ص ١٨٤ — ١٨٥ منه].

(١) س: راود.

(٢) هو قُثَم بن جعفر بن سليمان بن علىّ بن عبد الله بن عباس. كان عاملاً على المدينة، وأميراً على البصرة. وله فيها مجالسُ علمٍ وأدب. (انظر البلاذرىّ والأغانى فى فهارسهما)

(٣) فى الأصل: "حسين". ولا نعلم أن للرشيد خادما خاصا بهذا الاسم. ولذلك أبدلناه بخادمه المشهور وهو: "مسرور". يؤيد ذلك أيضا رواية "تنبيه الملوك والمكايد" الواردة فى الحاشية رقم ٥ من هذه الصفحة.

(٤) س: مع.

(٥) فى "تنبيه الملوك والمكايد" مانصه: "كان الرشيد أدهى الناس وأكتمهم لسرّه. ومما يدلّ على ذلك ما حدّث به مسرورٌ خادمُه، قال: كنتُ مع الرشيد فى بعض سِنِى حَجّه، فسمعته وقد التزم المُستجار من الكعبة وهو يلتفت يمينًا وشمالاً، وكنتُ بين أستار الكعبة لم يرنى، وهو يقول: "اللهم إنى أستخيرك فى قتل جعفر بن يحيى!" مرارًا كثيرةً. فلما سمعتُه، طار عقلى وخشيتُ أن يفطن بى، فيكون ذلك سبب هلاكى. فأقبلتُ أتعوّذ، ولم أزل أحتال حتى انسللتُ من الأستار. قال أبو هاشم مسرورٌ الخادمُ: فكان بين الوقت الذى استخار الله فيه فى قتل جعفر بن يحيى وبين قتله سبعُ سنين". (صفحة ١٩٧ — ١٩٨)

شريف وعزيزِ قومٍ قد مزّقته السباع وتمشّشته[١]، وكم من جاريةٍ كانت كريمةً على قومها عزيزةً فى ناديها قد أكلتها حيتان البحر وطير الماء، وكم من جُمْجُمَة كانت تُصان وتُعلُّ[٢] بالمِسك والبان[٣] قد أُلقِيَتْ[٤] بالعَرَاء، وغُيِّبَتْ جُثَّتُها فى الثرى بسبب الحُرَم والنساء، والخَدَم، والأولياء! ولم يأتِ الشيطان أحدًا من بابٍ قطُّ حتّى يراه بحيث يَهْوِى[٥] منقسم اللحم والأعضاء، هو أبلغ فى مكيدته وأحرى أن يَرَى فيه أُمْنِيَّتَه من هذا الباب، إذ كان من ألطف مكايده وأدقّ وساوسه وأحلى تزيينه[٦]! (٥٤)

---

(١) أى مَصَّتْ عظمه. وفى س: "تمزقته السباع وتمشمشته". وفى ص: "تمزقته السباع وتمششته". وفى "المحاسن والأضداد": ونهشته.

(٢) أى تُطيَّب مرة بعد أخرى بالمسك الخ، علّه بالحناء يَعِله ويعُله "الكامل للمبرّد". والعليلة المرأة المطيبة طيبا بعد طيب "قاموس". وفى ص: تعل. وفى نسخ "المحاسن والأضداد": تغل، تعل، تغذا. [وانظر صفحة ١٥٥ من هذا الكتاب والحاشية ١ و ٢ منها]

(٣) يطلق العرب اسم البان على شجرتين مختلفتين. فالأولى هى المسماة أيضا بشجرة الخِلاف، وهى التى يهيم بها الشعراء ويشبهون قوام المحبوب بقضبانها. وهى كثيرة بمصر. والخلاف نوع من الصفصاف (Saulo) أو هو غيره. ويطلقون اسم الخلاف فى مصر على زهرة مما يُشَمّ رَطبا ويُستقطَر مثل الورد والنسرين والنيلوفر (نهاية الأرب، فى الباب الأول من القسم الأول من الفنّ الرابع؛ وحسن المحاضرة). وفى "صبح الأعشى ج ١ ص ٣٩٣" أن البان والخلاف من الفواكه المشمومة وأنهما نوعان.

أما اسم هذا البان عند علماء النبات فهو Salix Egyptiaca. والشجرة الثانية هى التى عناها الجاحظ. تشبه الأثل ولها ثمر كأنه الجوز فيه حبٌّ كالفستق، ومنه يستخرجون الدهن المشهور بدهن البان أو بالبان فقط. وهذا الثمر يسمى بالشُّوع أيضا. ودهنه يدخل فى تركيب نفائس الطيب والأعطار والغوالى. وتوجد شجرته ببلاد العرب. واسمه العلمى (Guilandina moringa) واسمه العامّى المشهور عند الفرنج (Ben) مأخوذ عن العربية. (راجع ابن البيطار وترجمته إلى الفرنسية فى الكلمات التى ذكرناها)

(٤) ص: نبذت.

(٥) من باب ضرب بمعنى يسقط.

(٦) فى نسخ "المحاسن والأضداد" (ص٢٧٣ — ٢٧٤) أجلّ تزايينه، أجلّ بوائقه.

فعلى الحكيم المحبّ لبقاء هذا النسيم الدقيق، وهذا الماء الرقيق،(١) أنْ يطلبَ دوامَهما لنفسه بكل حيلة يجد إليها سبيلا، ويدفَع مقارفتهما(٢) لكل شئ يقع فيه التأويلُ بين أمرين من سلامة تُنْجى أو عَطَبٍ(٣) يُتْلف، ولا يَتَّكِلَ على خيانة خَفِيَتْ أو بَفْرَةِ حَظِىَ بها أحدٌ من أهل السَّفَهِ والبَطالة . فإنَّ تلك لا تُسَمَّى(٤) سلامة، بل إنما هى حسرة وندامة، يومَ القيامة . وكم من فَعْلة قد ظُهِرَ عليها بعد مرور الأيام وطول الأزمنة بها، فَرَدَّتْ(٥) من كان قد أحسنَ بها الظنَّ حتّى تركتَه كأمس الذاهب(٦)، كأنْ لم يكن فى العالَم!

* * *

إغضاء البصر بحضرة الملك

ومن حقِّ الملك — إذا أَنِسَ بإنسانٍ حتّى يُضاحكه ويُهازله ويُفْضِىَ إليه بسرّه ويَخُصَّه دون أهله، ثم دخل على الملك داخلٌ أو زاره زائرٌ — أنْ لا يرفعَ إليه طَرْفَه، إعظاما وإكراما، وتبجيلا وتوقيرا، ولا يضحَكَ لضَحِك المَلك ولا يعجَب لعَجَبه . وليكنْ غرضُه الإطراقَ والصمتَ وقلَّةَ الحركة .

---

(١) يُكنَّى بالنسيم الدقيق عن النَّفَس، وبالماء الرقيق عن الدم .

(٢) س : مفارقتهما بكل . ص : مفارقتها بكل . [وربما كان الأصوب ما وضعناه فى متن الكتاب : "ويدفع مقارفتهما لكل شئ الخ" أى يحول دون ارتكابهما لأىّ أمرٍ تكون عاقبته مشكوكا فيها بين السلامة والهلاك] . قال فى تاج العروس : "قارفه مقارفة وقرافا : قاربه . ولا تكون المقارفة إلا فى الأشياء الدنيّة ."

(٣) ص : غضب .

(٤) س : تسمى .

(٥) الفعل هنا هو ردَّى مثل أردى، بمعنى أهلك . وفى ص : فأوردت .

(٦) أمس الذاهب، وأمس الدابر، وخبر كان : كلُّها بمعنى واحد . (أنظر لسان العرب فى د ب ر)

*
* *

غض الصوت بحضرة الملك

ومن حق المَلِك أنْ لا يرفع أحدٌ صوتَه بحضرته. لأن من تعظيم المَلِك وتبجيله خَفْضَ الأصوات بحضرته، إذ كان ذلك أكثرَ في بهائه وعِزّه وسلطانه.

تأديب الله للصحابة

وبهذا أدّب الله أصحاب رسوله (صلى الله عليه وسلم)، فقال عزّ من قائل: "يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ." فأخبرَ أنّ مَن رفع صوته فوق صوت النبيّ فقد آذاه، ومَن آذاه فقد آذى الله، ومَن آذى الله فقد حَبِط عمله.

وكان قومٌ من سفهاء بني تميم أتَوُا النبي (صلى الله عليه وسلم) فقالوا: يامحمد! أُخرُجْ إلينا نُكَلِّمْكَ. فغَمَّ ذلك رسولَ الله (صلى الله عليه وسلم) وساءه ما ظهر من سُوء أدبهم، فأنزل الله عز وجل: "إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ." (1)

ثم أثنى على مَن غضَّ صوته بحضرة رسوله، فقال جل آسمه: "إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى." (2)

(٥٦)

فمن تعظيم المَلِك وتبجيله خفضُ الأصوات بحضرته، وإذا قام عن مجلسه: حتّى لا يدخُل المُلكَ وَهْنٌ ولا خَلَلٌ ولا تقصيرٌ، في صغيرِ أمرٍ ولا جليله.

*
* *

حرمة مجلس الملك في غيبته

وكانت ملوك الأعاجم تقول: إنّ حُرْمَةَ مجلس الملك إذا غاب كحُرْمته إذا حضر.

(١) أنظر قصة هذا الوفد في كتب السيرة النبوية، وفي "صبح الأعشى" (ج ١ ص ٢٢٤ — ٢٢٦)، وفي "البيان والتبيين" (ج ٢ ص ٣٩).

(٢) أنظر "محاضرات الراغب" (ج ١ ص ١١٧).

الرقباء على مجالس ملوك العجم عند غيابهم

وكان لها عيون(١) على مجالسها، إذا غابت عنها. فمَن حضرها، فكان فى كلامه وإشارته وقلّة حركته وحُسن ألفاظه وأدبه — حتّى أنفاسه — على مثل ما يكون إذا حضر الملك، سُمّى ذا وجهٍ. ومَن خالف أخلاقه وشِيَمه وظهر منه خلاف ما يظهره بحضرة المَلك، سُمّى ذا وجهين، وكان عند الملك منقوصا مُتَصَنِّعًا(٢).

⁂

مواطن المكافآت

ومن أخلاق الملك أن يخلع على مَن أدخل عليه سرورًا، إمّا فى خاصّة نفسه وإمّا فى توكيد مُلكه. فإنْ كان السرور لنفسه فى نفسه، فمن حقّه على الملك أن يخلع عليه خِلعة فى قرار داره، وبحضرة بِطانته وخاصّته. وإن كان فى توكيد مُلكه، فمن حقّه أن يخلع عليه بحضرة العامّة، ليُشَرِّله بذلك الذكر ويُحْسِنَ به الأُحدوثةَ وتَصْلُحَ عليه النيّات، ويَستدعى بذلك الرغبة إلى توكيد المُلك وتسديد أركانه.

(٥٧)

بيان المكافآت وخصوصها وعمومها

وليس من العدل أن يُفْرَدَ المُحْسِنُ بخِلعة فقط، إلّا أن تكون الخلعة على شُرب أو لَهْوٍ. فأما إذا كانت لأحدِ المَعْنَيَيْنِ اللذيْن قدّمنا ذكرهما، فمن العدل أن يكون معها جائزةٌ وصِلَةٌ وترتيبٌ، أو ولاية أو إقطاع أو إجراء أرزاق أو فكّ أسير أو حمل حَمالات أو قضاء دَيْن أو إحسان، كائنًا ما كان، مضافًا إليها وموصولًا بها.

(١) أى، رقباء.

(٢) ص: مقصيا. [وعلى فرض صحة هذا الحرف فالواجب أن تكون صيغته هنا "مُقْصًى" إذ لا يقال "مقصيا" فى آسم المفعول. وآنظر القاموس وشرحه فى مادة ق ص و]

باب
فى صفة ندماء الملك

صفة خلق النديم

ينبغى أن يكون نديم الملك معتدل الطبيعة، معتدل الأخلاط، سليم الجوارح والأخلاق، لا الصفراء تقلقه وتكثر حركته، ولا الرطوبة والبلغم يقهره ويكثر بوله وبزقه وتثاؤبه ويطيل نومه، ولا السوداء تضجره وتطيل فكره وتكثر أمانيّه وتفسد مزاجه. فأمّا الدموىّ (١)، فليس يدخل فى هذه الأقسام المذمومة، إذ كان بالبدن إليه (٢) حاجة كحاجته إلى تركيبه وسلامته.

❖

(٥٨) آداب النديم فى المزاملة، وعلومه.

ومن حقّ الملك — إذا زامله بعض بطانته — أن يكون عارفا بمنازل الطريق وقطع المسافة، دليلا بهدايته وأعلامه ومياهه (٣)، قليلَ التثاؤب والنُّعاس، قليلَ السُّعال والعُطاس، معتدلَ المِزاج، صحيح البِنْيَة، طيِّبَ المُفاكهة والمُحادثة، قصير المياومة والملايلة (٤)، عالما بأيّام الناس ومكارم أخلاقهم، عالما بالنادر من الشعر والسائر من المثل، متطرِّفا (٥) من كلّ فنٍّ، آخذًا من الخير والشر بنصيب. إنْ ذَكَرَ الآخرة ونعيمَ أهل الجنّة، حدّثه بما أعدّ الله تعالى لأهل طاعته من الثواب، فرغّبه فيما عنده؛ وإنْ ذكر النار، حذّره ماقرّب إليها. فزهّده مرّةً، ورغّبه أخرى. فإنّ بالملك أعظم

(١) صـ : الدين.

(٢) الضمير يعود إلى "الدم" المفهوم من قوله "الدموى"

(٣) صـ : ومناره.

(٤) صـ : قصير الملالة.

(٥) صـ : متصرفا.

الحاجة إلىٰ مَن كانت هذه صفاته وبالحَرَا[(١)] إذا أصاب هذا، أنْ لايفارقه إلّا عن أمرٍ تنقطع به العصمة وتجب به النقمة[(٢)].

عدّة الملك فى خروجه لسفر أو نزهة

ومن حقّ الملك، إذا خرج لسفرٍ أو نُزهةٍ، أنْ لايفارقه خِلَعٌ للكساء، وأموالٌ للصِّلات، وسِياطٌ للأدب، وقيودٌ للعُصاة، وسلاحٌ للأعداء، وحُماةٌ يكونون من ورائه و بين يديه، ومُؤْنِسٌ يُفضى إليه بسرِّه، وعالِمٌ يسأله عن حوادث أمره وسُنّة (٥٩) شريعته، ومُلْهٍ يُقَصِّر ليلَه ويُكْثِرُ فوائده.

وعلىٰ هذا كانت ملوك الأعاجم، أوّلها وآخِرها.

وأيضا فإنّ ملوك العرب، لم تزل تمتثل هذا وتفعله.

خلال الندماء

ولندماء الملك و بِطانته خِلالٌ يُساوُون فيها المَلك ضرورةً. ليس فيها نقص علىٰ المَلك، ولا ضَعَةٌ فى المُلك. منها: اللَّعِبُ بالكُرَة، وطلب الصيْد، والرَّمْىُ فى الأغراض، واللّعب بالشِّطْرَنْج، وما أشبه ذلك.

مساواة الملك للاعبه

ومن الحقّ علىٰ الملك أنْ لا يمنع ملاعبه مايجب له من طلب النَّصَفَة فى هذه الأقسام التى عَدَدْنَا.

حق الملاعب على الملك

ومن حق المُلاعِب له المُشَاحّةُ والمُكَالَبة والمُساواة والممانعة[(٣)] وتركُ الإغضاء والأخذُ

---

(١) فى "القاموس": "الحَرَا الخليقُ. ومنه: بالحَرَا أن يكون ذلك." وفى "الصحاح": ويحدّث الرجلُ الرجل فيقول: بالحرىٰ أن يكون. [والمعنىٰ هنا أن الملك اذا أصاب رجلا توفّرت فيه هذه الصفات فالأحرى والأجدر والاخلق به أن لا يفارقه إلا فى الحالة التى نصّ عليها المؤلف.]

(٢) س: "النقيمة".

(٣) ص: المماتقة.

من الحقّ بأقصى حدوده. غير أنّ ذلك لا يكون معه بَذَاءٌ ولا كلامٌ رَفَثٌ ولا معارضةٌ بما يُزيل حقّ المَلِك ولا صياحٌ يعلو كلامه ولا نَخيرٌ[1] ولا قذفٌ ولا ما هو خارج عن ميزان العدل.

(٦٠) ملاعبة سابور على أمر مجهول

وفيما يُحكَى عن سابور أنه لاعب تِرْبًا، كان له بالشِّطْرَنْج إمْرَةٌ مُطاعةٌ[2]. فقَمَرَه تِرْبُه. فقال له سابور: ما إمْرَتُك؟ فقال: أركبك حتّى أخرج بك إلى باب العامّة. فقال له سابور: بئس موضع الدالّة وضعتَك، فَرِدْ غيرَ هذا. فقال: بهذا جرى لفظي. فأسِفَ لذلك سابور وقام فدعا ببرقع، فتبرقع. ثم جثا لتِربه، فامتنع أن يعلو ظهر الملك، إجلالًا له وإعظامًا. فنادى سابور بعد ذلك بسَنَةٍ في الرعيّة: لا يلعبنّ أحدٌ لُعبةً على حُكمٍ غائبٍ، فمن فعل فَدَمُه هَدَرٌ[3].

فأما إذا كانت المُشاحّة على طلب الحق في هذه الأقسام التي ذكرنا بمعارضةِ شعرٍ، وتوبيخٍ في مَثَلٍ ونادرٍ من الكلام، وإخبارٍ عن سوء لَعِبِ اللاعب وتأنيبٍ له، فهذا مما يُخاطَب به المَلِك ويُعارَض فيه. فأما إذا خرج عن هذا، فدخل في باب الجُرأة كما فعل تِربُ سابور، فإنّه خطأٌ من فاعله وجهلٌ من قائله وجُرأةٌ على مَلِكه. وليس للرعيّة الجُرأة على الراعي.

(٦١) آداب الملاعب بالكرة وغيرها

ومن حق الرجُل على المَلِك، إذا ضرب معه بالكرة، أن يتقدّم بدابّته على دابّة

(١) النخير: مدّ الصوت في الخياشيم. (قاموس)

(٢) أي أنّ هذا التِّرْب كانت عادته وديدنه أن لا يلعب الشطرنج إلا على إمرة مطاعة. والإمرة المطاعة هي الاحتكام.

(٣) روى صاحب "محاسن الملوك" هذه القصة باختصار. (ص ٧٨)

الملك، وصَوْبَجَانِه على صوبجان الملك، وأن يعمَل جُهده فى أن لا يُبْخَس حظّه ولا يفتر[1] فى مسابقةٍ ولا مراكضةٍ ولا آلتقافِ كرةٍ ولا سبقٍ إلى حدّ ونهاية وما أشبه ذلك.

وكذلك القول فى الرِّماية فى الأغراض وطلب الصيد ولعب الشِّطْرَنْج.

لعبة الشطرنج بحضرة عبدالله ابن طاهر

سمعت محمد بن الحسن بن مُصْعَب[2] يقول: "كان لى صديق من بنى مَخْزُوم، وكان لاعبا بالشِّطرنج. فذكرتُه لأبى العباس عبد الله بن طاهر، فقال: أحضِرْه. فقلت للمخزومى: تهيَّأْ للقاء أبى العباس. وكان متصرِّفًا كثيرَ الأدب. فغدوتُ به، فدخل. فلما وقعت عين أبى العباس عليه، وقف، فرآه من بعيدٍ، ثم آنصرف من غير أن يُكلِّمه. فقال: هذا رجُلٌ من أهل الأدب، فاغْدُ به ولاعِبْه الشِّطْرَنْج بحضرتى

(١) صـ: ولا يمين.

(٢) إضطرب آسمُ الأب فى كثير من كتب التاريخ والأدب. فورد فى سـ: "الحسين" وكذلك فى كامل آبن الأثير طبع أوربة ومصر وفى "المحاسن والمساوى" ص ٢١٧. وورد فى صـ: "الحسن" وكذلك فى الأغانى وفى سـ فى موضع آخر [أى فى صفحة ١٠٥ من هذا الكتاب]. أما الطبرى فأورد الأسمين، وفرّق بينهما صاحبُ فهرسته بجعل "محمد بن الحسين" راويا. ولا أدرى من أين له هذه التفرقة، فإن متن الطبرى لا يفيدها. والظاهر عندى أنهما شخص واحد.

أوّلا — لأن محمد بن الحسين بن مصعب لم يرد فى الاغانى مطلقا، ولو كان راويا — كما يزعم صاحب فهرست الطبرى — لكان من الراجح وقوع آسمه فى كتاب الأغانى؟

ثانيا — لأن آبن الأثير ذكر محمد بن الحسين بن مصعب (فى حوادث سنة ١٩٨) ثم وصفه بأنه ابن عم طاهر ذى اليمينين الذى فتح بغداد بآسم المأمون. ومعلومٌ أن طاهرًا هذا هو آبن الحسين بن مصعب بلا خلاف. فيكون صاحبنا الذى أشار إليه الجاحظ هو محمد بن الحسن بن مصعب، وإلا لكان عمّه. ومحمد بن الحسن بن مصعب هذا هو الذى أرسله طاهر إلى المأمون بخراسان برأس الامين بعد قتله ببغداد. فهو من عصبة عبد الله بن طاهر الذى وقعت الحكاية فى مجلسه. وقد كان بصيرا بالغناء والنَّغَم، وكان من المُلَحِّنين. وذلك لأن أبا الفرج الإصفهانى يقول إن الرجل نشأ بخراسان، وينعته بلقب الامير. (إبن الأثير ج ٦ ص ٢٠١ و ٢٥٦) و (الأغانى ج ٥ ص ٣٨ و ٥٣ و ١٠٢ وج ٩ ص ٦٢ وج ١٠ ص ٩١)

حتّى أبوره[1] وعايشه حتّى يخرج إلىٰ باب الهزل والشتيمة[2]. فلما قعدنا، دارت لى عليه ضربةٌ، فقلتُ: خذها، وأنا الغلام البُوشَنجِيّ[3]! وهو ساكتٌ. ثم دارتْ لى عليه ضربةٌ أُخرىٰ، فقلتُ: خذها، وأنا مَولىٰ مَخزُوم! فسكتَ. ثم دارت عليه ضربةٌ، فقلتُ: خذها يا آبن مخزوم، فى حِرِمِّ[4] مخزوم! فسكت. وآستُؤْذِن لرجلٍ من آل عبد الملك (٦٢) آبن صالح، وكان خاصًّا بأبى العباس، فأمر بالإذن له. فلما دخل الهاشمىّ وقعد، قال [لى] المخزومىّ: ليس فيك موضع شرف ولا عزّ، فأُفاخرُك! أنت بوشنجىٌّ ثَمَنُه دانق! ولكنْ قُلْ لهذا الهاشمىّ يفاخرنى حتّى ينظر ما يكون حاله. فأمّا أنت، فمَنْ أنت حتّى أُفاخرك؟ فضحك أبو العباس حتّى فَحَصَ برجْلَيْه[5]، وأمر له بخمسمائة دينار وقرّبه وآنسه.

⁂

آداب الندماء اذا أخذت الملك سنة من النوم

ومن أخلاق الملك، إذا غَلَبَتْه عيناه، أن ينهض مَن حضره من صغيرٍ أو كبيرٍ، بحركةٍ لَيِّنَةٍ خفيفة، حتّى يتوارىٰ عن قرار مجلسه، ويكون بحيث يقرُب منه إذا آنتبه. ولا يقولَنَّ إنسانٌ فى نفسه: لعلَّ الملك إنْ هبّ من سِنَتِه لا يسألُ عنّى، أو لعلَّهُ أن يمتدّ به النوم أو يعرِضَ له شُغْلٌ. فإنّ هذا من أكبر الخطإ.

وقد قَتَل بعضُ الملوك رجُلا فى هذه الصفة.

---

(١) البَوْر الآختبار والآمتحان كالآبتيار. قال فى نقائض جرير والفرزدق (ص ٣٥٤): "وهذا كلّه آبتيارٌ منه للناس ليدعوهم إلى خلعه".

(٢) يظن بعض الجهلة أن هذا اللفظ ليس بعربىّ، لان بعض المتحذلقين مالوا إلى الشتم لفظا ومعنى، دون أن يتفطنوا إلى الفرق بين الآسم والمصدر. والقاموس وشرحه وكل متون اللغة والجاحظ وأمثاله شهودٌ عدولٌ. وآنظر أيضا شرح القاموس فى مادة هـ ز ل فقد صرح بأنهم اشتقوا الشتيمة من الشتم [وآنظر البيان والتبيين ج ٢ ص ٦]

(٣) إشارة إلى نشأته بمدينة بُوشَنْج من خراسان.

(٤) كلمة مركبة تركيبا إضافيا من كلمتين. وحُذف حرف الألف من الثانية. والمعنى ظاهر. وهو شتيمة. ويضارع ذلك فى حذف الألف، قول العرب: "لَابَ لك" أى لا أب لك، وقولهم: "ويلُمّه" (أنظر تاج العروس فى مادة و ى ل). [وآنظر صفحة ١٣٥ من هذا الكتاب].

(٥) أى ضرب الأرض برجليه كثيرا حتى كأنه يبحث فيها.

وليس من الحزم أن يجعل الحكيم للملك على نفسه طريقا، وهو وإنْ سَلِمَ من عَذْل الملك ولائمته لكَرَم المَلك وشيمته، قَدَحَ ذلك فى نفس المَلك واضطغن عليه. وبالحَرِىّ أن لا يَتَهْلَمَ من عَذْلٍ وتأنيبٍ[1].

⁂

إمامة الملك الصلاة

(٦٣)

ومن حقّ الملك ــ إذا حضرت الصّلاة ــ فالملك أَوْلى بالإمامة[2]، لخصالٍ: منها ــ أنه الإمامُ، والرعيّةُ مأمومةٌ؛ ومنها ــ أنه المولى، وهم العبيد؛ ومنها ــ أنه أَوْلى بالصلاة فى قرار داره وموطئ بساطه، ولو حضر مجلسَه أزهدُ الخلق وأعلمُهم.

فإذا قام للصلاة، فمن حقّه أنْ يكون بينه وبين مَن يصلّى خلفه عشرةُ أذرع، وأنْ لا يتقدّمَه أحدٌ بتكبيرٍ ولا بركوعٍ ولا سجودٍ ولا قيامٍ.

وهذا، وإن كان يجب لكلّ مَن أمّ قوما من صغيرٍ أو كبيرٍ أو شريفٍ أو وضيعٍ، فهو للملك أوجبُ.

فإذا سلّم الملك، فمن حقّه أنْ يقوم كلُّ مَن صلّى خلفه قائما. فإنهم لا يدرون أيريد تنفّلا[3] أو دخولا أو قعودًا فى مجلسه.

فإن قام لنافلة، فليس من حقّه أن يتنفّلوا. لأنهم لا يدرون لعلّه أنْ يسبقهم أو يقطعَ صلاتَه لحَدَثٍ، فيكون يحتاج الى أن يسبقهم، وهم قيامٌ يُصَلُّون بإزائه، وهو قاعدٌ. ولكن من حقّه أن يكونوا بحالهم حتّى يعلموا ما الذى يفعل. فإنْ قعد، انحرفوا الى حيثُ لا يراهم، فصَلَّوْا نوافلهم. وإن دخل فى الصلاة، صلَّوا على مكاناتهم[4].

(١) أنبه تأنيبا: عنفه ولامه. (حاشية فى صـ)

(٢) صـ: بالإقامة.

(٣) فى سـ: "تنقلا" بالقاف، ولكن بقية السياق تدل على أنه بالفاء.

(٤) المكانة المنزلة عند مَلِكٍ. (قاموس). وقد وردت هذه الآداب بزيادة واختصار فى "محاسن الملوك" (ص ٧٨)

آداب مسايرة الملك (٦٤)

وقد قلنا إنّ من حقّ المَلك أنْ لا يبتدئَهُ أحدٌ بمُسايرةٍ. وإنْ طلب ذلك منه مَن يستحقّ المُسايرة، فالذى يُجزئُهُ من ذلك أن يقف بحيث يراه ويتصدّى له. فإنْ أوْمأ إليه، سايره؛ وإنْ أمسَكَ عن الإيماء، عَلِمَ أن إمساكه هو تركُ الإذْن له فى مسايرته.

ومن حقّه، إذا سايره أن لا يَمَسّ ثوبُه ثوبَ الملك، ولا يُدْنِىَ دابّتَه من دابّته، ويتوخّى أنْ يكون رأسُ دابّته بإزاء سَرْج المَلك، غيرَ أنّه لا يُكلفه أن يلتفت إليه. ولا ينبغى له أن يبتدئه بكلام.

وإنْ كان لا يثق بلين عِنان دابّته حتّى يصرفه كيف شاء ومتى شاء، فالرأْىُ له أنْ لا يسايره. فإنّ فى مسايرته وَصْمَةً عليه وعلى المَلك. أمّا عليه، فإنه يحتاج إلى حركة متواترة يُتعب بها نفسه ودابّته، ويَخرُج بها عن حدّ أهل الأدب والمُروءة والشرف. وامسّله فى خلال ذلك أيضا أنْ لا يبلُغ ما يريد. وأمّا على المَلك، فإنه وَهْنٌ فى المملكة. لأنّ المَلك، إنْ طلب الصبر عليه وعلى سير دابّته، كان إنما يسير عند ذلك بسيره. وليس فى آيين(١) المملكة أن يسير الأعظم بسَيْرِ مَن هو دونه.

ستة أكابر العجم عند تهيبهم المسايرة (٦٥)

ولذلك كانت رؤساء الأكاسرة والأساورة والدّبيربَذ(٢) ومُوبَذان مُوبَذ(٣) ومن أشبه هؤلاء من خاصّة الملك، إذا هَمّ الملك بالمسير فى نُزْهَةٍ أو لبعض أُموره، عرضوا دوابّهم

(١) أُنظر الحاشية رقم ٢ ص ١٩ و ٢٣ و ٣٠ و ٧.٧ من هذا الكتاب.

(٢) كلمة فارسية تفسيرها حافظ الكتاب (التنبيه والإشراف للمسعودى ص ١٠٤). والمقصود من الكتاب الكتاب المقدّس عند المجوس. وربما كان الصواب فى هذا المقام: "دبير يد" من كلمتين الأولى فارسية والثانية عربية بمعنى "كاتب اليد". ذلك لأنى لم أعثر فى معجمات اللغة الفارسية على تفسير يوافق ماذهب إليه المسعودى، أللهم إلا أن تكون الكلمة محرفة وتحتاج إلى التثقيف. [وأنظر صفحة ١٦٠ و١٧٣ من هذا الكتاب].

(٣) أما الموبذ فهو القاضى، وموبذان موبذ هو قاضى القضاة. وموبذ من ألفاظ الفهلوية، وهى اللغة الفارسية القديمة ومعناها القاضى (مروج الذهب جزء ٦ ص ٣٧٥).

علىٰ راضة المَلك وصاحب دوابّه . وكان كلُّ واحدٍ منهم لا يأمَنُ أن يدعُوَ به المَلك للسايرة والمحادثة ، فيحتاج إلىٰ معاناة دابّته لبلادةٍ أو كثرةِ نفورٍ أو عِثار أو جِماح . فيكون علىٰ الملك من ذلك بعضُ مايكره . وكان الرائض يمتحِنُ دابّةً دابّةً من دوابّ هؤلاء العظماء . فما آختار منها رُكِبَ ، وما نَفىٰ أُرْجِعَ .

وأيضا إنّ من حقِّ الملك ، إذا سايره واحدٌ ، أنْ لا تَروث دابّتُه ولا تبُول ولا تحصّن[1] ولا تتشغّب ، ولا يطلب المحاذاةَ[2] لسير دابّة الملك ، وإن أراد ذلك منعه راكبه .

ما حصل للموبذ أثناء مسايرته لقباذ

وفيما يُحكَى عن ملوك الأعاجم أن قُبـاذ[2] ، بينا هو يسير والمُوبذ يسايره ، إذ راثت دابة المُوبذ وفطِن لذلك قباذ . فآغتمّ المُوبذ بذلك ، فقـال له فى كلام بينهما : ما أوّل مايُستدلّ به علىٰ سُخْف الرجل ، أيها الموبذ؟ فقال : أنْ يعلِف دابّته فى الليـلة التى يركب فى صبيحتها الملكُ . فضحك قُباذ حتّى آفترّ عن نواجذه . وقالَ : لله أنتَ ! ماأحسنَ ماضمّنتَ كلامك بفعـل دابّتك ! وبحقٍّ ماقدمك المـلوك وجعلوا أزِمّة أحكامهم فى يدك ! ووقف ثم دعا بدابّة من خاصّ مراكبه ، فقـال له : تحوّل عن ظهر هـذا الجانى عليك إلىٰ ظهر هذا الطائع لك[3] .

(٦٦)

---

(١) تحصّنَ الفَرَسُ صار حصانا أى إذا تكلّف ذلك . ولعلّ المعنىٰ أنّ الفَرَس تثب على الدابّة التى تكون قُدّامها كما يفعل الفحل . لئلا يحدث مثل ماوقع لسلطان مصر قايتباى إذ ركب فى محرم سـنة ٨٧٦ ومعه الأتابكىّ أزبك (منشئ الأزبكية) متوجهيْن من القاهرة إلى شيبين القناطر . ففى أثناء الطريق شبّ فرس الأتابكىّ على فرس السلطان ورفسه . فجاءت الرفسة فى قصبة ساق السلطان فآنكسرت ، فنزل بشيبين وهو فى غاية الألم . واستحصر السلطان محفّة من القاهرة ليعود عليها . (وآنظر التفصيل فى آبن إياس ج ٢ ص ١٢٨)

(٢) معرّب قباد . وفى كتاب "برهان قاطع" أنه بنىٰ مدينتى حُلوان وكازرون . وأقول إن حُلوان هـذه هى غير التى بالقرب من القاهرة . وعن ياقوت أنها كانت أكبر مدينة فى العراق بعد الكوفة والبصرة وبغداد وسُرَّ مَنْ رأى . [وآنظر صفحة ١٠٥ من هذا الكتاب] .

(٣) رواها فى "محاسن الملوك" بآختصار . (ص ٨٢ — ٨٣) ، ورواها بالحـرف فى "المحاسن والمساوى" (ص ٤٩٦ — ٤٩٧) .

ماحصل لشرحبيل أثناء مسايرته لمعاوية

وهكذا يُحكىٰ عن معاويةَ بن أبي سفيان أنه بينا هو يسير وشُرَحْبيل بن السِّمْط[١] يسايره، إذ راثت دابّة شُرَحْبيل، وكان عظيم الهامَة بسيط القامَة. ففطِن معاوية بروْث الدابّة، وساء ذلك شُرَحْبيل. فقال معاوية: يا أبا يزيد! إنه يقال إن الهامة إذا عظُمتْ، دلّتْ علىٰ وُفور الدماغ وصحّة العقل. قال: نعم يا أمير المؤمنين، إلّا هامتي فإنها عظيمة، وعقلي ضعيفٌ ناقصٌ. فتبسّم معاوية، وقال: كيف ذلك، ولله أنت! قال: لإطعامي هذا النائل أمّه[٢] البارحة مَكُّوكَيْ شعير. فضحك معاوية، وقال: أَفْحَشْتَ[٣]، وما كنتَ فاحشًا! وحمله علىٰ دابّة من مراكبه.

(١) هو أبو السمح الكندىّ. كان من رجالات معاوية وأركان دولته، وكان يستشيره فى جلائل الأمور ويعوّل عليه في حلّ المشكلات الجسام. وقد أرسله مع عمرو بن العاص لملاقاة أبى موسى الأشعرىّ فى قضية التحكيم. وكان من قوّاد الجيوش ومن صناديد الفرسان المعدودين، وآشترك فى رياسة الجيوش التى فتحت العراق والقادسية وبيسان وأجنادين. وقد طلب من علىّ عليه السلام أن يدفع إليهم قَتَلَة عثمان بن عفّان إن لم يكن هو القاتلَ. وهو الذى فتح حِمص ثم تولّاها لمعاوية، وهو الذى قسم منازلها بين أهلها. ومما يحسن ذكره للتعريف بجلالته فى نفسه وقومه أنه آعتزل مع ولده بنى معاوية حينما أطبقوا على منع الصدَّقة، وقالا لهم: "إنه لقبيح بالحرار [الأحرار] التنقل. إن الكرام لَيُلزَمون الشبهة فيتكرمون أن ينتقلوا الى أوضح منها، مخافة العار. فكيف الآنتقال من الأمر الحسن الجميل والحق، إلى الباطل والقبيح؟ اللهم إنا لانمالئ قومنا على ذلك!" توفى سنة ٤٠ أو سنة ٤٢. (إبن الأثير ج ٢ ص ٢٩١ و ٣٤٨ و ٣٧٤ و ٣٨٧ و ٣٨٩ و ٣٩٠ و ٤٩٤ وج ٣ ص ٢٢٩ و ٢٣٠ و ٢٣٧ و ٢٤٠ و ٢٩٧ و ٣٣٨، والآشتقاق لآبن دُرَيْد ص ٢١٨، وتاج العروس فى باب الباء وفى باب اللام)

(٢) إقتديتُ فى هذا الموضع بما فعله فى صفحة ٧٩ طابع كتاب طراز المجالس للشهاب الخفاجىّ فى المطبعة الوهبية بالقاهرة. [وآنظر صفحة ١٣١ من هذا الكتاب].

(٣) رواها بآختصار فى "محاسن الملوك". (ص ٨٣)، وفى "المحاسن والمساوى" (ص ٤٩٧).

تحذير (٦٧)

فليتنكّبْ مَن يساير الملوك ما يَقذِى أعينهم بكل جُهده. فإن لمسايرتهم شروطا يجب على مَن طلبها أن يستعملها ويتحفّظ فيها. وقلّما حظِىَ أحدٌ بمسايرة مَلك حتّى يكون قبلها مقدّماتٌ يجب بها الحُظوَة.

تطير العجم من مسايرة الملك المتصلة

فأمّا نفس المسايرة للملك المُتّصِلة، فإن الأعاجم كلها كانت تتطيّرُ منها وتكرهها. وأيضا فإن المَلِك لم يكن يثابر على مسايرة أحدٍ من بِطانته بعينه، لمَا كان يعلم من طِيَرتهم من ذلك وكراهتهم له.

ما حصل من صاحب الشرطة وهو يسير بين يدى الهادى

ويقال إن سعيد بن سَلْم(1)، بينا هو يساير موسى أمير المؤمنين، وعبدُ الله بن

(١) هو سعيد بن سلم بن قتيبة بن مسلم الباهلىّ. كان بمنزلة عظيمة من الهادى ومن الرشيد بعده، وكان يركب معه فى قبة واحدة. وقد استعمله الرشيد على الموصل، ثم على الجزيرة، ثم على أرمينية. فخرج الخزر عليه فهزموه وفعلوا الأفاعيل المنكرة التى لم يسمع بمثلها الناس. فأرسل الرشيد رجلين فأصلحا ما أفسده. ثم ولاه مَرْعَش فأغارت الروم عليها وأصابوا من المسلمين وانصرفوا، ولم يتحرك سعيد من موضعه. وكان ذلك سنة ١٩١.

قال سعيد إن أعرابيا مدحه ببيتين لم يسمع أحسن منهما:

أيا ساريًا بالليل، لا تخشَ ضِلّةً! * سعيدُ بن سَلْمٍ ضوءُ كلِّ بلادِ.
لنا مُقرَمٌ أربَى على كلِّ مُقرَمٍ، * جوادٌ حثَا فى وجه كل جواد.

فأغفل صلته فهجاه ببيتين لم يسمع أهجى منهما:

لكلِّ أخى مدحٍ ثوابٌ علمتُه، * وليس لمدح الباهلىّ ثوابُ.
مدحتُ ابن سَلْمٍ، والمديحُ مَهزّةٌ، * فكان كصفوانٍ عليه ترابُ.

(ابن الأثير ج ٦ ص ٧١ و ٨١ و ١٠٥ و ١١١ و ١١٢ و ١٤١؛ و"الأغانى" ج ١٧ ص ٣٢ وج ٢١ ص ٢٣٤؛ و"عيون الأنباء" ج ١ ص ١٥٤؛ و"أمالى القالى" ج ٢ ص ٢٧)

مالكٌ[١] [الخُزاعىّ] أمامَه، والحربةُ[٢] فى يده، فكانت الريح تَسْفِى الترابَ الذى تُثيره دابّة عبدالله فى وجه موسٰى، وعبدُ الله لا يشعُر بذلك، وموسٰى يحيد عن سَنَن التراب. وعبد الله فى خلال ذلك يلحظ موسٰى وموضِعَه، فيطلب أن يحاذيَه. فإذا حاذاه، ناله من ذلك التراب ما يُؤذيه. حتّٰى إذا كثر ذلك من عبد الله، ونال موسٰى أذٰى ذلك التراب، قال لسعيد: أما ترىٰ ما نلقىٰ من هذا الخائن[٣] فى مسيرنا هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين! والله ما قصَّر فى الاجتهاد، ولكنه حُرِمَ حظَّ التوفيق[٤].

ما قاله عبد الله بن الحسن للسفاح

وفيما يُذكَر عن عبدالله بن حسن[٥] أنه بينَا هو يساير أبا العباس [السفاح] بظاهر مدينة

---

(١) كان صاحب الشُّرطة فى أيام المهدىّ فالهادى فالرشيد. وكان من أكابر القوّاد وتولّٰى أرمينيّة وأذربيجان. له مع الهادى حكاية ظريفة ذكرها ابن الأثير (ج ٦ ص ٧٠ و ٧١). وكان بينه وبين يحيٰى بن خالد البرمكى عداوة وتحاسد، وانتهت بتصالحهما على يد أحد المزوّرين من حيث لا يعلمان ولا يعلم (ساقها فى المحاسن والمساوى ص ٤١٥ ــ ٤١٦). وفيه يقول أحد الشعراء فى شكاة اشتكاها:

ظلَّتْ عَـلَىَّ الأرضُ مُظلِمَـةً * إذ قيل: عبدُ الله قد وُعِكَا.
ياليت ما بك بى، وإن تَلِفَتْ * نفسى لذاك! وقَلَّ ذاك لَكا!

(انظر ابن الأثير ج ٦ ص ٦٥ و ٦٨ و ١٢٥ و ١٣٤ و ١٤١ و ١٤٢ و ١٤٥ و ١٥٣ و ١٥٤ وانظر الأغانى ج ٥ ص ٥ وج ٨ ص ١٠٥ وج ١٦ ص ١٦٧). [وانظر صفحة ٩٢ من هذا الكتاب].

(٢) يستفاد من كلام الجاحظ هنا مضافًا إليه كلام ابن الأثير (فى ج ٦ ص ٦٥ وفى ج ٧ ص ٧٦) أن من شعار الخليفة وولىّ عهده أن يسير قائد بحربة بين يدى كلّ منهما.

(٣) كذا فى سـ، صـ، وفى العقد الفريد وفى المحاسن والمساوى. ولعلّ الأصل: "المائق".

(٤) نقل ابن عبد ربه هذه الحكاية باختصار فى مقدّمتها ولم يُشر إلى مصدرها. (العقد الفريد ج ١ ص ٢٧٦) ونقلها بالحرف فى "المحاسن والمساوى" (ص ٤٩٧)

(٥) هو عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب. وله أخبار ووقائع كثيرة مع السفّاح والمنصور. لأن السفّاح اجتهد فى ترضّيه حتى لا يطالب بالخلافة. وكذلك فعل المنصور. ولكنّ ولديه محمّدًا النفس الزكية وإبراهيم خرجا على المنصور. (انظر العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ ص ٣٤ والأغانى ج ١٨ ص ٢٠٣ ــ ٢٠٩ والطبرى والكامل للمبرّد بمقتضى فهارسهما).

إلى أبي جعفر في اليوم الذي قُتل فيه، إذ أنشد عيسى:

سيأتيك ما أفنى القرونَ التي مضتْ، * وما حلَّ في أكناف عادٍ وجُرْهُمِ،
ومَن كان أنأى(١) منك عِزًّا ومَفْخَرًا، * وأَنْهَدَ(٢) بالجيش اللَّهامِ العَرَمْرَمِ.

فقال أبو مسلم: هـذا مع الأمان الذي أُعطيتُ؟ قال عيسى: أعتِقُ ما أملِكُ إنْ كان هذا لشيءٍ من أمرِك! وما هو إلّا خاطرٌ أبداه لساني. قال: فبئس الخاطرُ والله إذَنْ(٣)! (٦٩)

ماقالهاا مسلم انا

* * *

عدم تسمية الملك أو تكنيته

ومن حقِّ المَلِك أنْ لا يُسَمَّى ولا يُكَنَّى في جِدٍّ ولا هَزْلٍ ولا أُنْسٍ ولا غَيْرِه. ولولا أنّ القدماء من الشعراء كَنَّتِ المُلوكَ وسَمَّتْهم في أشعارها وأجازتْ ذلك واصطلحتْ عليه، ما كان جزاءُ مَن كَنَّى مَلِكًا أو خليفةً إلا العقوبةَ. على أن ملوك آل ساسان لم يُكَنِّها أحدٌ من رعاياها قطُّ ولا سمّاها في شِعرٍ ولا خُطبةٍ ولا تقريظٍ ولا غيرِه. وإنما حدث هذا في ملوك الحِيرة(٤).

(١) صـ: أدنى.

(٢) كثير النهود أو النهوض بأمر الجيش والقيام بأعبائه

(٣) نقلها في "المحاسن والمساوى" (ص ٤٩٨).

(٤) أطنب ياقوت في وصف هذه المدينة وأحوالها وأساطيرها في الجاهلية، ولم يذكر لنا شيئا عنها في أيام عظمتها على عهد الإسلام. وإنما استفدنا منه أنها بقرب النَّجَف. ولذلك رأينا أن نثبت هنا ما جاء عنها في الأغاني (ج ٨ ص ١٢٥) ليعرف القارئ مكانتها التي دخلت الآن في خبر كان. قال:

«كان بعض ولاة الكوفة يذم الحيرة في أيام بني أُمية. فقال له رجل من أهلها، وكان عاقلا ظريفا:

ـــ أتعيب بلدة بها يُضرب المثل في الجاهلية والإسلام؟

ـــ وبما ذا تُمدَح؟ =

والدليـل علىٰ ذلك أنه لو سمّى أحدٌ من الخطباء والشعراء فى كلامه المنثور مَلِكًا

ـــ بصحة هوائها ، وطيب مائها ، ونزهة ظاهرها . تصلح للخفّ والظلف . سهل وجبل ، وبادية وبستان ، وبرّ وبحر ، محلّ الملوك ومزارهم ، ومسكنهم ومثواهم . وقد قدمْتَها ـــ أصلحك الله ـــ مُخِفًّا فرجعت مثقَلًا ، ووردتَها مُقِلًّا فأصارتك مُكثِرًا .

ـــ فكيف نعرف ماوصفتها به من الفضل؟

ـــ بأن تصير إلىّ ، ثم ادع ماشئت من لذّات العيش ، فوالله لا أجوز بك الحيرة فيه !

ـــ فٱصنع لنا صنيعا [Une partie de plaisir] ، وأخْرُجْ من قولك .

ـــ أفعـــلُ !

فصنع لهم طعاما ، وأطعمهم من خبزها وسمكها وما صِـيد من وحشها : من ظباء ونعام وأراب وحُبارَى . وسقاهم ماءَها فى قلالها ، وخمرَها فى آنيتها . وأجلسهم على رُقُمها ، وكان يُتَّخذ بها من الفراش أشـياء ظريفة . ولم يستخدم لهم حُرًّا ولا عبدًا إلّا من مولَّديها ومولَّداتها ، من خَدَم ووصائفَ كأنّهم اللؤلؤ ، لغتهم لغة أهلها . ثم غناهم حُنَيْنٌ وأصحابه فى شعر عَدِىّ بن زيد ، شاعرهم ، وأعشى هَمْدان لم يجاوزهما . وحيّاهم بر ياحينها . ونَقَّلهم علىٰ خمرها ـــ وقد شربوا ـــ بفواكهها . ثم قال :

ـــ هل رأيتَنى ٱستعنتُ علىٰ شىء مما رأيتَ وأكلتَ وشربتَ وٱفترشتَ وشممتَ وسمعتَ ، بغيرمافى الحيرة؟

ـــ لا ، والله ! ولقد أحسنتَ صفة بلدك ، ونَصَرْتَهُ فأحسنتَ نُصرتَهُ والخروجَ ممـا تضمَّنْتَه . فبارك الله لكم فى بلدكم ! »

وكان ٱبن شُبْرُمَة يقول : "يوم وليلة بالحيرة خير من دواء سنتين" . (كتاب البلدان للهمدانى ص ٢٦٢) . وعن أهلها أخذت قريش الزندقة فى الجاهلية ، والكتابةَ فى فجر الإسـلام (الأعلاق النفيسـة لٱبن رُسْتَه ص ١٩٢ و ٢١٧) .

وكانت عمارة الكوفة سببا لخراب الحيرة . وقد أتى على الكوفة الزمان ، وكذلك الأمر فى واسط وسُرَّ مَنْ رأى . وأنت عليم بمـا صارت إليـه البصرة و بغداد . وهذه الستّة هى أكبر أمصار العراق فى عهد الخلافتين . وناهيك بها من أمصار رفعت للحضارة أعلى منار ! فسـبحان من بيـده ملكوت الأرض والسماء ! يتصرف بالبـلاد والعباد كما يشاء !

أو خليفةً وهو يُخاطبه بآسمه، كان جاهلا ضعيفا خارجا من باب الأدب، ولولا أن الآصطلاح(١) منعنا إيجابَ المنع(٢) من ذلك، كان من أوّل ما يجب.

ولا أدرى لِمَ فعل القدماء ذلك، كما أنى لا أدرى لِمَ أجازته ملوكها ورضِيَتْ به، إذ كانت صفة الملوك(٣) ترتفع عن كل شئ وترقَّى عنه.

وكانت الجفاة من العرب بسوء أدبها وغِلَظ تركيبها ــ إذا أتَوُا النبي (صلّى الله عليه وسلم) ــ خاطبوه ودَعَوْه بآسمه وكُنْيَته. فأمّا أصحابه، فكانت مخاطبتهم إياه: "يارسول الله!" و"يانبيَّ الله!" (٧٠)

---

(١) صـ: "الاضطلاع" وبجانبها "الاصطلاح". وفى سـ: الاصلاح.

(٢) سبق الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموى إلى تقرير هذه القاعدة. فهو أوّل من منع الناس أن ينادوه بآسمه. (محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر). ولكن يظهر أن ذلك الأمر تراخى بتطاول العهد، فعاد القوم إلى ما كانوا عليه.

(٣) على أن أهل الأدب ورواة الأشعار كانوا يتحرّون عند إنشاد القصائد على أحد الخلفاء والأمراء، فيتخيرونها من التى لا يكون فيها آسم معشوقة يشابه آسمَ أُمٍّ له أو آبنة أو أخت أو زوجة (الأغانى ج ٥ ص ١٧٤). وفى "محاسن الملوك" (ص ٢٩) أن إبراهيم بن المهدىّ قال: كنت عند الرشيد، فأُهدِيَتْ له أطباقٌ ومعها رُقعةٌ. فلمّا قرأها، آستفزّه الطرب. فقلت: ياأمير المؤمنين، ما الذى أطربك؟ فقال: هذه هديّة عبدالملك بن صالح. ثم نبذ إلىّ الرقعة، فإذا فيها بعد البسملة: "دخلتُ، ياأمير المؤمنين، بستانًا عَمَرتُه بنعمتك، وقد أينعتْ أثماره وفاكهته. فأخذتُ من كلّ شيء (وعدّدَ أنواعا من الفاكهة) وصيّرتُه فى أطباق القُضبان ووجّهتُه لأمير المؤمنين، ليصل إلىّ من بَرَكة دعائه، ما وصل إلىّ من برِّه ونَعمائه". قلتُ: ياأمير المؤمنين، وما فى هذا يقتضى هذا السرور؟ فقال: ألا ترى إلى ظَرْفه، كيف قال: "القضبان"؟ فكنّى به عن الخيزران؛ إذ كان يجرى به آسمُ أُمِّنا.

وهكذا يجب للملوك أن يقال فى مخاطبتهم: ياخليفـة الله![1] وياأمين الله![2] وياأمير المؤمنين![3]

---

(١) لم يرض أبو بكر الصّدّيق بأن يُسمّى خليفة رسول الله (كما فى لسان العرب ج ١٠ ص ٤٣٧) فضلا عن أن يُسمّى خليفة الله . ولكن الكتّاب والشعراء جرىٰ اصطلاحهم علىٰ خلاف ذلك . قال الزجّاج: جاز أن يقال للأئمّة "خلفاء الله فى أرضه" بقوله تعالى: "يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ" (لسان العرب ج ١٠ ص ٤٣١) . وقال جرير: "خليفةَ الله ماذا تأمُرَنَّ بنا؟" وقال أيضا: "خليفةُ الله يُستسقىٰ به المطرُ" .
وقال بشّار (وإن كان من باب التهكّم):

ضاعتْ خلافتكم، ياقوم، فالتمسُوا * خليفةَ الله بين الزِّقّ والعُودِ!

وقد قال صاحب محاضرة الاوائل إن المعتصم بن الرشيد هو أوّل من تلقب بخليفة الله . فلعلّ ذلك كان بصفة رسمية فى المكاتبات الصادرة عن ديوانه . وإلّا فقد رأينا من الأشعار السابقة أن هذا اللقب كان موجودا فعلًا .

(٢) قال حسّان بن ثابت يرثى عثمان بن عفّان .

إنّى رأيتُ أمينَ الله مضطَهَدًا * عثمانَ رهنًا لدىٰ الاحداث والكفنِ .

(٣) قال فى "محاسن الملوك" بهذه المناسبة (ص ٢٥ — ٢٧) ما نصُّه:

«وإنما يُتسامح بذلك للشعراء . وما زالت الشعراء يمدَحون الملوك بأسمائهم، ولا يُنكَر ذلك عليهم . كقول الشاعر، وهو حسّان:

هَجَـوْتَ محمّدًا فأجبْتُ عنـه * وعنـد الله فى ذاك الجـزاءُ .

وكقول المرأة تخاطبه:

أمحمّدُ، وَلَدَتْكَ ضِنءُ كريمةٍ * فى قومها والفَحْلُ فحلٌ مُعْرِقُ!

رُوِىَ أنه قدم رجل من الأعراب على عُمر رضى الله عنه ومعه صِبْيةٌ له وأهلُه، فقال يخاطبه:

ياعُمَرَ الخيرِ جُزِيتَ الجنّهْ * اُكْسُ بُنيّاتى وأُمَّهُنّـهْ
أُقسم بالله لتَفعلنّهْ

فقال عُمر: يكون ماذا؟ فقال:

يكونُ عن حالى لتَسألنّهْ ==

الادب فى حالة مشابهة الاسم لإحدى صفات الملك أو لاسمه

ومن حقِّ الملك، إذا دخل عليه رجُلٌ، وكان آسمُ ذلك الرجُل الداخل أحدَ صفات المَلك، فسأله المَلك عن آسمه، أن يُكَنِّيَ عنه ويُجيبَ بآسم أبيه. كما فعل سعيدُ .

= فقال عُمر: متى؟ قال:

يومَ تكون الأُعطياتُ جُنَّهْ * والواقفُ المَسْؤولُ بينَهُنَّهْ
إمّا إلى نارٍ وإمّا جَنَّهْ .

فنبذ عمر رضى الله عنه قَميصهُ، وقال: هـذا جُنّةُ ذلك اليوم!

ورُوى أن الرشيدَ جَلَس يومًا للمَظالِم فرأى فى الناس شيخًا حَسَن الهيئة. فلمّا تقوَّض المجلس، قام الشيخ وبيده قصّته، فأمر بأخذها. فقال: إنْ رأى أمير المؤمنين أنْ يأذنَ لى فى قراءتها، فإنى أحسَنُ تعبيرًا لخطّى. قال: آقرأ! قال: ياأمير المؤمنين، إنى شيخٌ كبيرٌ ضعيفٌ، والمَقامُ عظيمٌ. فإنْ رأى أمير المؤمنين أن يأذنَ لى فى الجلوس؟ فقال: آجلس! فجلس. ثم قال:

ياخيرَ مَن جَدَّتْ لرِحْلَتِـهِ * نُجُبُ الركاب بمَهْمَهٍ جَلْسِ!

يقول فيها:

لمّا رأتْك الشمسُ طالعَـةً، * سجدتْ لوجهك طلعةُ الشَّمسِ.
خيرُ البـريّةِ أنت كلِّهِـمِ * فى يومك الغادى وفى أمسِ،
وكذاك لم تنفكَّ خيرَهمُ * تُمسى، وتُصبح فوق ما تُمسى.
لله ياهرُونُ من مَلِكٍ * عفِّ السريرة طاهرِ النّفسِ!
نَمَتْ عليـه لربِّه نِعَـمٌ * تَزْدادُ جِـدّتُها على اللُّبسِ.

(أردتُ قوله "لله ياهارون")

وبقية الشعر:

من عِتْرَةٍ طابت أُرومتُها، * أهلِ العفاف ومنتهى القُدْسِ.
مُتَهلّلينَ على أسِرَّتهـم * ولدَى الهِياج مَصاعبٍ شُمْسِ =

ابن مُرّة الكِندىّ، حين أتى مُعاوية فقال له: أنت سعيدٌ؟ فقال: أميرُ المؤمنين السعيدُ، وأنا ٱبن مُرّة![1]

وكما قال السَّيِّدُ بن أنس الأَزْدِىّ[2] ــ وقد سأله المأمون عن ٱسمه ــ فقال: أنت السيِّدُ؟ قال: أميرُ المؤمنين السَّيِّدُ، وأنا ٱبن أنَس![3]

وهكذا جاءنا الخبر عن العبَّاس بن عبد المُطَّلِب، عمّ رسول الله (صلّى الله عليه وسلم) وصِنْوِ أبيه. قيل له: أنت أكبرُ أم رسول الله؟ فقال: هو أكبر منّى، وَوُلِدْتُ أنا قبلَه![3]

= إنى لجأتُ إليك من فَزَعٍ * قد كان شَرَّدَنى من الأُنُسِ.
لمّا ٱستخرتُ الله مجتهدًا، * يمّمتُ نحوك رحلةَ العَنْسِ.
وٱحتزتُ حلمك لا أُجاوزه * حتى أُغَيَّبَ فى ثرى الرَّمْسِ.

فلما أتى على آخرها، قال: مَن يكون الشيخ؟ قال: على بن الخليل الذى يقال إنه زنديق. قال: أنت آمنٌ! وأمر له بخمسمائة ألف درهم.

وأما مَن سوى الشعراء، فليقُل: أيُّها الخليفة! أو ياأمير المؤمنين! أو ياسلطان العالَم! أو ياأمينَ الله أو ياأمير المسلمين!

قال المُغيرة لعُمر رضى الله عنهما: ياخليفة الله! فقال له عمر: ذاك نبىّ الله داود! قال: ياخليفة رسول الله! قال: ذاك صاحبكم المفقود! قال: ياخليفة خليفة رسول الله! قال: ذاك أمرٌ يطول! قال: ياعمر! قال: لا تَبْخَسْ مقامى شرفه! أنتم المؤمنون، وأنا أميركم. فقال المغيرة: ياأمير المؤمنين! »

(١) روى ذلك صاحب "محاسن الملوك" (ص ٢٨)، ورواها فى "المحاسن والأضداد" (ص ٢١) وفى "المحاسن والمساوى" (ص ٤٩٠)

(٢) أنظر المحادثة بعبارة أُخرى فى محاضرات الراغب (ج ١ ص ١١٧).

(٣) أنظر رواية أُخرى فى محاضرات الراغب (ج ١ ص ١١٧)؛ وأنظر "المحاسن والأضداد" (ص ٢١) و"المحاسن والمساوى" (ص ٤٩٠).

ألّا تراه (رحمه الله) كيف تخلّص إلىٰ أحسن الأحوال فى الأدب، فاستعمله[1]؟

(٧١) وعلىٰ هذا المثال يجب أن تكون مخاطبة الملوك، إذ كانت صيغتهم غير صيغ العامّة[2]، كما قال أردشير بن بابك فى عهده إلىٰ الملوك.

✥

الأمور التى يتفرد بها الملك فى عاصمته

ومن حقّ المَلِك أن يتفرّد فى قرار داره بثلاثة أشياء، فلا يطمَع طامعٌ فى أنْ يَشْرَكَه فيها.

---

(١) ومما يدخل فى هذا الباب ما حكاه ياقوت الحموىّ فى معجم الأدباء (ج ١ ص ١٤٩ طبع الأستاذ مرجوليوث) أن "أبا زيد البلخىّ لما دخل على أحمد بن سَهْل — أوّل دخوله عليه — سأله عن آسمه. فقال: أبو زيد. فعجب أحمد بن سَهل من ذلك حين سأله عن آسمه فأجاب عن كنيته، وعدّ ذلك من سَقَطاته. فلما خرج، ترك خاتمه فى مجلسه عنده. فأبصره أحمد بن سهل، فآزداد تعجُّبا من غفلته. فأخذه بيده ونظر فى نقش فصّه، فإذا عليه: أحمد بن سهل. فعلم حينئذ أنه إنما أجاب عن كنيته للموافقة الواقعة بينه وبين آسمه، وأنه أخذ بحسن الأدب وراعىٰ جدّ الاحتشام، وآختار وصمة آلتزام الخطإ فى الوقت والحال، على أنْ يتعاطىٰ آسم الأمير بالاستعمال والابتذال."

وروى آبن عبد ربه (ج ١ ص ٢٧٣) فى هـذا المعنىٰ أيضا أنه قيل لأبى وائل: أيكما أكبر، أنت أم الربيع بن خثيم؟ قال: أنا أكبر منه سنًّا، وهو أكبر منى عقلا.

وقال معاوية لأبى الجهم العدوىّ: أنا أكبر أم أنت؟ فقال: لقد أكلتُ فى عرس أمك، يا أمير المؤمنين. قال: عند أىّ أزواجها؟ قال: عند حفص بن المغيرة. قال: يا أبا الجهم، إياك والسلطان! فإنه يغضب غضب الصبىّ ويأخذ أخذ الأسد. (إبن عبد ربه ج ١ ص ١٢). قال الحجاج للمهلّب: أنا أطولُ أم أنت؟ فقال: الأمير أطول، وأنا أبسَطُ قامةً منه. (المحاسن والأضداد ص ٢٢، والمحاسن والمساوى ص ٤٩٠)

وكان الأولىٰ به أن يقتدىَ بطاويس المغنّى المشهور فقد سأله سعيد بن عثمان بن عفان: أينا أسنُّ؟ فقال: "بأبى وأمّى أنت! لقد شهدتُ زفاف أمّك المباركة إلى أبيك الطيّب." لئلا يُوهم أمرًا. (إبن عبد ربه ج ١ ص ٢٧٣؛ ومحاضرات الراغب ج ١ ص ١١٧). أورد الجاحظ قبل غيره هذه الحكاية وعلّق عليها تعليقا لطيفا، فقال: فآنظر الى حذقه وإلى معرفته بمخارج الكلام! كيف لم يقل "بزفاف أمّك الطيّبة إلى أبيك المبارك" (أنظر البيان والتبيين ج ١ ص ١٠٤)

(٢) ص: "كانت صنيعهم غير صنيع العامة."

فمنها الحِجَامة، والفَصْد، وشُرب الدواء. فليس لأحدٍ من الخاصّة والعامّة ممن في قصبة دار المملكة أن يشرَكه في ذلك.

وكانت ملوك الأعاجم تمنع من هـذا وتعاقب عليـه وتقول: "إذا أراق المَلك دمه، فليس لأحد أنْ يُريق دمه في ذلك اليوم حتّى يساوىَ المَلك في فعله؛ بل على الخاصة والعامّة الفحصُ عن أمر المَلك، والتشاغُلُ بطلب سلامته، وظهور عافيته، وكيف وجد عاقبة ما يُعالَجُ به."

وليس الاقتفاءبفعل الملك في هـذا وما أشبهه من فِعلِ مَنْ تَمّتْ طاعتُه وصَحّتْ نِيّتُهُ وحسُنتْ معونته، لأن في ذلك استهانةً بأمر الملك والمملكة.

ومَن قصـد إلى أن يَشرَك الملكَ في شئ يجد عنـه مندوحةً ومنـه بُدًّا، بالمُهَل المبسوطة والأيام الممدودة، فهو عاصٍ مفارقٌ للشريعة.

(٧٢) ويقال إن كسرى أنوشروان كان أكثر ما يحتجم في يوم السبت. وكان المنادى ـ إذا أصبح في كل يوم سبت ـ نادى: "ياأهل الطاعة! ليكن منكم تركُ الحجامة في هذا اليوم على ذِكْرٍ! ويا حجامون! اجعلوا هذا اليوم لنسائكم وغَسْل ثيابكم!" وكذا كان يفعل في يوم فصد العِرق وأخذ الدواء.

***

عدم تشميت الملك وعدم التأمين على دعائه

ومن حقّ الملك ـ إذا عَطَس ـ أنْ لايُشَمَّت؛ وإذا دعا، لم يُؤَمَّنْ على دُعائه. وكانت ملوك الأعاجم تقول: "حقيقٌ على المَلك الصالح أن يدعو للرعيّة الصالحة، وليس بحقيقٍ للرعيّة الصالحة أن تدعُوَ للملك الصالح: لأن أقربَ الدعاء إلى الله دعاءُ المَلك الصالح."

***

عدم تعزية الملك

ومن حقّ الملك أن لا يُعَزِّيه أحدٌ من حاشيته وحامّته وأهل بيته وقرابته؛ وإنما جُعلت التعزيَة لمن غاب عن المصيبة، أو لمن قارَبَ المَلِك في العزّ والسلطان والبهاء والقدرة[1]. فأما مَن دون هؤلاء، فيُنْهَوْن عن التعزيَة أشدّ النَّهي.

(٧٣)

وفيما يُذكَرُ عن عبد الملك بن مَرْوَانَ أنه مات بعض بنيه وهو صغير، فجاءه الوليد فعزّاه، فقال: يا بُنَيَّ! مصيبتي فيك أقدح في بدني من مصيبتي بأخيك! ومتى رأيتَ ابنًا عزّى أباه؟ قال: يا أمير المؤمنين! أمّي أمَرَتْني بذلك. قال: ذاك يا بُنَيَّ أهونُ عليَّ! وهذا لَعَمْرِي من مَشُورَة النساء![2]

***

سرعة الغضب وبطء الرضا

ومن أخلا[ق الملـ]ـك سرعة الغضب، وليس من أخلاقه سرعة الرضا.

فأما سرعة الغضب، فإنما تأتى الملك من جهة دوام الطاعة. وذلك لأنه لايدور في سمعه مايكره في طُولِ عمره. فاذا أَلِفَتِ النفسُ هذا العزّ الدائم، صار أحدَ صفاتها. فمتى قرع حِسَّ النفس ما لا تعرفه في خُلُقها، نَفَرَتْ منه نُفورا سريعا، فظهر الغضب، أَنَفَةً وحَمِيَّةً.

وأما رضا الملك فبطيءٌ جدّا. لأنه شيءٌ تُمانعه النفس أَنْ يفعله، وتدفَعُهُ عن نفسها. إذ كان في ذلك جنسٌ من أجناس الاستخذاء، وخُلُقٌ من أخلاق العامّة.

---

(١) صـ : والقرابة.

(٢) روى صاحب "المحاسن والمساوى" هذه القصة (ص ٥٨٥ — ٥٨٦) ورواها صاحب "محاسن الملوك" (ص ٣٤) وختمها بأن عبد الملك قال لأبنه: "والله لَتَعزيتُك إيّاى أهون عليّ من قبولك مَشُورة النساء!" [وهي أحسن من روايتنا.] ثم أضاف على ذلك أن "يزيد بن معاوية وعمر بن عبدالعزيز وغيرهما من ملوك الإسلام لا يرون بذلك بأسا."

غضب السفاح على أحد رجاله

وهكذا يُحكى عن أبى العباس أنه غَضِبَ على رجُل ذهب عنّى آسمه، فذكره ليلةً من الليالى. فقال له بعض سُمّاره: ياأمير المؤمنين! فلانٌ لو رآه أعدىٰ خَلْق الله له، لرحمه وآنعصر له قلبــه(١). قال: ولِمَ ذاك؟ قال: لغضب أمير المؤمنين عليه. (٧٤) قال: ماله من الذَّنْب مايبلغ به من العقوبة هذا الموضع. قال: فَمُنَّ عليه، يا أمير المؤمنين، برضاك. قال: ماهــذا وقت ذاك! قال: قلتُ إنك ياأمير المؤمنين لما صغَّرتَ ذنبه، طمِعتُ فى رضاك عنه. قال: إنه مَن لم يكن بين غضبه ورضاه مدّة طويلة، لم يَحْسُن أن يغضب ولا يرضىٰ.

وعلىٰ هذا أخلاقُ الملوك وصنيعُهم.

غضب الرشيد على أحد قواده

وكذا جرىٰ لعبد الله بن مالك الخُزاعىّ(٢) مع الرشيد، حين غضب عليه. أمَرَ أهله وحَشَــمَه وجميعَ قرابته أن يجتنبوا كلامه وخدمته ومعاطاته حتّى أثّر ذلك فى نفسه وبدنه. فتحاماه أقرب الناس منه من ولد وأهــل، فلم يَدْنُ منــه أحدٌ ولم يَعْطِف به. فجاءه محمد بن إبراهيم الهاشمىّ ــ وهو كان أحد أوِدّائه ــ فى جوف الليل، فقال له: يا أبا العبّاس! إنّ لك عندى يدًا لا أنساها ومعروفا ما أكفُرُه. وقد علمتُ ماتقدّم به أميرالمؤمنين فى أمرك. وها أنا ذا بين يديْك ونُصْب(٣) عينيْك! فَمُرْنى بأمرك! فو الله

(١) يقال فى اللغة عَصَرَ العنب ونحوه فآنعصر. وفى المفضليات:

وَهْيَ لَو يُعْصَــرُ مِنْ أَرْدَانِهــا * عَبَقُ المِسْكِ، لَكَانَتْ تَنْعَصِرْ.

ومن شواهد النحاة:

خَوْدٌ يُغَطِّى الفَرْعُ منهــا المُؤْتَزَرْ * لَوْ عُصْرَ منها البَانُ والمِسْكُ، آنْعَصَرْ.

وكنّى الجاحظ بآنعصار القلب عن شــدّة الألم لحال الرجل. ومن مجاز الأساس: "أنا معصور اللسان" أى يابسه عطشا.

(٢) [أنظر الحاشية رقم ١ من صفحة ٨١ من هذا الكتاب].

(٣) أكثر العرب على ضم النون، كما فى شفاء الغليل.

(٧٥) لأجعلن نفسي وِقايةَ نفسِك، أو أسُوقَها في كلّ ما نكأها[1] أو جرّحها[2]. فقال له عبد الله خيرا، وأثنى عليه، وأخبره بعذره في مَوْجِدة أمير المؤمنين عليه. فوعده محمدٌ أن يكلّم أمير المؤمنين ويخبره بأعتذاره. فلما أصبح محمدٌ وافاه رسول أمير المؤمنين، فركب. فلما دخل عليه، قال: مَن أتيتَ في هذه الليلة؟ قال: عبدَك يا أمير المؤمنين، عبدَ الله بن مالك، وهو يحلف بطلاق نسائه وعِتق مماليكه وصَدَقة ماله مع عشرين نَذْرًا يُهديها إلى بيت الله الحرام حافيًا راجلًا، والبراءة من ولاية أمير المؤمنين إن كان ما بلغ أمير المؤمنين سمِعَه اللهُ من عبد الله بن مالك، أو اطّلع عليه أو همّ به أو أضمره أو أظهره. قال: فأطرق الرشيد مَليًّا مُفكّرًا. وجعل محمدٌ يلحظه، ووجهه يُسفِرُ ويُشرِق حتّى زال ما وجده. وكان قد حال لونُه حين دخل عليه. ثم رفع رأسه فقال: أحسَبُه صادقا، يا محمّد. فَمُرْهُ بالرَّواح إلى الباب. قال: وأكون معه يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم. فانصرف محمدٌ إلى عبد الله، فبشّره بجميل أمره، وأمره بالركوب رواحًا. (٧٦) فدخلا جميعا. فلما بَصُر عبد الله بالرشيد انحرف نحو القِبلة فخرّ ساجدا، ثم رفع رأسه. فاستدناه الرشيد. فدنا وعيناه تهملان. فأكبّ عليه فقبّل رِجله وبِساطه وموطِئ قدميه، ثم طلب أن يأذن له في الاعتذار. فقال: مابك حاجةٌ إلى أن تعتذر، إذ عرَفتُ عُذرَك. قال: فكان عبد الله بعدُ، إذا دخل على الرشيد، رأى فيه بعض الإعراض والانقباض. فشكا ذلك إلى محمد بن إبراهيم. فقال محمدٌ: يا أمير المؤمنين! إن عبد الله يشكو أثرًا باقيًا من تلك النَّبْوَة التي كانت من أمير المؤمنين، ويسأل الزيادة

---

(١) أوجب وقوع النكاية بها.

(٢) أصابها بجراحة.

فى بَسطه له. فقال الرشيد: يامحمد! إنا معشر الملوك، إذا غضبنا على أحد من بِطانتنا ثم رضينا عنه بعد ذلك، بقِىَ لتلك الغَضْبة أثرٌ لايُخرجه ليلٌ ولا نهار(١).

* * *

كتم الملك أسراره

ومن حقّ المَلك أن يكتُمَ أسراره عن الأبِ والأُمِّ والأخِ والزوجة والصّديق.

فإنّ المَلك يَحتمِل كلّ منقوص(٢) ومأنوف، ولا يحتمل ثلاثةً: صفة أحدهم أنْ يطعن فى مُلكه، وصفة الآخر أن يُذيع أسراره، وصفة الآخر أن يخُونه فى حُرَمه(٣).

فأما من وراء ذلك، فمن أخلاق الملوك أن تَلبَس خاصّتَها ومَن قربَ منها على مافيهم، وأن تستمع منهم إذا سَلمُوا من هذه الصفات الثلاث.

وكان كسرى أبرويز يقول: "يجب على الملك السعيد أن يجعل همّهُ كلّهُ فى آمتحان أهل هذه الصفات، إذ كانت أركانَ الملك ودعائمَهُ(٤)".

امتحان أبرويز رجاله فى حفظ السر

فكانت محِنَتُه فى إذاعة السرّ عجيبةً. وللقائل أن يقول فيها إنها خارجة من باب العدل، داخلة فى باب الظلم والجَوْر؛ وللآخر أن يقول إنها مِحَنُ الحكماء من الملوك.

وكان إذا عرف من رجُلين من بطانته وخاصّته التحابَّ والألفة والآتفاق فى كلّ شئ وعلى كلّ شئ، خلا بأحدهما فأفضى إليه بسرّ فى الآخر، وأعلَمَه أنه عازمٌ على قتله، وأمَرَه بكتمان ذلك عن نفسه، فضلا عن غيره. وتقدّم إليه فى ذلك بوعيده.

---

(١) نقل هذه القصة فى "المحاسن والمساوى" (ص ٥٤٢ — ٥٤٣).

(٢) أى الرجل المكروه. وهذه الكلمة ساقطة فى صر.

(٣) قارن ذلك بما فى محاضرات الراغب. (ج ١ ص ١١٨). وهذه المقولة منسوبةٌ بلفظ آخر لابى جعفر المنصور العباسى. (أنظرها فى المحاسن والأضداد ص ٢٨، والمحاسن والمساوى ص ٤٠٢).

(٤) فى "محاسن الملوك" (ص ٥٤) مانصه: وأما كتمان سرّ السلطان فهو مِلاك الأمر ونظام المملكة وسبب بقاء الدولة. كان أبرويز إذا دخل إليه وزيرهُ وصاحب سرّه، لم يفاوضه فى شيء حتّى لايبقى عنده أحدٌ. فاذا لم يبقَ أحدٌ، أمر أنْ تُرفع الستائر عمن لعلّه يكون وراءها. فإذا علم أنه ليس أحدٌ وراءها، فاوضه بسرّه.

ثم جعل مِحنته فى إذاعة سرِّه ملاحظة صديقه فى دخوله عليه وخروجه من عنده، وفى إسفار وجهه ولقائه للملك. فإن وجد آخرَ أمرِه كأوّله فى أحواله، علم أن الآخَر لم يُفضِ إليه بسرِّه ولم يُظهِره عليه، فقرّبه واجتباه ورفع مرتبته وحباه، ثم خلا به، فقال: "إنى كنتُ أردتُ قتلَ فلان لشيءٍ بلغنى عنه. فبحثتُ عن أمره فوجدته باطلًا."(١) (٧٨)

وإنْ رأى من صاحبه نفور نفس وازورارَ جانبٍ وإعراضَ وجهٍ، علم أنه قد أذاع سرَّه، فأقصاه واطّرحه وجفاه، وأخبر صاحبه أنه أراد مِحنته بما أودعه من سرِّه. فإن كان هذا من أهل المراتب، وضع مرتبته؛ وإن كان من الندماء، أمر أن يُحجَب عنه؛ وإن كان من أصحاب الأعمال، أمر أن [لا] يُستعان به؛ وإن كان من سَدَنَة بيوت النيران، أمر بعزله وإسقاط أرزاقه. ويقول: "مَن لم يصلُحْ لمَلِكه، لا يصلُحُ لنفسه؛ ومَن لم يصلُحْ لنفسه، فلا خيرَ عنده." ويقول: "إنّ القلب أعدل على القلب شهادةً من اللسان؛ وقلّ شيءٌ يكون فى القلب إلا ظهر فى العينين(٢): إذ كانت الأعضاء مشتركة يتعلّق بعضُها ببعض."

فأما مِحنته فى الحُرَم، فكان إذا خفّ الرجُل على قلبه وقرُب من نفسه، وكان عالمًا يُظهِر التألُّه، وكان عنده ممن يصلح للأمانة فى الدماء والفروج والأموال على ظاهره، أحبَّ أن يمتحنه بمِحنةٍ باطنة. فيأمُرُ به أن يُحوَّل إلى قصره ويُفرَّغ له بعضُ الحُجَر التى تقرب منه، ولا يُحوَّل إليها امرأةٌ ولا جاريةٌ ولا حُرْمة ويقول له: "إنى أُحبُّ الأُنس بك فى ليلى ونهارى. ومتى كان معك بعض حُرَمك، قطعك عنّى وقطعنى عنك.

امتحانه لرجاله فى حفظ الحرم (٧٩)

(١) روى صاحب "محاسن الملوك" هذه العبارة باختصار. (ص ٥٤ — ٥٥)

(٢) س : إن القلب ليظهر ما فيه فى العينين.

فآجعلْ مُنْصَرَفَك إلىٰ منزل نسائك فى كلِّ خمْسِ ليالٍ ليلةً." فإذا تحوّل الرجُل وخلا به وآنسه وكان آخِرَ مَن ينصرف من عنده، فيتركه علىٰ هذه الحال أشهرًا.

فآمتحن رجُلا من خاصّته بهذه المحنة فى الحُرَم، ثم دسّ إليه جارية من خواصّ جواريه ووجّه معها إليه بالطاف وهدايا. وأمرها أنْ لاتقعد عنده فى أوّل ماتأْتيه. فلما أتته بألطافِ الملك، قامتْ. فلم تَلْبَثْ أنِ آنصرفتْ. حتّى إذا كانت المرّةُ الثانية، أمرها أن تقعُد هُنَيْهــةً. وأنْ تُبْدِىَ بعض محاسنها، حتّى يتأمّلَها. ففعلتْ ولاحظها الرجُل وتأمّلها ثم آنصرفت. فلما كانت المرة الثالثــة، أمرهـا أن تقعد عنده وتطيل (٨٠) القعود وتحادثه، وإن أرادها علىٰ الزيادة من المحادثة أجابته. ففعلتْ. وجعل الرجُل يُحِدُّ النظر إليها ويُسَرُّ بحديثها. ومن شأْن النفس أن تطلُبَ بعــد ذلك الغرضَ من هــذه المطايبة. فلما أبدىٰ ماعنده، قالت: "إنى أخاف أن يُعْثَر علينا، ولكن دعنى أُدَبِّرُ فى هذا مايَتِمُّ به أَمْرُنا." ثم آنصرفت. فأخبرتِ المَلك بكلِّ مادار بينهما. فوجّه أُخرىٰ من خاصّ جواريه وثقاتهن بألطافه وهداياه. فلما جاءته، قال لهــا: ما فعلتْ فلانة؟ قالت: آعتلَّتْ. فآرْبَدَّ لون الرجُل[1]. ثم لم تُطِل القعود عنده كما فعلت الأُولىٰ فى المرّة الأُولىٰ. ثمّ عاودته بعد ذلك، فقعدت أكثر من المقدار الأوّل، وأبدت بعض محاسنها حتّى تأملها. وعاودته فى المرّة الثــالثة، فأطالت عنــده القعود والمضاحكة والمهازلة. فدعاها إلىٰ ما فى تركيب النفس من الشهْوَة. فقالت: "إنّا من الملك علىٰ خُطًى يســيرة، ومعه فى دار واحدة؛ ولكنّ المَلك يمضى بعــد ثلاثٍ إلىٰ بستانه الذى (٨١) بموضع كذا، فيقيم هنالك. فإن أرادك علىٰ الذهاب معه، فأظهِرْ أنك عليلٌ، وتمارضْ. فإن

(١) أى علَتِ الغُبرةُ لونَهُ.

خيّرك بين الآنصراف إلىٰ دور نسائك أو المُقام هٰهنا إلىٰ رجوعه، فآختَرِ المُقام وأخبِرْهُ أنّ الحركة تصعُب عليك. فاذا أجابك إلىٰ ذلك، جئتُ فى أوّل الليل ولبثتُ عندك إلىٰ آخره.» فسَكَنَ الرقيع(١) إلىٰ هذه الأُنْسَة، وآنصرفتِ الجارية إلىٰ الملك فأخبرَتْه بكلّ مادار بينها و بينه. فلما كان الوقت الذى وعدتْه أن يخرج المَلك فيه، دعاه المَلك. فقال للرسول: أَخْبِرْهُ أَنّى عليلٌ. فلما جاءه الرسول وأخبَرَهُ، تبسّم أبرويز، وقال: هذا أوّل الشرّ. فوجّه إليه بِمِحَفّةٍ، فَحُمِل فيها حتّى أتاه، وهو مُعَصَّبُ الرأس. فلما بَصُرَ به من بعيد، قال: والعِصَابةُ الشرُّ الثانى. وتبسّمَ. فلما دنا من الملك، سجد. فقال له أبرويز: متى حَدَثَتْ بك هذه العلّة؟ قال: فى هذه الليلة. قال: فأىُّ الأمرَيْن أحبُّ إليك؟ ألاِنصرافُ إلىٰ منزلك ونسائك يُمرّضْنَك أو المُقام هٰهنا إلىٰ وقت رجوعى؟ قال: هٰهنا أيها الملك أرْفَقُ بى، لقلة الحركة. فتبسّم أبرويز، وقال: ما صدقتَ! حركَتُك هٰهنا، إنْ خلّفتُك، أكثر من حركتك فى منزلك. (٨٢)

ثم أمر أن تُخْرَجَ له عصا الزُّناة التى كان يُوسَمُ بها مَن زَنىٰ. فأيقن الرجُل بالشرّ. وأمر أن يُكتب ما كان من أمره حرفًا حرفًا، فيُقرأ على النـاس إذا حضروا، وأنْ يُنفىٰ إلىٰ أقصىٰ حدّ المملكة، ويُجعـل العصا فى رأس رُمْحٍ تكون معه حيث كان، ليَحْذَرَ منـه مَن لا يعرفه. فلمـا أُخرِج بالرجُل عن المداين، مُتَوَجّهًا به نحو فارِسَ أخذ مُـدْيَةً كانت مع بعض الأعوان الذين وُكِّلُوا به، بجَبَّ بهـا ذكره، وقال: مَن أطاع عُضوًا من أعضائه صـغيرًا، أفسد عليه أعضاءه كلها، صـغارَها وكبارَها. فمـات من ساعته(٢).

---

(١) الرقيع والمرقعان الأحمق وهو الذى فى عقله مَرَمَّةٌ (صحاح) [حاشية فى صـ]. والمرمة معناها هنا الآحتياج إلى الترقيع والترميم. (أنظر لسان العرب ج ٩ ص ٤٩١)

(٢) روىٰ هذه القصة فى «المحاسن والأضداد» (ص ٢٧٥ — ٢٧٧)

امتحانه فيمن يطعن فى المملكة

وكان قد نَصَبَ رجُلا يمتحن به مَن فَسَدَتْ نيّته وطَعَن فى المملكة. فكان الرجُل يُظهر التَّألّه والدعاء إلىٰ التخلّى من الدنيا والرغبة فى الآخرة وترك أبواب الملوك. وكان يَقُصّ علىٰ الناس ويُبكيهم ويشوبُ فى خلال ذلك كلامَه بالتعريض بذمّ المَلك وتركه شرائعَ ملّته وسُنن دينه ونواميس آبائه. وكان هذا الرجُل الذى نصبه لهذا أخاه من الرضاعة وتِرْبَه فى الصِّبا. فكان إذا تكلّم هذا الرجُل بهذا الذى قد مثّله له أبرويز وأمره به ليمتحن بذلك خاصّته، أُخْبِرَ به. فيضحك لذلك أبرويز، ويقول: «فلانٌ فى عقله ضَعْفٌ، وأنا أعلم به. وإن كان كذلك فإنه لا يقصدنى بسوءٍ، ولا المملكةَ بما يُوهِنُها». فيُظهر الاستهانة بأمره والثقة من الطُّمَأنينة إليه. ثم يوجّه إليه فى خلال ذلك مَن يدعوه إليه، فيأبىٰ أن يُجيبه، ويقول: لا ينبغى لمن يخاف الله أن يخاف أحدًا سواه. فكان الطاعن علىٰ الملك والمملكة يُكثِرُ الخَلْوة بهذا الرجُل فى الزيارة له والأُنس به. فإذا خَلَوا، تذاكروا أمر الملك، وابتدأ الناسكُ يطعَنُ علىٰ المَلك وفى صُلْب المملكة. فأعانه الخائنُ وطابقهُ علىٰ ذلك وشايَعهُ عليه، فيقول له الناسك: «إياك أن تُظهر هذا الجبّار[1] علىٰ كلامك! فإنه لا يحتمل لك ما يحتمِله لى. فحَصِّنْ منه دَمَكَ!» فيزداد الآخر إليه استنامةً وبه ثقةً. فإذا علم الناسك أنه قد بلغ من الطعن علىٰ الملك ما يستوجب به القتل فى الشريعة، قال له: إنى عاقدٌ غدًا مجلسا للناس أقُصُّ عليهم، فاحْضُرْهُ! فإنك رجُلٌ رقيقُ القلبِ عند الذكر، حَسَنُ النيةِ، ساكنُ الريح، بعيدُ الصوت. وإن الناس إذا رأوك قد حَضَرْتَ مجلسى، زادتْ نيّاتهم خيرًا، وسارعوا إلىٰ استجابتى. فيقول له الرجُل: إنى أخاف هذا الجبّار، فلا تذكُرْه إن حضرتُ مجلسَك.

(١) صـ : الخائن.

وكانت العلامة فيما بينه وبين أبرويز أن ينصرف الرجُل عن مجلس الناسك، إذا ٱبتدأ فى قصّة الملك. وكان أبرويز قد وضع عُيونا تحضر مجلس الناسك، متىٰ جلس. فبكّر الناسكُ وقصّ علىٰ العامّة وزهّد فى الدنيا ورغّب فى الآخرة. وحضَرَه الرجُل الخائن. فلما فرغ من قصَصِه وأخذ فى ذكر الملك، نهضَ الرجُل وجاءت عيون أبرويز فأخبرته بما كان. فإذ زال عنه الشكُّ فى أمره، وجّهه إلىٰ بعض البُلدان وكتب إلىٰ عامله: "قد وجهتُ اليك رجُلا وهو قادمٌ عليك بعد كتابى هذا فى كذا وكذا. فأظهِرْ برّهُ والأُنْسَ به والثقةَ بناحيته. فإذا آطمأنّتْ به الدار، فٱقتُلْهُ قِتلةً تُحيي بها بيتَ النار، وتصلُ بها حُرمة النُّوبَهار[1]. فإنه مَن فَسَدَتْ نيّتُه لغير علّةٍ فى الخاصّة والعامّة، لم يُصْلِح بعلّةٍ[2]."

٨٥

✣

تغافل الملك الصغائر

ومن أخلاق المَلك التغافل عمّا لا يقدَحُ فى المُلك ولا يُحرِجُ[3] المال ولا يَضَع من العِزّ، ويزيد فى الأُبّهة.

وعلىٰ ذلك كانت شِيَمُ ملوك آل ساسان.

---

(١) هو بيت من بيوت النار: Pyrée. بناه الفُرس بمدينة بلخ على مثال البيت الحرام بمكة. وعنه شرح واف فى ياقوت (فى حرف النون) وفى المسعودى (جزء ٤ ص ٤٧ — ٤٩ طبع باريس) وفى "مراصد الأطلاع" (فى حرف النون) وفى القزوينى (ص ٢٢١) وفى "كتاب البلدان" للهمدانى (ص ١٥٧ و ٣٢٢ — ٣٢٤) "وشفاء الغليل" (ص ٢٠٣). وأنظر Dictionnaire géographique de la Perse, par Barbier de Meynard, p.p. 122,569.

(٢) صر: "لغير علة صلحت بخلافها". وقد أورد هذه الحكاية صاحب "تنبيه الملوك" (ص ٤١ — ٤٢)، ولخصها جدّا صاحب "محاسن الملوك" (ص ٤٥)؛ وأوردها بالحرف تقريبا فى "المحاسن والمساوى" (ص ١٥٥ — ١٥٧).

(٣) صر: فى القلب ولا يخرج.

تغافل بهرام جور عن سرقة اللجام

وفيما يُحكى عن بَهْرامَجور أنه خرج يوما لطلب الصَّيْد فعار(١) به فرسه حتّى وقع إلى راعٍ تحت شجرة، وهو حاقِنٌ(٢). فقال للراعى: إحفظ علَيَّ عِنَانَ دابّتى، حتّى أبول. فأخذ بركابه حتّى نزل، وأمسك عنانَ الفَرَس. وكان لجامه مُلَبَّسًا ذَهَبًا، فوجد الراعى غَفلةً من بَهْرامَ فأخرج من خُفِّه سِكِّينًا(٣) فقطع بعض أطراف اللجام. فرفع بَهْرَامُ رأسه فنظر إليه فآستحيا، ورمى بطرفه إلى الأرض وأطال الآستبراء ليأخذ الراعى حاجته من اللجام. وجعل الراعى يفرح بإبطائه عنه، حتّى إذا ظنّ أنه قد أخذ حاجته من اللجام، قام فقال: ياراعى! قَدِّمْ إلىَّ فَرَسى، فإنه قد دخل فى عَيْنَيَّ مما فى هذه الريح، فما أقدر على فتحهما. وغمض عينيه لئلّا يُوهِمَه(٤) أنه يتفقّد حلية اللجام. فقرّب الراعى فَرَسه فركبه. فلما ولّى، قال له الراعى: أيها العظيم! كيف آخذ إلى موضع كذا وكذا؟ (الموضع بعيد). قال بَهْرَامُ: وماسؤالك عن هذا الموضع؟ قال: هنالك منزلى، وما وطئتُ هذه الناحيةَ قطُّ غيرَ يومى هذا، ولا أُرانى أعود إليه ثانيةً. فضحك بَهرام، وفَطن لما أراد. فقال: أنا رجُلٌ مسافرٌ، وأنا أحقُّ بأنْ لا أعودَ إلى هاهُنا أبدا. ثم مضى. فلما نزل عن فرسه قال لصاحب دوابّه ومراكبه: إنّ معاليق اللجام قد وَهَبْتُها لسائلٍ مرّ بى، فلا تَتَّهِمَنَّ(٥) بها أحدًا.

(٨٦)

---

(١) عَارَ الفرس أى ذهب هاهنا وهاهنا، وذهب على وجهه كأنه مُنْفَلِتٌ. وفى س. نعارته فرسه، [وفى هامشه: صح: عاره يعوره ويعيره أى أخذه وذهب به]. وأنت ترى أن رواية س عارية عن الصواب، وأن حاشيته فى الهامش لامحلّ لها فى هذا المقام.

(٢) أى آجتمع البول فيه، فهو فى حاجة شديدة إلى تصريفه. ومنه الحديث: «لارأْى لحاقب ولا لحاقن» أى لمن تشتد به الحاجة للإخراج من أحد السبيلين، ويكون مضطرا لحبسهما.

(٣) [أُنظر حاشية ١ صفحة ١٢٣ من هذا الكتاب]

(٤) س: عليه.

(٥) روى هذه الحكاية بحرفها فى "المحاسن والمساوى" (ص ٥٠٥ — ٥٠٦).

تغافل أنوشروان عن سرقة الجام

وهكذا يُحكى عن أنوشِروانَ أنه قعد ذات يومٍ فى نيروزٍ أو مَهْرَجانٍ (١)، ووُضِعتْ الموائد، ودخل وجوه النـاس الإيوانَ علىٰ طبقاتهم ومراتبهم. وقام المُوَكَّلون بالموائد علىٰ رؤوس النـاس، وكِسْرىٰ بحيثُ يراهم. فلما فرغ الناس من الطعام، جاؤوا بالشراب فى آنيةِ الفضة وجاماتِ الذهب. فشرب الأساورة وأهـل الطبقة العالية فى آنية الذهب. فلما آنصرف الناس ورُفِعتِ الموائد، أخذ بعض القوم جامَ ذهبٍ فأخفاه فى قَبَائه (٢)، وأنوشروانُ يَلْحَظُهُ. فصرف وجهَه عنه. وآفتقد صاحبُ الشرابِ الجامَ، فصاح: لايَخْرُجَنَّ أحدٌ من الدار حتىٰ يُفَتَّش. فقال كسرىٰ: لاتتعرّضْ لأحدٍ! وأْذَنْ للناس فآنصرفوا. فقال صاحب الشراب: أيها المَلِك! إنّاقد فقدنا بعض آنيـة الذهب. فقال الملك: صَـدَقْتَ! قد أخذها مَن لا يردُّها عليك، وقد رآه مَن لا يَنِمّ عليـه. فآنصرف الرجُل بآلجام (٣). [٨٧]

تغافل معاوية عن كيس الدنانير

وهكذا فعل معاويه بن أبى سُفْيان فى يومِ عيدٍ، وقد قعد للناس، ووُضِعت الموائد، وبِدُر (٤) الدراهم والدنانير للجوائز والصِّلات. فجاء رجلٌ من الجماعة، والناسُ يأكلون، فقعد علىٰ كيس فيه دنانير. فصاح به الخَدَمُ: تَنَحَّ، فليس هذا بموضعٍ لك! فسمع معاوية،

(١) هذه الكلمة بفتح الميم وبكسرها، والفتح أشهر، كما يدلُّ عليه المعجم الفارسى الإنكليزى لرتشاردصُن. وضبطها ياقوت بالكسر (ج ٤ ص ٦٦٨) واخترنا الفتح لجريانه على ألسنة المصريين.

(٢) أُنظر الفصل الطويل المفيد المشحون بالأسانيد الذى أورده العلامة دوزى الهولندىّ على هـذه الكلمة فى معجم الثياب عنـد العرب (ص ٣٥٢ ــ ٣٦٤) وقد قال فى آخره إن الهولنديين أخذوا هذا اللفظ عن (قباى) فى اللسان الفارسى فنقلوه إلى لغتهم وقالوا (Kabnai) للدلالة على الثوب الذى يسميه الفرنسيون Robe de chambre.

(٣) رواها بأختصار يسير جدًا صاحب "المحاسن والمساوى" (ص ٥٠٦).

(٤) [راجع الحاشية رقم ١ ص ٣٧]. وفى صــ : وبذر.

فقال: دَعُوا الرُّجلَ يقعدُ حيث آنتهىٰ به المجلس. فأخذ كيسا فوضعه بين بطنه وحُجْزة(١) سراويله، وقام. فلم يجسُر أحدٌ أن يدنُوَ منــه. فقال الخادم: أصلحَ اللهُ أميرَ المؤمنين! إنّه قد نقص من المــال كِيسُ دنانيرَ. فقال: أناصاحبُــه، وهومحسوبٌ لك(٢).

(٨٨) وهذه أخلاق الملوك معروفةٌ فى سِيَرِهِم وكتبهم.

و إنما يَتَفَقَّدُ مثلَ هذا مَن هو دون الملك. فأمّا المَلك، فيجلُّ عن كلِّ شئٍ و يصغُر عنده كلُّ شئٍ.

الرّدّ على قولهم: المغبون لا محمود ولا مأجور

والعــامّة تضع هــذا وما أشبهه فى غير موضــعه. و إنمــا هو شئ ألقاه الشيطان فى قلوبهم وأجراه علىٰ ألْسِنَتِهِمْ، حتّىٰ قالوا فى نحوٍ من هذا فى البائع والمشترى: "المغبونُ لا محمودٌ ولا مأجورٌ". فحمَلوا الجَهلَة علىٰ المنازعة للباعة، والمشاتمة للسَّفَلَة والسُّوقة، والمقاذفة للرعاع والوُضَعاء(٣)، والنظر فى قيمةِ حَبَّةٍ، والاطّلاع فى لسان الميزان، وأخذ المعأيير(٤) بالأيدى.

و بِالْحَرَى أن يكون المغبون محمودًا ومأجورًا. اللهــمّ إلّا أن يكون قال له: اِغْبِنِّى. بل لو قالها، كانت أُكرومةً(٥) وفضيلة، وفَعْلَة جميلة تدلُّ علىٰ كرمِ عُنصرِ القائل وطِيبِ مُرَكَّبِه.

---

(١) موضع التِّكّة من السراويل.

(٢) رواها بأختصار صاحب "المحاسن والمساوى" (ص ٥٠٦)

(٣) صــ: "والمفارقة للزعازع والوضعاء".

(٤) جمع معيار.

(٥) ســ: "مكرمة". [وهما بمعنى واحد].

ولذلك قالت العرب: "السَّرْوُ التغافُلُ!"(١)

وأنت لا تجد أبدًا أحدًا يتغافل عن ماله إذا خرج، وعن مبايعته إذا غُبِنَ(٢)، وعن التقصّي إذا بُخِس، إلّا وجدتَ له فى قلبك فضيلةً وجلالةً ماتقدر علىٰ دفعها.

وكذا أدّبنا نبينا (صلى الله عليه وسلم) فقال: "يَرْحَمُ الله سَهْلَ الشراء، سَهْلَ البيع، سَهْلَ القضاء، سَهْلَ التقاضى!"(٣) ٨٩

وهذا الأدب خارجٌ من قولهم: "المغبونُ لامحمودٌ ولا مأجورٌ."

كلمة معاوية

وقال معاوية فى نحوٍ من هذا: "إنّى لأجُرُّ ذيلى علىٰ الخدائع."

كلمة الحسن

وقال الحسن (عليه السلام): "المؤمن لايكون مكّاسًا."

سليمان بن عبدالملك والأعرابى الذى أخذ رداءه

وفيما يُحكَىٰ عن سليمان بن عبد الملك أنه خرج فى حياة أبيه لِمُتَنَزَّهِه(٤)، فبُسِطَ له فى صحراء، فتغدّى مع أصحابه. فلما حان انصرافه، تشاغل غلمانه بالتَّرحال، وجاءَ أعرابىٌّ فوجد منهم غَفْلَةً، فأخذ دُوّاجَ(٥) سليمان فرمىٰ به علىٰ عاتقه، وسليمانُ ينظر

---

(١) فى ص: "السرو التغافل". [وانظر الحاشية ٥ من صفحة ٥٧ من هذا الكتاب]. ومن المأثور عن السفاح قوله: "التغافل من سجايا الكرام". (شذرات الذهب ج ١ ص ٢١٥).

ولشاعرهم:

ليس الغبيُّ بسيِّدٍ فى قومه ✽ لكنّ سيِّدَ قومه المتغابى.

(٢) فى الأصل: ولا عن.

(٣) ص: "رحم الله من سَهُل الشراء وسهل البيع". والذى رأيتُه فى صحيح البخارى: "رحم الله رجلا سمحا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى". (ج ٣ ص ٥٧، طبع بولاق سنة ١٣١١)

(٤) ص: لمتزهه.

(٥) الدُّوّاج هو اللحاف الذى يُلبَس. ولعله شبيه بالملحفة المسماة الآن بالمُضَرَّبِيَّة. وانظر ماكتبه عليه دوزى فى قاموس الثياب (ص ١٨٦) وليس فيه تفصيلٌ يَشرح المعنى. قال فى مطالع البدور: عُهِد لأمّ المعتزّ ثلاثة دواويج كانت تستعملهن، تقوَّم الدُّوّاج بأكثر من ألف دينار (ج ١ ص ٦٠).

إليه، فبصربه بعض حشمه، فصاح به: أَلْقِ ماعليك! فقال الأعرابى: "لا لعَمْرى! لا أُلقيه ولا كرامةَ! هــذا كُسْوَة الأمير وخِلْعته". فضحك سليمان وقال: صــدق أنا كَسَوْتُه. فمرّ كأنّه إعصارُ الريح.

جعفر بن سليمان وسارق الدرّة

(٩٠)

وأحسنُ من هــذا مافعله جعفر بن سليمان بن علىّ بالأمس، وقد عُثِرَ برجل سرق دُرّةً رائعة، أخذها من بين يديه. فطُلبتْ بعد أيامٍ فلم توجد. فباعها الرجل ببغداد، وقد كانت وُصِفتْ لأصحاب الجوهر. فأُخِذ وحُمِل إلىٰ جعفر فلما بَصُرَ به، آستحيا منه وقال: ألم تكن طلبتَ هذه الدرّة منى، فوهبتُها لك؟ قال: بلىٰ. قال: لاتعرّضوا له! فباعها بمائتَىْ(1) ألف درهم.

✦✦✦

إكرام أهل الوفاء وشكرهم

ومن أخلاق المَلك إكرامُ أهل الوفاء وبِرُّهم والآستنامة إليهم [illegible] "تقدِمة لهم علىٰ الخاصّ والعامّ والحاضر والبادى.

وذلك أنه لا يوجد فى الإنسان فضــيلة أكبر ولا أعظم قدرًا ولا أنبَلُ فعلا من الوفاء. وليس الوفاءُ شكرَ اللسان فقط، لأن شكر اللسان ليس علىٰ أحدٍ منه مؤونة.

وآسمُ الوفاء مشتملٌ علىٰ خِلالٍ:

فمنهــا ــ أنْ(2) يَذْكُرَ الرجُلُ مَن أنعَمَ عليه، بحضرة المَلك فَمَنْ دونه. فإن كان المَلك

---

(١) رواها فى "المحاسن والمساوى" (ص ٥٠٦).

(٢) سـ: "إن" صـ: "وإن". [ووضعتُ حرف الفاء لمنع التشويش فى الجملة، والأصل ... فى السياق.]

فيه سيّئ الرأى، فليس من الوفاء أن يُعينه علىٰ سوء رأيه. فإنْ خاف سَوْط المَلك وسيفه، فأحسنُ صفاته أن يُمسِكَ عن ذكره بخيرٍ أوشرٍّ.

ومنها ـ المؤاساة للصاحب فى المال حتّى يقاسمه الدرهم بالدرهم والنعل بالنعل والثوب بالثوب.

ومنها ـ الحفظ له فى خَلَفه وعياله، ما كان فى الدنيا، حتّى يجعلهم إسوةَ عياله فى الجَدْب والخِصْب. (٩١)

ومنها ـ الشكر له باللسان والجوارح.

وكانت ملوك الأعاجم كلُّها، أوّلُها وآخِرُها، لا تمنع أحدًا من خاصّتها وعامّتها شُكْرَ مَن أنعم عليها أو علىٰ أحدٍ منها وتقريظَه وذكرَ نعمه وإحسانه، وإن كانت الشريعة قد قتلتــه والمَلك قد سَخِط عليه. بل كانوا يَعرِفون فضيلةَ مَن ظَهَرَ ذلك منه ويأمرون بصلته وتعهُّده.

قباذ ومادح الجانى على المملكة

ويقال إنّ قُباذَ[1] أمر بقتل رجُلٍ كان من الطاعنين علىٰ المملكة. فقُتِل. فوقف علىٰ رأسه رجُلٌ كان من جيرانه فقال: "رحِمَكَ الله! إنْ كنتَ ـ ماعلِمتُ ـ لَتُكْرِمُ الجارَ وتصبر علىٰ أذاه، وتُواسى أهل الحاجة، وتقوم بالنائبة! والعَجَبُ كيف وجد الشيطان فيك مَساغا حتّى حَمَلك علىٰ عصيان مَلكك، فخرجتَ من طاعته المفروضة إلىٰ معصيته! وقديمًا ماتمكّن ممن هو أشدُّ منك قوّةً وأثبت عزمًا." فأخذ الرجُلَ

(١) [أُنظر حاشية (٢) صفحة (٧٨) من هذا الكتاب].

صاحبُ الشُّرطة فحبسه. وأنتهى كلامه إلى قُباذ، فوقّع قُباذُ: يُحْسَنُ إلى هذا الذى شكر إحسانًا فُعِلَ به، وتُرفَعُ مرتبتُه، ويُزاد فى عطائه(١). (٩٣)

* وهكذا فعل سعيد بن عمرو بن جَعْدة بن هُبيرة [المخزومىّ](٢)، حين حُمِل رأس مَرْوان [الجعدىّ](٣) إلى أبى العبّاس [السفاح] بالكوفة، فعقد له مجلسا وجاءوا بالرأس، فقام سعيد بن عمرو بن جَعْدة فأكبّ عليه قياما طويلا، ثم قال: هذا رأس،

(١) رواها فى "المحاسن والمساوى" (ص ١١٤).

(٢) كان من رجالات مروان الجعدىّ، وأشترك معه فى وقعة الزاب. (الطبرىّ سلسلة ٣ ص ٤٠ و ٤٢٢؛ والأغانى ج ١١ ص ٧٥؛ وابن الأثير فى حوادث سنة ١٤٥).

(٣) هو آخر خلفاء بنى أميّة بالمشرق.

وُلد سنة ٧٢ وقيل سنة ٧٦. تولّى لهشام ومن بعده من الخلفاء الجزيرة وأرمينية وأذربيجان لغاية سنة ١٢٦. وفى هذه السنة الأخيرة أظهر الخلاف على يزيد بن الوليد. ثم سار فى سنة ١٢٧ إلى الشام وحارب سليمان بن هشام ودعا الناس إلى مبايعته. وتمت له البَيْعةُ بدمشق فى تلك السنة. وهو الذى سمّى يزيد ابن الوليد بالناقص. وكانت وفاته بأرض مصر فى سنة ١٣٢ هجرية. [وأنظر صفحة ١٧٥ من هذا الكتاب].

وهو المعروف فى كتب التواريخ بمروان الفَرَس، ومروان الحمار، ومروان الجعدىّ. سماه العباسيون الذين خرجوا عليه وقلبوا دولته بالحمار فى نظير تسميته بالفَرَس. وقيل إنه لُقّبَ بالحمار لأنه كان لا يجفّ له لبد فى محاربة الخارجين عليه. (كان يصل السير بالسير ويصبر على مكاره الحروب. ويقال فى المثل: "فلان أصبر من حمار فى الحروب" فلذلك لقب به). وقيل إن العرب تُسَمّى كُلّ مائة سنة حمارا. (فلما قارب مُلك بنى أميّة مائة سنة لقبوا مروان بالحمار لذلك). وربما كان ذلك لفراره على حمار (يدلّ على ذلك قول رُؤْبة ابن العجاج فى مدح السفّاح:

مازال يأتى الأمرَ من أقطارِهِ * عن اليمين وعلى يسارِهِ،
مُشَمِّرًا لا يُصْطَلَى بِنارِهِ * حتى أقرّ المُلكَ فى قرارِهِ
وفرّ مَرْوانُ على حمارِهِ). =

أبى عبد الملك، خليفتنا بالامس، رحمه الله! (1) فوثب أبو العبّاس فطعن فى وانصرف ابن جعدة إلى منزله، وتحدّث الناس بكلامه. فلامه بنوه وأهله،

= وأما تسميته بالجعدىّ فنسبة إلى أخذه (حين كان واليا على الجزيرة) بتعاليم مؤدّبه الجعد بن سُوَيد بن عَقَلة. وقع هذا الرجل الى الجزيرة فأخذ برأيه جماعةٌ من أهلها. فلما حارب الخراسانيو نسبوا إلى الجعد ما رأوه من سعة علمه. وكان الناس يذمّون مروان بنسبته إلى الجعد. وكان الجعد المعتزلة وأظهر مقالته بخلق القرآن والقدر والاستطاعة وغيرذلك أيام هشام. ومن أقواله: "إذا يتولّد منه الولد، فأنا صانع ولدى ومدبّره وفاعله، لافاعلَ له غيرى، وإنما يقال إن الله خلقه مجازاً لا. ومن قوله: "إن كان النظر الذى يوجب المعرفة، تكون تلك المعرفة فعلا لافاعل لها". وقيل إنه كان وعظه ميمون بن مهران، فقال: "لَشَاةُ قُباذ أحبُّ إلىّ مما تدينُ به! فقال له مهران: قتلكَ اللهُ، وهوا وشهد عليه مهران. فطلبه الخليفة هشام حتى ظفر به. فأرسله إلى خالد القسرىّ، وهو أمير العراق بقتله. فحبسه خالد ولم يقتله. فبلغ الخبر هشاما فكتب إلى خالد يلومه و يعزم عليه أن يقتله. فأتم من الحبس فى وثاقه. فلما صلّى العيد يوم الاضحى قال فى آخر خطبته: "انصرفوا وضحّوا يقبّل الله. أريد أن أضحّىَ اليومَ بالجعد بن درهم فإنه يقول: ما كلّم الله موسى ولا اتّخذ إبراهيم خليلاً! تعالى الله الجعد علوّاً كبيرا!" ثم نزل وذبحه.

أنظر الطبرىّ سلسلة ٢ (ص ٩٤٠ و ١٥٦٢ و ١٨٢٥ و ١٨٧٠ و ١٨٧٦)؛ وأغا (ج ١٨ ص ١٢٣ و ج ٢١ ص ٨٧)؛ وأنظر "المحاسن والمساوى" (ص ٢٣٩)؛ والفصل والأهواء والنحل (ج ٤ ص ٢٠٢)؛ وأنساب السمعانى (ص ١٣١)؛ وابن الأثير (ج ٥ ص و ١٩٧ و ٣٢٩)؛ وسبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب (ص ٨١)؛ والفَرْق بين الفِرَق لعبـ البغدادىّ، طبع القاهرة سنة ١٩١٠ (ص ١٤ و ٢٦٢).

(١) هو كنية مروان الجعدىّ، باسم ابنه.

(٢) أى فى حضنه.

عرّضْتنا ونفسَك للبوار ! فقال: آسكتوا، قبّحكمُ الله ! ألستم الذين أشاروا عليّ بالأمس بحرّان بالتخلّف عن مَرْوان، ففعلتُ في ذلك غيرَ فعل أهل الوفاء والشكر؟ وما كان ليغسِل عنى عار تلك الفَعلة إلّا هذه . فإنما أنا شيخٌ هـامَةٌ (١)، فإنْ نجوتُ يومى هذا من القتل، مُتُّ غدًا. قال: فجعل بنوه يتوقّعون رُسُل أبى العبّاس أنْ تطرُقه فى جوف الليل. فأصبحوا ولم يأْتِهِ أحدٌ. وغدا الشيخُ فإذا هو بسليم بن مُجالد. فلما بَصُر به، قال: يا آبن جعدة ! ألا أُبشّرك بجميل رأى أمير المؤمنين؟ إنه ذكر فى هذه الليلة ما كان منك، فقال: "والله ! ما أخرج ذلك الكلامَ من الشيخ إلا الوفاءُ. ولَهُوَ أقربُ منا قرابةً، وأمسّ بنا رَحِمًا منه بمروان، إنْ أحسنّا إليه !" قال: أجَلْ، والله ! * (٢)

---

(١) تقول العرب : فلان هامَةٌ، أى يصير فى قبره . ومنه قول كُثيِّر:

فإنْ تَسْلُ عنكِ النفسُ أو تَدَعِ الهوى ، * فباليأس تَسْلُو عنكِ ، لا بالتجلّدِ .
وكُلُّ خليلٍ راءَنى فهوَ قائلٌ : * مِنَ آجلكِ هذا هامَةُ اليوم أو غدِ .

يقال : فلان هامةُ اليوم أو غد، أى يموت فى يومه أو غده . ويقال ذلك للشيخ إذا أَسَنَّ، والمريض إذا طالت عِلّته، والمحتقر لمدة الآجال . وفى الحديث أن أبا حذيفة بن اليمان قال لثابت بن وقش الأنصارى وقد تخلف معه فى غزوة أُحُد: "إنهضْ بنا ننصُرْ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنما نحن هامة اليوم أو غدٍ". (وكانا قد أسَنَّا) . ومرجع ذلك لاعتقاد العرب فى مسألة الهامة . (راجع "الكامل" للمبرد ص ٢١١ و٣٨٧؛ وانظر "الأغانى" ج ١٣ ص ١٦٥)

(٢) هذه الفقرة المحصورة بين نجمتين ** منقولة من صـ . وقد رواها فى " المحاسن والمساوى" (ص ١١٩ و ١٢٠)

كتاب قيس بن سعد ابن عبادة إلى معاوية

وهكذا فعل قَيْس بن سعد بن عُبادة [الأنصارىّ] بمُعاوية بن أبى سُفيان، حين دعاه إلى مُفارقة علىّ بن أبى طالب والدخولِ فى طاعته. فكتب إليه قيس بن سعد: ”يا وثن ابن وثن! تكتُبُ إلىّ تدعونى إلى مُفارقة علىّ بن أبى طالب والدخول فى طاعتك وتخوفنى بتفرُّق أصحابه عنه وإقبال الناس عليك وإجفالهم إليك! فوالله الذى لا إله غيره! لو لم يبقَ له غيرى ولم يبقَ لى غيره، ماسالمتُك[1] أبدا، وأنت حَرْبه، ولا دخلتُ فى طاعتك وأنت عدوُّه، ولا آخترتُ عدوّ الله على وليِّه، ولا حزبَ الشيطان على حزبِ الله. والسلام!“

الإسكندر والمتقربون إليه بقتل ملكهم

وفى سِيرة الإسكندر ذى القرنين أنه لما قصد نحو فارِس، تلقّاه جماعة من أساورتهم برأس ملكهم، يتقرّبون إليه به. فأمر بقتلهم لسُوء رعْيهم وقلّة شكرهم لملكهم ومَن أنعم عليهم. وقال: مَن غدر بملكه كان بغيره أغْدَر.

شيرويه ومادحه على قتل أبرويز

٩٣

وفيما يُحكى عن شيرويه أن رجُلا من الرعيّة وقف له يوما، وقد رَجَع من الميدان، فقال: ”الحمد لله الذى قتل أبرويز[2] على يديك، وملّكك ما كنتَ أحقّ به منه وأراح آل ساسان من جبريّته[3] وعُتوّه وبُخله ونَكَده. فإنّه كان ممن يأخذ بالحِنّة[4]،

---

(١) انظر فى المسعودىّ مكاتبات أخرى جرت بينهما (ج ٥ ص ٤٥).

(٢) [أنظر حاشية ١ صفحة ٩ من هذا الكتاب.]

(٣) صـ: «بجبروته». والجبّرية القهر والغلبة. وفيها لغات كثيرة ذكرها فى القاموس وفى كامل المبرد. وفى خطبة عُتْبة بن غَزْوان: ”وإنه لم تكن نُبوّةٌ إلا تناسختها جَبّريّة“. أى مُلك غالب وعضوض. [أنظر ”البيان والتبيين“ ج ١ ص ١٧٢.]

(٤) صـ: بالإحنة.

ويقتـل بالظنّ، ويُخيف البرىءَ، ويَعمَل بالهوىٰ". فقال شيرويه للحاجب: اِحْمِلْهُ إلىٰ المَحْمِل. فقال له :—

— كم كانت أرزاقك فى حياة أبرويز؟

— كنتُ فى كفاية من العيش.

— فكم زِيدَ فى أرزاقك اليومَ؟

— ما زِيدَ فى رزقى شئٌ.

— فهل وَتَرَكَ[1] أبرويز، فانتصرتَ منه بمـا سمعتُ من كلامك؟

— لا.

قال — فما دعاك إلىٰ الوقوع فيه، ولم يقطع عنك مادّة رزقك ولاوَتَرَكَ فى نفسك؟ وما للعامّة والوقوعَ فى الملوك، وهم رعيّة؟

فأمر أن يُنْزَعَ لسانُه من قفاه، وقال: "بحقٍّ ما يقـال إن الخَرَسَ خَيْرٌ من البيان فيما لا يَجِبُ."[2]

المنصور والضارب رأس الخارج عليه بعد قتله

وحدّثنى صَباح بن خاقانُ[3]، قال: حدّثنى أبى أنّ أباجعفر [المنصور] لمـا أُتِيَ برأس

(١) وَتَرَهُ حَقَّه أى نقصه. (صحاح) [حاشية فى ص—]

(٢) روى هذه الحكاية بالحرف فى "المحاسن والمساوى" (ص ٤١١).

(٣) هو صباح بن خاقان المِنْقَرِيّ. كان نديمـا لمصعب الزبيرى، وكان من مشايخ المروءة والعلم والأدب. وكان متعصبا للفرزدق وجرير يفضلهما على الأخطل (أغانى ج ٧ ص ١٧٤ وج ١٥ ص ١٥٩ و ١٦٠). وكان هو ومصعب جليسين لا يكادان يفترقان وصديقين متواصلين لا يكادان يتصارمان (كامل المبرد ص ٤٦٠). وقد امتدحه إسحاق النديم (المشتبه فى أسماء الرجال للذهبى ص ٣١٠).

إبراهيم بن عبدالله(١) فوُضع بين يديه، جاء بعض أولئك الرُّوَيْدِيَّة(٢) فضرب الرأس بعمودٍ كان في يده. فقال المنصور للمُسَيَّب(٣): دُقَّ وجهه(٤)! فدقّ المُسَيَّب أنفَهُ. ثم قال [المنصور] له: يا ٱبن الخناء! تجيء إلى رأس ٱبن عمّى (وقد صار إلى حالٍ لا يدفع ولا ينفع) تضربه بعمودك، كأنك رأيتَه وهو يُريدُ نفسى فدفعتَه عنّى. أُخْرُجْ إلى لعنة الله وأليم عذابه! (٩٤)

المنصور ومادح هشام الأموى

ويقال إن أبا جعفر وجّه إلى شيخ من أهل الشأم، كان من بِطانة هشام، فسأله عن تدبير هشام فى بعض حروبه الخوارجَ. فوصف له الشيخ مادبّر، فقال: "فعل (رحمه الله) كذا وصنع (رحمه الله) كذا." فقال المنصور: قُمْ، عليك لعنة الله! تطأُ بِساطى، وتترحّمُ على عدوّى؟ فقام الرجُل، فقال وهو مُوَلٍّ: إنّ نعمةَ عدوّك لَقِلادةٌ فى عُنُقى لا ينزعُها إلّا غاسلى. فقال له المنصور: ارجعْ يا شيخُ! فرجَعَ. فقال له: أشهدُ

(١) هو إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب.

(٢) هكذا فى سـ، صـ. ولا يمكن أن تكون الكلمة محرّفة عن الراوندية لأنهم قاموا على المنصور فى سنة ١٤٠، وإبراهيمُ بن عبد الله كان قتله فى سنة ١٤٥. ولم أتمكن بعد شدّة البحث وكثرة التنقيب فى كتب التواريخ واللغة من الوقوف على معناها أو تقويمها. ولعلها تكون "الدورية" بمعنى أصحاب الدور من العساكر وأرباب الحرس، أو الزردية بمعنى لابسى الزرد. ولكننى لست على ثقة من ذلك. والذى فى ٱبن الأثير: رجل من الحرس (ج ٥ ص ٤٣٧). وروى الطبرىّ هذه الحكاية على وجه آخر ووصف الرجل بأنه من السيّافة (سلسلة ٣ ص ٤١٦).

(٣) هو المُسَيَّب بن زهير الضّبّى وهو من ولد ضرار بن عمرو (وبنو ضرار من سادة ضبة). كان على شرطة أبى جعفر، وولاه المهدىُّ خراسان. وولى شرطة موسى الهادى. وكانت هذه الوظيفة فى أبنائه لهارون والأمين والمأمون. (معارف ٱبن قتيبة ص ٢٠٠)

(٤) صـ: سوّ.

أنك نهيضُ حُرّةٍ وغِراسُ شريفٍ! عُدْ إلىٰ حديثك! فعاد الشيخ إلىٰ حديثه حتّى إذا فرَغ، دعا له بمالٍ ليأخذه فقال: "والله ياأمير المؤمنين، مابى من حاجةٍ إليه! ولقد مات عنّى مَن كنتُ فى ذكره آنفا، فما أحوجنى إلىٰ وقوفٍ علىٰ باب أحدٍ بعدَه. ولولا جلالةُ عزِّ أمير المؤمنين وإيثارُ طاعته ماليَستُ لأحدٍ بعده نعمةً." فقال المنصور: "مُتْ إذا شئتَ، فلله أنت! فلو لم يكن لقومك غيرك، لكنتَ قد أبقيتَ (٩٥) لهم مجدًا مُخلَّدًا". ويقال إن الرجُل كان من شَيْبَان[١].

الأدب عندما يتكلم الملك

ومن حقّ الملك ـ إذا حضره سُمّارُه أومُحدِّثوه ـ أنْ لايُحرِّكَ أحدٌ منهم شَفَتيه مبتدئًا، ولا يقطَعَ حديثَه بالاعتراض فيه، وإن كان نادرًا شهيًا، وأنْ يكون غرضُهم حُسْنَ الاستماع، وإشغالَ الجوارح بحديثه. فإذا فرغ من الحديث فنظر إلىٰ بعضهم، فقد أذِنَ له أنْ يُحدِّثَه بنظير ذلك الجنس من الحديث. وليس له أن يأخذ فى غير جنس حديثه.

الأدب فى تحديث الملك

وليس لمن حدّث المَلِكَ أن يُفسِدَ ألفاظَه وكلامَه، بأنْ يقولَ فى حديثه: "فاسمعْ منى" أو "إفهمْ عنى" أو "ياهذا" أو "ألاترىٰ". فإنّ هذا وماأشبهَه عِىٌّ من قائله وحَشْوٌ فى كلامه وخروجٌ من بَسْط اللسان[٢] ودليلٌ على القَدَامة[٣] والغثاثة[٤]. وليكنْ كلامُه

(١) نقل المسعودىّ هذه الحكاية بتصرف يسير (ج ٦ ص ٦٧ و ١٦٨). ونقلها بالحرف الواحد فى "المحاسن والمساوى" (ص ١٢٠). وكان المنصور فى أكثرأموره وتدبيره وسياسته متّبعا لهشام فى أفعاله، لكثرة مايستحسنه من أخبارهشام وسيرته. (شذرات الذهب ج ١ ص ١٨١)

(٢) سـ: وخروج من بسط الزمان، صـ: وخروج بربط اللسان.

(٣) القَدَامة العِىُّ عن الحجة، والكلام فى ثقل ورخاوة وقلة فهم.

(٤) هى سوء الخلق. ويعبِّرعنها العامّةُ فى أيامنا هذه بقولهم: الغتاتة. ومنها فلان غتوت.

(٩٦)

كلامًا سهلًا، وألفاظُه عذبةً متّصلةً، وسَقَطُ كلامه قليلًا. فإذا فرغ من الحديث، فليس له أنْ يصِلَه بحديثٍ آخَرَ، وإنْ كان شبيهًا بالحديث الأوّل، حتّى يرى أنّ المَلك قد أقبلَ عليه بوجهه وأصغى إلى حديثه. [فإن أعرض] لشغل يعرض له، [فليس له] أن يمرّ في حديثه وأن يصِلَ كلامه، فيحتاج الملك إلى الإصغاء إليه ويحتاج إلى التشاغل بما عرض له، فيجتمعُ عليه أمرين. فإنّ هذا سُخْفٌ من فاعله وخروجٌ من الأدب. ولكن لِيُنْصِتْ مُطْرِقًا: فإن اتّصل شُغل المَلك، تَرَكَ الحديث؛ وإن انقطع فنظر إليه، فقد أَذِنَ له في إتمامه وإعادته.

*

عدم الضحك من حديث الملك

ومن حقّ المَلك أن لا يُضْحَكَ من حديثه إذا حدّثَ، لأن الضّحك بحضرة الملك جُرْأَةٌ عليه، ولا يُظْهِرَ التعجّب بفائدة حديثه. وإنما هذا إلى المَلك. فإنْ ضَحِكَ المَلك من الحديث وأظهر السرور به، فذاك غرضُ حديثه، وإليه قَصَدَ. وإن سكتَ، فلم يكن في الحديث ما يُلهيه ويُطربُه أو يستفيدُ منه فائدةً، كان قد سَلِمَ من العيب، إذ لم يضحك ولم يتعجب.

*

عدم إعادة الحديث مرتين على الملك

ومن حقّ المَلك أنْ لا يُعاد عليه الحديث مرّتين، وإن طال بينهما الدهر وغَبَرَتْ بينهما الأيام، إلا أن يَذْكُرَه المَلك. فإن ذَكَرَه، فهو إذنٌ منه في إعادته.

(٩٧) كلمة روح بن زنباع في المعنى

وكان رَوْحُ بنُ زِنْباعٍ (١) يقول: أقمتُ مع عبد الملك سبعَ عشرة سنةً من أيامه، ما أعدتُ عليه حديثًا.

---

(١) أنظر الحاشية ١ صفحة ٦٠ و ١١٧ و ١٣٠ من هذا الكتاب.

كلمة الشعبي في المعنى

وكان الشَّعبيّ[(١)] يقول: ما حدّثتُ بحديثٍ مرّتين لرجلٍ بعينه قطْ.

كلمة السفاح

وكان أبو العباس[(٢)] يقول: مارأيتُ أحدا أغزر علمًا من أبي بكر الهُذَليّ، لم يُعِدْ عليّ حديثا قطُّ.

كلمة ابن عياش في المعنى

وكان ابن عيّاش[(٣)] يقول: حدّثتُ المنصور أكثر من عشرة آلاف حديث. فقال لي ليلةً، وقد حدّثتُه عن يومِ ذي قارٍ[(٤)]: قد اضطُرِرْتَ إلى التَّكرار، يا ابن عياش! قلتُ: ما هذا منها، يا أمير المؤمنين. قال: أمَا تذكر ليلة الرعد والأمطار، وأنت تحدّث عن يوم ذي قار، فقلتُ لك: مايومُ ذي قارٍ[(٥)] بأصعب من هذه الليلة؟

---

(١) هو فقيه العراق وأشهر من أن يذكر.

(٢) يعنى السفاح رأس الدولة العباسية.

(٣) أنظر حاشية ٣ صفحة ٥٩ من هذا الكتاب.

(٤) ذو قار هو اسم ماء لبنى بكر بن وائل، قريب من الكوفة. حدثت فيه معركة هائلة بين العرب والعجم قبل البعثة النبوية، وقيل بين غزوتى بدر وأُحُد. انتصر فيها العرب على العجم انتصارا باهرا تغنّى به شعراؤهم وتحدّث به أخباريوهم. ويسمّى هذا اليوم أيضا بيوم الحِنو، ويوم حِنو ذى قار، ويوم حِنو القراقر، ويوم بطحاء ذى قار، ويوم قراقر، ويوم الجبابات، ويوم ذات العجرم. وكلهن مواضع حول ذى قار. ولكنه الأشهر والأكثر فى الاستعمال.

(٥) القار (بتخفيف الراء) هو فى لغة العرب هذا الأسود (الزفت) الذى تُطلَى به السُّفُن، وهو شجر مرٌّ أيضا (عن تاج العروس). وفى لغة الفرس يدل على البياض وعلى السواد (لأنه عندهم من أسماء الأضداد)؛ وقد أطلقوه من باب التوسع على الثلج وعلى الزفت بسبب لونيهما؛ وليس يستفاد من الحكاية التى أوردها الجاحظ (مع ملاحظة المنصور على جليسه) أن المعركة وقعت فى أيام الشتاء، ولأنه ربما كان لتسميتها بيوم ذى قار علاقة بنزول الثلج وأن الموضع ربما سمى بهذا الاسم لهذه المناسبة. وبالحقيقة أن اللفظ عربىّ صميم لأنه اسم ماء =

مواطن إعادة الحديث على الملوك

وكان الشَّرْقِيُّ بنُ القُطَامِيِّ (١) يُعيد الحديث مرارًا. وذلك أنَّ أكثر أحاديثه مضاحيكُ، وكانت تُعجب المهديَّ فيستعيده.

= لبني بكر بن وائل كما ذكرنا في الحاشية السابقة، ولأن من نظر إلى الخريطة الجغرافية يتبين له أن عرض هذا المكان مما لا يقع فيه الثلج. فوق ذلك فالمعلومات التاريخية تدل على أن هذه الحرب وقعت في أيام القيظ. يدل على ذلك قول التغلبيّ الذي يريد هلاك بكر بن وائل، حينما استشاره كسرى أبرويز في أمرهم: "أمهلهم حتى يقيظوا ويتساقطوا على ذي قار، تساقُطَ الفَرَاشِ في النار. فتأخذهم كيف شئتَ" (ابن الأثير ج ١ ص ٣٥٧). ويؤيد ذلك ويوضحه ما رواه صاحب العقد الفريد (ج ٣ ص ١١٣) فقد أورد حديث التغلبيّ مع كسرى هكذا:

" — يا خير الملوك! ألا أدلُّك على غِرَّة بكر؟

— بلى!

— أقرَّها، وأظهر الإضراب عنها حتى يُجلّيها القيظُ ويُدنيها منك، فإنهم لو قاظوا، تساقطوا عليك بما لهم في وادٍ يقال له ذو قار، تساقُطَ الفَرَاشِ في النار."

وإنما الذي أشار إليه المنصور هو اشتداد الأمر وحرج الحال واصطلام الحرب، كما كانت ليلة شديدة برعدها ومطرها.

(انظر التفصيل عن تلك الواقعة وسببها في معجم البلدان ج ٤ ص ١٠ — ١٢؛ "والأغاني" ج ٢٠ ص ١٣١ — ١٤٠؛ "والعقد الفريد" ج ٣ ص ١١٣ — ١١٦؛ "وابن الأثير" ج ١ ص ٣٥٢ — ٣٥٨؛ وانظر "صبح الأعشى" ج ١ ص ٢٣٦؛ "وتاج العروس" في ق و ر.)

(١) سماه في القاموس شرقي بن القطاميّ. وفي شرحه عن بعض أهل اللغة أنه بفتح الراء. والقطاميّ بفتح القاف في لغة قيس وعند سائر العرب بالضم.

وهو الوليد بن الحُصَيْن الكلبي. والشرقيُّ لقبه، كما أن القَطاميّ لقب أبيه. كوفيٌّ وافر العلم والأدب؛ واشتهر بمعرفة الأنساب ورواية الأخبار والدواوين. ولكنه في الحديث معدود من الضعفاء. كان =

وكان ٱبْن دَأْبٍ[1] إذا حدّث موسى أمير المؤمنين بالحديث، أعاده عليه فى القابلة حتّى يحفظه.

٩٨ ويقال إنه لم يُسامِر الخلفاءَ أحدٌ كان أنبل من عيسى بن دَأْبٍ، ولا أتمّ صنعةً ولا أحسنَ ألفاظا ولا أفكَهَ مجلسا ولا أعظَمَ أُبّهة وقدْرًا منه. وكان عيسى بن دأب يتّكِئُ فى مجلس أمير المؤمنين.

= صاحب سَمَر. أقدمه أبو جعفر المنصور ليعلِّمَ ولده المهدىّ. وقد سأله: "عَلَامَ يؤتى المرء؟ فقال: أصلح الله الخليفة! على معروف قد سلف، أو مثله يؤتنف، أو قديم شرف، أو علم مُطَّرَف." ضمّه المنصور إلى المهدىّ حين خلّفه بالرّيّ، وله معه هناك حديث ظريف عن الغريّين (ساقه فى "مروج الذهب" ج ٦ ص ٢٥١ — ٢٥٦، وأورده ياقوت برواية أخرى فى "معجم البلدان" ج ٣ ص ٧٩١ — ٧٩٢). وله كتب فى التاريخ والأنساب، روى عنها المسعودىّ وياقوت والبلاذرىّ. وله قصيدة فى الغريب. سأله رجل ذات يوم عما كانت تقرؤه العرب فى صلاتها على موتاها. فقال: لا أدرى. فقال له الرجل: كانوا يقرؤن:

ما كنتَ وَكْوَاكًا ولا بِزَوَنَّك * رُوَيدكَ حتى يبعث الخلقَ باعثُهْ

فحدّث بذلك فى المقصورة يوم الجمعة. (انظر "كتاب الفهرست" ص ٩٠ و ١٧٠ و ٣٠٦؛ و "نزهة الألباء" ص ٤٢ — ٤٣؛ وابن قتيبة فى "المعارف" ص ٢٦٨. وقد صححتُ البيت عن "لسان العرب" فى مادتى زنك، ولك).

(١) هو عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب، ويكنى أبا الوليد. (ودأب مأخوذ من قولهم: مازال هذا دأبه وديدنه وعادته ودينه أى فعله الذى لا يفارقه). كان هو وأبوه وأخوه من العلماء بأخبار العرب وأشعارهم. وكان عيسى شاعرا فوق ذلك. وكان يضع بالمدينة الشعر وأحاديث السَّمَر وكلامًا يُنسب إلى العرب. وكان أكثر أهل الحجاز بل ومعاصريه أدبا وعلما وعذوبة لفظ ومعرفة بأخبار الناس وأيامهم؛ وكان لذيذ المفاكهة، طيِّب المسامرة، كثير النادرة، جيِّد الشعر، حَسَن الانتزاع له. وهو من نقلة الأخبار ونُقَّاد الأشعار. حظِىَ عند الهادى حظوة لم تكن لأحد قبله. وبلغ من تيهه على الخليفة أنه كان ينادمه ولا يتغدّى معه. فقيل له فى ذلك، فقال: أنا لا أتغدّى فى مكان لا أغسل يدىّ فيه. فقال له الهادى: فتغدَّ! فكان الناس إذا تغدّوا تنحّوْا لغسل أيديهم، وابنُ دأب يغسل يديه بحضرة الخليفة. وبلغ من تيهه ودالّته عليه أيضا أن الخليفة كان يدعو له بما يتّكئ عليه فى مجلسه (وما كان يفعل ذلك بغيره ولم يكن عنده أحدٌ يطمع منه بذلك). =

ولم يكن هـذا لأحد. غير أنه يُحكى أن رَوْح بن زِنْبَاع مَرِض فكان يدعو له عبدُ الملك بن مَرْوان بمُتَّكَإ(١).

✦

الادب فى تحديث الملك

وعلى المحـدِّث للملك أنْ لا يعجَلَ فى كلامه، وأن يُدْمِج(٢) ألفاظه، ولا يُشـير بيده،

= وكان يقول له : "ما استطلت بك يوما ولا ليلا، ولا غِبتَ عن عينى إلا تمنّيتُ أن لا أرى غيرك". أمر له مرة بثلاثين ألف دينار. فماكسه الحاجب فى قبضها، فتركها. ثم رآه الهادى، وليس معه إلّا غلام واحد، فأخذ عليه عدم ظهور النعمة فيه. فلما دخل إليه عرّض له بذلك وقال له : "أرى ثوبك غسيلا، وهذا شتاء يحتاج إلى الجديد." فقال : باعى قصير. فقال : وكيف، وقد صرفنا إليك ما فيه صلاح شأنك؟ فقال : ماوصل إلىّ. فدعا صاحب بيت المال واستحضر الثلاثين ألف دينار وحملها بين يديه.

وكان كثيرا ما يدعوه ويسأله إنشاد الأبيات من أشعر ماقالت العرب. وكان يروى له الأخبار (منها حديث عن غلام سِندىّ مع مولاه، ساقه المسعودىّ فى ج ٦ ص ٢٦٤ — ٢٦٥ وصاحب "المحاسن والمساوى" (ص ٦١٣ — ٦١٤)، والأبشيهىّ فى "المستطرف" (ج ٢ ص ٦٥)، وصاحب "تنبيه الملوك والمكايد" (ص ١١٦ — ١١٧). ومنها حديث عن عيوب مصر وفضائل البصرة والكوفة، ساقه المسعودىّ أيضا فى الجزء السادس (ص ٢٧٠ إلى ٢٧٧). وقد أخذ عليـه خلف الأحمر هفوة فقال فيـه : "العجب من ابن دأب! والله لقد طمع فى الخلافة حين ظن أن هذا يُقبل منه." وقد هجاه ابن مناذر الشاعر الفصيح المقدّم فى العلم باللغة، لأنه قال فيه قولا قبيحا. وكان خلف الأحمر ينسب إليه الكذب. وقالوا إنه كان يتشيّع ويضع أخبارا لبنى هاشم. (أنظر "كتاب الفهرست" (ص ٩١)؛ و"الأغانى" (ج ٥ ص ١٥٨ وج ٨ ص ١٠٤ و ١٠٦ وج ١١ ص ٦٩ وج ١٧ ص ٢٤ وج ١٩ ص ٤٨)؛ وانظر ابن الأثير ج ٦ (ص ٧٢ — ٧٣)؛ وانظر أيضا "مروج الذهب" (ج ٥ ص ١١٨ وج ٦ ص ١٢٨ و ٢٦٣)؛ وانظر "المعارف" لابن قتيبة (ص ٢٦٧)؛ و"كتاب الاشتقاق" لابن دريد (ص ١٠٦)؛ و"كامل المبرّد" (ص ١٨٦ و ٢١٢)؛ و"المحاسن والمساوى" (ص ٢٠٧ — ٢٠٨)؛ والطبرىّ سلسلة ٣ (ص ٥٨٩)؛ و"شرح الحماسة" (ص ٢٠٠)؛ "والبيان والتبيين" ج ١ ص ٢٤ "وتاج العروس" فى دأب. وله ترجمة وافية فى "معجم الأدباء" لياقوت روى هذه الأحوال صاحب "محاسن الملوك" بالحرف الواحد عن الجاحظ دون أن يسميه (ص ٢٤).

(١) دخل محمد بن عمران على المأمون ذات ليلة، فجعل يأمره وينهاه، ثم دعا له بمُتَّكَإ، فقال : أعيذك بالله، يا أمير المؤمنين! ما كنتُ لأتّكئ فى مجلسك! فقال له : إن على قلبك من ذلك ثِقْلا ومؤونة، فأردنا أن يستريح بدنك ليفرُغ لنا قلبك. ("مطالع البدور" ج ١ ص ١٠)

(٢) من قولهم : أدمج الحبل أجاد فتله، وقيل : أحكم فتله فى رقّة. (عن تاج العروس)

ولا يُحرِّكَ رأسَــه، ولا يزحَفَ من مجلسه، ولا يُراوحَ بين قِعْدته، ولا يرفعَ صوتَه، ولا يلتفتَ يمينًا ولا شِمــالًا، ولا يُقبِــلَ على غير المَلِك بملاحظته، ولا يكون غرضُــه أنْ يسمَعَ حديثَه أو يفهَم عنه سِواهُ.

✦✦✦

أمارات الملوك للجلساء بالانصراف

ومن حقِّ الملك ــ إذا تثاءب أو ألقى المِرْوحة أو مدّ رجليْه أو تمطّى أو اتّكأ أو كان في حالٍ فصار إلى غيرها مما يدلُّ على كسله (١) أو وقت قيامه ــ أن يقوم كلُّ من حضره.

وكان أردشير بن بابك اذا تمطّى، قام سُمّاره.

وكان الأَرْدَوان الأحمر (٢) له وقت من الليل وساعات تُحصى. فإذا مضت، جاء الغلام بنعله، فقام من حَضَرَه.

*وكان يُشْتاسِف إذا دلك عينيه، قام من حضره.

وكان يزدجرد الأثيم إذا قال: "شَبْ بِشُدْ" (٣)، قام سُمّاره.

وكان بهرام جور إذا قال: "خُرَّمْ خُفْتار" (٤)، قام سُمّاره.

وكان قُباذ إذا رفع رأسه إلى السماء، قام سُمّاره.* (٥)

وكان سابور إذا قال: "حَسْبُك يا إنسان!" قام سُمّــاره. ⟨٩٩⟩

---

(١) صـ: كلّه. (بمعنى كلاله)

(٢) لعل الصواب: "الاصغر". [راجع الحاشية ٦ من صفحة ٢٩ وصفحة ١٥١ من هذا الكتاب]

(٣) جملة فارسية معناها: صار الليل. وفي هامش صـ: يقول ذهب الليل.

(٤) جملة فارسية معناها: نام مسرورًا (؟)

(٥) هذه الفقرات الاربع المحصورة بين النجمتين * مقولة عن صـ.

وكان أنوشروان إذا قال: "قرّت أعينكم!" قام سُمّاره.[1]

وكان عمر بن الخطّاب إذا قال: "الصلاة!"[2] قام سُمّاره. وكان ينهى عن السَّمَر بعد صلاة العشاء.

وكان عثمان إذا قال: "العزة لله!" قام سُمّارُه.

وكان معاوية إذا قال: "ذهب الليل!" قام سُمّاره ومَن حضره.[3]

وكان عبد الملك إذا ألقى المِخْصَرة،[4] قام مَن حضره.[5]

وكان الوليد اذا قال: "أستودعكم الله!" قام مَن حضره.[6]

وكان الهادى إذا قال: "سلام عليكم!" قام مَن حضره.

وكان الرشيد إذا قال: "سبحانك اللهم وبحمدك!"[7] قام سُمّارُه.

---

(١) وكان كيشاسف يدلك عينه؛ ويزدجرد يقول: شب بشدّ (أى مضى الليل)؛ وبهرام يقول: خُرّم خوش باد (أى كُنْ مسرورًا)؛ وأبرويز يمدّ رجليه؛ وقباذ يرفع رأسه إلى السماء. (عن "محاضرات الراغب" ج ١ ص ١٢١. والتفسير العربىّ الاوّل عن المرحوم محمد عارف باشا فى حاشية "المحاضرات")

(٢) إذا قال قامت الصلاة. (فى "محاضرات الراغب" ج ١ ص ١٢١)

(٣) قال أصحاب معاوية له: إنا ربّما جلسنا عندك فوق مقدار شهوتك، فنُريد أن تجعل لنا علامة نعرف بها ذلك. قال: علامة ذلك أن أقول "إذا شئتم!". وقيل ذلك ليزيد، فقال: إذا قلت "على بركة الله!" وقيل ذلك لعبد الملك بن مروان فقال: إذا وضعتُ الخيزرانة. ("العقد الفريد" ج ١ ص ١٦٦ و ٢٨٨)

(٤) قضيب كالسوط، وكل ما اختصر الإنسان بيده فأمسكه من عصا ونحوها. وذلك من شعار الملوك.

(٥) فى المسعودىّ (ج ٥ ص ٢٥٧) وفى الراغب فى الموضع السابق بيانه، أنه كان يقول: "إذا شئتم" وكان سادات العرب يقولون لجليسهم: "إذا شئت فقم!" وهذه الجملة استعملها مصعب بن الزبير، كما فى الأغانى. (ج ٢ ص ١٣٨)

(٦) هذه العبارة المحصورة بين نجمتين منقولة عن ص.

(٧) سبحان الله (الراغب ج ١ ص ١٢١)

وكان المعتصم إذا نظر إلىٰ صاحب النعل، قام مَن حضره.

وكان الواثق إذا مسَّ عارضَيْه وتثاءب، قام سُمَّارُه.

وكان المأمون إذا آستلقىٰ علىٰ فراشه[(١)]، قام مَن حضره.

غير أن بعض مَن ذكرنا كان ربما قام بجنسٍ آخرَ من الإشارة والكلام، وإنما أضفنا إلىٰ كلّ واحد منهم أغلبَ[(٢)] أفعاله كانت عليه.

⁂

عدم ذكر أحد بالعيب في حضرة الملك

ومن حقّ الملك أن لا يُعابَ عنده أحدٌ، صَغُرَ أو كَبُرَ.

تحريش الملك بين رجاله

غير أن من أخلاقها التحريشَ بين آثنين، والإغراءَ بينهما.

فمن الملوك مَن يُدبِّر في هـذا تدبيرًا يجب في السياسة. وذلك أنه يقال: قلَّ آثنان آستويا في منزلة عند الملك والجاه والتَّبع والعزّ والحُظْوة عند السلطان فآتفقا، إلّا كان ذلك الآتفاق وَهْنًا على المملكة والمَلك، وفسادًا في تدبيره. وذلك أنهـما إذا آتفقا، وهما وزيرا الملك، كانا ـ متىٰ شاءآ أنْ ينقضا ما أبرم الملك ويَحُلّا ما عقد ويُوهيا ما أكّد ـ قَدَرًا على ذلك للآتفاق والمُجامعة. ومتىٰ آنفصلا حتّى يتباينا أو يتحاربا كان تباينُهما

(١) هذه العبارة غير واردة في صـ . وإذا كانت صحيحة فكأنها بعد الكلام عن الرشيد، أي قبل هذا الموضع بسطرين.

(٢) في "مطالع البدور في منازل السرور" (ج ١ ص ١٨٤) أن أوّل من جعل لندمائه أمارة ينصرفون بها من مجلسه إذا أراد، كسرىٰ. وهو أن يمدّ رجله، فيعرفون أنه يريد قيامهم، فينصرفون. وتبعه الملوك. فكان فيروز الأصغر يدلك عينيه، وكان بهرام يرفع رأسه إلى السماء. وكان في ملوك الإسلام معاوية يقول: العزة لله! ، وعبد الملك يلقي المروحة من يده. وحُدِّث بهذا الحديث عند بعض البخلاء، وسُئل ما أمارته، فقال: إذا قلت "يا غلام، هات الطعام!". وآنظر أيضا "محاضرات الراغب" (ح ١ ص ١٢١)

أثبت في نظام الملك وأوكد في عزّ المملكة. وكان متى أراد هذا شيئا، أراد الآخر خلافه. فإذا تباينا في ذات أنفسهما، اجتمعا على نصيحة الملك، شاآ أم أبيا. وآثرها كلّ واحد منهما على هوى نفسه، وانتظم للملك تدبيره وتمّ له أمره.(١)

ومن الملوك من لا يقصد إلى هذا ولا يكون غرضه الإغراء بين وزرائه وبطانته لهذه العلّة، بل ليعرف معايب كلّ واحد منهما. فإن معرفة ذلك تقطع الوزير عن الانبساط في حوائجه والتسحّب على ملكه.

* * *

(١٠١) آداب السفير

ومن الحقّ على الملك أن يكون رسوله صحيح الفطرة والمزاج، ذا بيان وعبارة، بصيرا بمخارج الكلام وأجوبته، مؤدّيا لألفاظ الملك ومعانيها، صدوق اللهجة، لا يميل إلى طمع ولا طبع،(٢) حافظا لما حمّل.

وعلى الملك أن يمتحن رسوله محنة طويلة، قبل أن يحمله رسولا.

---

(١) كان السفّاح، إذا تعادى رجلان من أصحابه وبطانته، لم يسمع من أحدهما في الآخر شيئا ولم يقبله، وإن كان القائل عنده عدلا في شهادته. وإذا اصطلح الرجلان لم يقبل شهادة واحد منهما لصاحبه ولا عليه. ويقول إن الضغينة القديمة تولّد العداوة المحضة وتحمل على إظهار المسالمة وتحتها الأفعى التي إذا استمكنت لم تبق. (شذرات الذهب ج ١ ص ٢١٦)

(٢) الطّبع: الشين والعيب. ومنه الحديث: "استعيذوا بالله من طمع يهدي إلى طمع." أخذه عروة بن أذينة شاعر قريش فقال:

لا خير في طمع يهدي إلى طبع * وغفّة من قوام العيش تكفيني.

(عن تاج العروس)

والغفّة البلغة من العيش.

سنة ملوك العجم في اختيار السفير

وكانت ملوك الأعاجم ـ إذا آثرت أن تختار من رعيتها مَن تجعله رسولا إلى بعض ملوك الأمم ـ تمتحنه أولا، بأن توجِّهه رسولا إلى بعض خاصَّة المَلِك ومَن في قرار داره في رسائلها. ثم تقدّم عينًا عليه يحضر رسالته و يكتُبُ كلامه: فإذا رجع الرسول بالرسالة، جاء العين بما كتب من ألفاظه وأجوبته. فقابل بها المَلكُ ألفاظَ الرسول. فإن آتفقت أو آتفقت معانيها، عرف المَلِك صحّة عقله وصدق لهجته. ثم جعله المَلِك رسولا إلى عدوّه، وجعل عليه عينا يحفظ ألفاظه و يكتبها، ثم يرفعها إلى المَلِك. فإن آتفق كلام الرسول وكلام عين المَلِك وعلِم أن رسوله قد صدقه عن عدوّه ولم يتزيَّد عليه للعداوة بينهما، جعله رسوله إلى ملوك الأُمم، ووَثِق به. ثم كان بعد ذلك يقيم خَبَرَه مَقامَ الحُجّة.

(آئين)
كلمة أردشير في حق السفير

وكان أردشير بن بابك يقول: "كَمْ من دَمٍ قد سَفَكَهُ الرسول بغير حِلّه! وكم من جيوش قد قُتِلَتْ وعساكرَ قد هُزِمَتْ وحُرْمَةٍ قد آنتُهِكَتْ ومالٍ قد آنتُهِبَ وعهدٍ قد نُقِضَ بخيانة الرسول وأكاذيبه!"

كلمة ثانية له

وكان يقول: على المَلِك، إذا وجّه رسولا إلى مَلِك آخر، أن يردفه بآخر. وإن وجه رسولين، أتبعهما بآثنين. وإن أمكنه أنْ لا يجمع بين رسولين في طريقٍ ولا ملاقاةٍ ولا يتعارفان فيتواطآ، [فَعَلَ]. ثُمَّ عليه، إن أتاه رسوله بكتاب أو رسالة من ملك في خير أو شرّ، أنْ لا يُحدِثَ في ذلك خيرًا أو شرًّا، حتّى يكتُبَ إليه مع رسول آخر يحكي له ما في كتابة الأول حرفًا حرفًا، ومعنًى معنًى: فإنّ الرسول ربما حُرِمَ بعضَ ما أَمَّلَ، فآفتعلَ الكتب وحرّض المُرسِلَ على المُرسَلِ إليه، فأغراه به وكَذَبَ عليه.[1]

(١) أورد القلقشندي هذه الجملة في الجزء الأول (ص ٧٣) من "صبح الأعشى" ببعض تصرف في الألفاظ. وقد أورد هذه الحكاية صاحب "تنبيه الملوك" (ص ٨٩). وكذلك صاحب "المحاسن والمساوي" (ص ١٦٨ ـ ١٦٩).

ما فعله الإسكندر بسفير كذب عليه

ويقال إن الإسكندر وجّه رسولا إلى بعض ملوك الشرق. فجاءه برسالة شكّ في حرف منها: فقال له الإسكندر: ويلك! إن الملوك لا تخلو من مقوِّم ومسدِّد، إذا مالت: وقد جئتني برسالة صحيحة الألفاظ بيّنة العبارة، غير أنّ فيها حرفًا ينقضها. أفعلى يقين أنت من هذا الحرف أم شاكّ فيه؟ فقال الرسول: بل على يقين أنّه قاله. فأمر الإسكندر أن تُكتَب ألفاظُه حرفا حرفًا ويُعاد إلى المَلِك مع رسولٍ آخر، فيُقرأ عليه ويُترجَم له. فلما قُرِئَ الكتاب على المَلِك فمرّ بذلك الحرف، أنكره. فقال للترجم: ضَعْ يَدِي على هذا الحرف. فوضعها. فأمر أن يُقطَع ذلك الحرف بسكّينة(1)، فقُطِع من الكتاب. وكتب إلى الإسكندر: إن رأْس(2) المملكة صحّةُ فطرةِ المَلِك، ورأْس(2) المَلِك صدقُ لهجةِ رسوله، إذ كان عن لسانه ينطِقُ وإلى أُذُنِه يُؤدّى. وقد قطعتُ بسِكّينتي مالم يكن من كلامي، إذ لم أجدْ إلى قطع لسان رسولك سبيلاً. فلما جاء الرسول بهذا إلى الإسكندر، دعا الرسول الأوّل، فقال: ما حمَلَك على كلمةٍ أردتَ بها فساد مُلكين؟ فأقرّ الرسول أن ذلك كان لتقصير رآه من المُوجَّه إليه. فقال الإسكندر: فأراك لنفسك سعيت، لا لنا! فلمّا فاتك بعضُ ما أمّلتَ، جعلتَ ذلك ثأرًا في الأنفُس الخطيرة الرفيعة! فأمر بلسانه فنزع من قفاه(3).

(١٠٣) (١٠٤)

(١) المُدْيَة يسميها العرب سكّينا وسكّينة. والاسم الأوّل أشهروا كثر شيوعا، والسكّين يذكّر ويؤنث؛ وقال بعضهم إن السكّينة خطأ، وليس كذلك. فقد جاء في شرح الفصيح أنها لغة قوم من بني ربيعة، وأوردها الفرّاء وابن سيده. قال الشاعر: سِكّينةٌ من طبع سيفِ عَمْرو * نِصابُها من قَرْنِ تَيْسٍ بَرّى.

وفي الحديث: قال المَلَك لماشقّ بطنه: إِيتني بالسكينة (انظر "تاج العروس" في س ك ن، "وشفاء الغليل" صفحة ١٢٣). وقد استعمل الجاحظ كلا من اللفظين أحدهما هنا والثاني في صفحة ١٠٠ من هذا الكتاب.

(٢) سـ: أس.

(٣) انظر الحاشية ١ من الصفحة السابقة. وقد أورد هذه الحكاية صاحب "محاسن الملوك" (ص ٦١) واستعمل ألفاظ الجاحظ نفسها.

احتياط الملك في منامه ومقيله

ومن أخلاق الملك أن لا يكون لمنامه في ليل ولا نهار موضعٌ يُعرف به، ولا حاوٍ(١) يُقصد إليه. إذ كانت أنفس الملوك هيَ المطلوب غِرّتها(٢)، والموكّل برعاية سِنَتها(٣) وساعة غفلتها.

ويقال إن ملوك آل ساسان لم يُعرف مَبِيت أحد منهم قطُّ ولا مَقِيلُه.

سنة ملوك الفرس في النوم

فأما أردشير بن بابك وسابور وبَهرام ويزدجرد وكسرى أبرويز وكسرى أنوشروان، فكان يفرش للملك منهم أربعون فِرَاشا [في أربعين موضعا](٤). ليس منها فِرَاش إلا ومَن رآه من بعيد على الانفراد لا يَشُكُّ(٥) أنه فِرَاش المَلِك خاصّةً [وأنه نائم فيه](٤). ولعلّه أنْ لا يكون على واحد منها. بل لعلّه ينام على مجلس رقيق. وربما توسّد ذِرَاعه، فنام.

السنّة النبوية في النوم

ولو لم يجب على ملوكنا حفظُ منامهم وصيانته عن كل عينٍ تطرِفُ وأُذُن تسمَعُ إلّا أن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) فعله ــ وهو من الله بمكانه المخصوص من كلاءته إيّاه وحراسة الرُّوح الأمين له ــ لقد كان يحق عليهم أن يقتدوا به ويمتثلوا فعله. وقد كان المُشركون همّوا بقتله، فأخبره جبريل (صلى الله عليهما) عن الله (جل ثناؤه) بذلك، فدعا عليَّ بن أبي طالب (عليه السلام) فأنامه على فِرَاشه، ونام هو (صلى الله عليه وسلم) بمكان آخَر. فلمّا جاء المشركون إلى فِرَاشه، فنهض منه عليّ، انصرفوا عنه.

(١٠٥)

---

(١) في صـ، سـ: "حوى" [واخترتُ الحاوىَ لأنه من اصطلاحات الفلسفة بمعنى الحيِّز]

(٢) صـ، عزتها.

(٣) ضبطه في سـ: "سُنّتها" وهو سبق قلم.

(٤) الزيادة عن "محاسن الملوك".

(٥) سـ: إلا ومن ورائه من بعيد على الانفراد فراش لايشك الخ.

ففى هذا أكبر الأدلة وأوضح الحجة على ما ذكرنا . إذ كانت أنفسُ الملوك هى الأنفس الخطيرة الرفيعة التى توزن بنفوس كلّ من أظلّت الخضراء[١] وأقلّت الغبراء[٢] .

إطلاع الوالدين فقط على منام الملك

وكانت الأعاجم تقول : لا ينبغى للمَلك أن يَطّلع على موضع منامه إلّا الوالدان فقط[٣] ؛ فأما مَن دُونهما ، فالوحشةُ منه وتركُ الثقة به أبلغُ فى باب الحزم ، وأوكد فى سياسة المُلك ، وأوجبُ فى الشريعة ، وأوقع[٤] فى الهُوَينا[٥] .

* * *

معاملة الابن للملك

ومن حق المَلك أن يُعامِلَه ابنُه كما يُعامِلُه عَبْدُه ، وأنْ لا يَدخل مَدَاخِلَه إلّا عن إذنه ، وأنْ يكون الحجاب عليه أغلظ منه على مَن هو دُونه من بِطانة الملك وخَدَمه ، لئلّا تحمله الدالّة على غير ميزان[٦] الحقّ .

ما فعله يزدجرد مع ابنه بهرام

فإنه يُقال : يزدجرد رأى بَهرامَ ابنَه بموضع لم يكن له ، فقال : مَرَرْتَ بالحاجبِ ؟ قال : نعم . قال : وعَلِم بدخولك ؟ قال : نعم . قال : فاْخرُجْ إليه واْضرِبْهُ ثلاثين سَوْطًا ، ونَحِّه عن السِّتْرِ ، ووَكِّلْ بالحجابة أرادمرد[٧] . ففعل ذلك بَهرام وهو إذ ذاك ابنُ ثلاث عشرة . ولم يَعلمِ الحاجبُ فيمَ غضب الملك عليه . فلما جاء بَهرام بعد ذلك ليدخل ، (١٠٦)

---

(١) السماء .

(٢) الأرض .

(٣) نقل هذه الأحكام صاحب "محاسن الملوك" باختصار مع استعمال ألفاظ الجاحظ (ص ٩٣)

(٤) س : وأرفع .

(٥) التؤدة والرفق .

(٦) ص : مراد .

(٧) لم أعثر على شئ يتعلق بهذا الحاجب ، ولم أجد هذه الحكاية فى غير الجاحظ . وفى "محاسن الملوك" سماه "فلاما" .

دفع أَزَادَمَرْدُ في صدره دَفعةً وَقَذَه[(١)] منها، وقال: إن رأيتُك بهذا الموضع ثانيةً، ضربتُك ستين سوطا، ثلاثين منها لجنايتك على الحاجب بالأمس، وثلاثين لئلا تطمع في الجناية عليّ[(٢)]. فبلغ ذلك يَزْدَجِرْدَ، فدعا أزادمَرْدَ، فخلع عليه وأحسن إليه[(٣)].

ما فعله معاوية مع ابنه يزيد

ويقال إن يزيد بن معاوية كان بينه وبين أبيه بابٌ. فكان إذا أراد الدخول عليه قال: ياجاريةُ! انظرى هل تحرّك أمير المؤمنين؟ فجاءت الجارية [مرّة] حتى فتحت الباب، فإذا معاوية قاعدٌ، وفى حِجره مُصْحَفٌ، وبين يديه جارية تصفّحُ عليه. فأخبرت يزيدَ بذلك، فجاء يزيد فدخل على معاوية. فقال له: أى بُنَيَّ! إنى إنما جعلتُ بينى وبينك بابًا، كما بينى وبين العامّة. فهل ترى أحدا يدخل من الباب إلا بإذنى؟ قال: لا. قال: فكذلك فليكن بابك! فإذا قُرِعَ عليك فهو إذنُك[(٣)].

ما فعله المهدى مع ابنه الهادى

وهكذا ذُكِرَ لنا أن موسى الهادى دخل على أمير المؤمنين المهدىّ فزبره[(٤)] وقال: إيّاك أن تعود إلى مثلها إلا أن يُفتح بابُك[(٥)]!

ما فعله الحاجب بولد المأمون

(١٠٧)

وذُكر لنا أن المأمون لما استعر به[(٦)] الوجع، سأل بعضُ بنيه الحاجبَ أن يُدخِلَه عليه ليراه. فقال: لا والله! ما إلى ذلك سبيل؛ ولكن إنْ شئتَ أن تراه من

(١) أى أوجعته وآلمته كثيرا. والوقذ شدّة الضرب. وفى "محاسن الملوك": فدعّه دفعةً أوقعه بها

(٢) فى "محاسن الملوك": وثلاثين على استمرار جنايتك.

(٣) روى هذه الحكاية بتلخيص خفيف صاحب "محاسن الملوك" (ص ٨٦ ــ ٨٧)

(٤) انتهره.

(٥) نقلها فى "محاسن الملوك" (ص ٨٧).

(٦) أى اشتدّ عليه، تشبيهًا باستعار النار. وفى صـ: استغرقه. [ولعل صواب الرواية: استمرّ] وفى "المحاسن والمساوى": اشتد.

حيثُ لا يراك، فاطَّلِعْ عليه من ثُقَيب في ذلك البـاب. فجاء حتَّى اطَّلَعَ عليه وتأمَّلَه ثم انصرف.

ما فعله الحاجب بولد المعتصم

وذكر لنا أن إيتاخ[(١)] بَصُرَ بالواثق في حياة المعتصم واقفًا في موضع لم يكن له أن يقف فيه، فزَبَره وقال: تنحَّ! فوالله لولا أني لم أتقدَّم[(٢)] إليك في ذلك، لضربتك مائة عَصًا[(٣)].

واجبات ابن الملك

وليس لابن المَلِك من المَلِك إلّا ما لعبده من الاستكانة[(٤)] والخضوع والخشوع، ولا له أن يُظهِر دالَّة الأُبوّة وموضع الوراثة. فإن هذا إنمـا يجوز في النَّمَط الأوسط من الناس ثم الذين يلونهم. فأما الملوك فترتقي عن كلّ شيء يُمَتُّ[(٥)] به.

وليس لابن المَلِك أن يسفك دمًا، وإن أوجبت الشريعة سَفْكه وجاءت المِلَّة

---

(١) قد يرد هذا الاسم بتقديم التاء على الياء (إتياخ) كما في س، وكما في بعض نسخ "كتاب الفهرست". ولكن الصواب تقديم الياء التحتية. ومعناه في اللغة الفارسية الغازي والفاضل، كما في "برهان قاطع". كان أصل هذا الرجل طبّاخا ثم ترقّت به الأحوال إلى أن صار مقدّم الجيوش وكبير الدولة وصاحب مصر في أيام المعتصم. ولذلك قال بابك إن المعتصم لم يبق لديه أحدا إلا وجّه به إليه، حتى طباخه. وبعث بذلك المعنى إلى ملك الروم، يغريه بالخليفة حينا ضايقه وأخذ بخناقه، وكتب له: "فإن أردتَ الخروج إليه، فليس في وجهك أحد يمنعك". وقد تولّى إيتاخ أمر اليمن والكوفة والحجاز وتهامة ومكة والمدينة ودُعي له على المنابر. وانتهى أمره بأن خافه المتوكل وأعمل الحيلة في القبض عليه وإماتته عطشا. وأخذ له من الذهب ألف ألف دينار. كانت وفاته سنة ٢٣٤. (أنظر "النجوم الزاهرة" وابن الأثير في فهارسهما، و"شذرات الذهب" ج ١ ص ٥٠٠)

(٢) س: أني أتقدم.

(٣) الآداب والحكايات الزاردة في هذه الصفحة وفي التي قبلها منقولة بالحرف الواحد وبهذا الترتيب في "المحاسن والمساوى" (ص ١٧٠ — ١٧٢).

(٤) صـ: الخنوع.

(٥) في س: "تمت". والمَتّ هو التوسّل والتوصل بقرابة أو حُرمة أو دالَّة أو نحو ذلك. وفي صـ: فترق عن كل شيء يمتّ إليه.

به ، إلا عن إذن المَلك ورأيه. لأنه ــ متى تفرد بذلك ــ كان هو الحاكم دون المَلك. وفى هذا وَهْنٌ على المَلك وضَعْفٌ[(١)] فى المملكة.

وكذلك أيضا ليس له أن يحكُمَ فى الحلال والحرام والفُرُوج والأحكام، وإنْ كان ولىَّ عهدِ المَلك والمُقَلَّدَ إرثَ أبيه والمحكومَ له بالطاعة، إلا عن أمره ورأيه.

(١٠٨) وليس له ــ إذا جمعته والمَلكَ دارٌ واحدةٌ ــ أنْ يأكلَ إلّا بأكل المَلك ولا [أن] يشرَبَ إلّا بُشربه ولا [أن] ينامَ إلّا بمنامه.[(٢)]

وكذا يجب عليه فى كلّ شئ من أموره السارّة والضارّة أنْ يكون له تابعًا ولحركته تاليـًا.

وليس هذا على [مَن] دون ابن المَلك من بطانته وسائر رعيته. لأن ابن الملك عُضوٌ من أعضائه وجزء من أجزائه. والمَلك أصلٌ والابْنُ فرعٌ، والفرع تابعٌ للأصـل، والأصلُ مُستغنٍ عن الفرع.

وليس لابن المَلك أن يرضَى عمن سخِط عليه الملك. وإن كان المسخوطُ عليه لاذنبَ له عنـده. لأنّ من العـدل والحقّ عليه أنْ يواليَ مَن والى المَلك، ويعاديَ مَن عاداه. ولا ينظرْ فى هذا إلى حظّ نفسه وإرادة طبعه، حتّى يبلغ من حقّ الملك ما إنْ وَجَدَ إلى غِيلَتِه[(٣)] سبيلا أنْ يقتُلَه. وعلى هذا ينبغى أن يكون نظام العامّة لمَلكها.

(١) صحـ : وضعة.

(٢) الواو هنا واو المعية.

(٣) الضمير هنا يعود على المسخوط عليه. وفى صحـ : حيلته.

* * *

شهوة الاستبدال

وقد تحدث فى أخلاق المَلك مَلالةٌ لشهوة الاستبدال[١] فقط. فليس لصاحب المَلك، إذا أحدث الملكُ خُلُقًا، أنْ يعارضه بمثله، ولا إذا رأى نَبْوةً وآزورارةً، أنْ يُحدِثَ مثله. فإنّه متى فعل ذلك فَسَدتْ نيّته. ومَن فسدت نيّته، عادت طاعته معصيةً وولايتُه عداوةً. ومَن عادى الملك، فنفسَه عادى وإياها أهانَ.

(١٠٩)

الحيلة فى معالجتها

ولكن عليه، إذا أحدَثَ المَلك الخُلُقَ الذى عليه بِنْيةُ أكثر الملوك، أنْ يَحتالَ فى صرف قلبه إليه. والحيلةُ فى ذلك يسيرةٌ: إنما هو أن يطلب خَلْوته فيُلهِيه بنادرةٍ مُضحِكة أو ضربِ مَثَلٍ نادرٍ أو خبرٍ كان عنه مُغَطًّى، فيكشفُهُ له.

ما صنعه ما زيار المضحك مع أحد ملوك العجم

كما فعل بعض سُمّار ملوك الأعاجم. أظهر الملك له جَفْوةَ المَلالةِ فقط. فلما رأى ذلك، تعلّم نُباح الكلاب وعُوَاء الذئاب ونَهِيق الحمير وصِياح[٢] الديوك وشَحِيجَ البغال وصَهِيل الخيل. ثم آحتال حتّى دخل موضعا يقرُبُ من مجلس المَلك وفراشه يُخفى أمره[٣]. فنبح نُباح الكلاب. فلم يشكَّ المَلك أنه كلبٌ وآبنُ كلب. فقال: آنظروا ماهذا! فعوى عُواء الذئب. فنزل المَلك عن سريره. فنهق نهيق الحمار، ومرَّ الملك هاربًا. وجاء غلمانه يَتْبَعُون الصوتَ. فكلما دَنَوْا منه، أحدثَ معنًى آخرَ، فأحجموا عنه. ثم آجتمعوا فاقتحموا عليه، فأخرجوه وهو عُرْيانٌ مختبِئٌ. فلمّا نظروا إليه، قالوا للملك

---

(١) سـ: الاستبداد.

(٢) فى المسعودى طبع باريس: "رقاء"؛ وفى طبعة بولاق: "زقاء". وهذا هو الصواب، ومعناه صياح الديك. (أنظر القاموس وشرحه)

(٣) فى المسعودى: "وأخفى أثره" ولعل الأقرب للصواب "وأخفى أمره". وفى صـ: من مجلس الملك وموضع منامه.

هذا مازِيار[1] المضحك! فضحك الملك حتّى تبسّط وقال: ويلك![2] ماحملك على هذا؟ قال: إن الله مسخني كلبا وذئبا وحِمارا، لمّا غضب عليّ المَلك. فأمر أن يُخلَع عليه ويُردّ إلى موضعه.[3] (١١٠)

وهـذا لايفعله إلا أهلُ الطبقة السُّفلى. فأما الأشرافُ، فلهم حيل غير هـذه، مما يُشْبِه أقدارَهم.

*كما فعل رَوْح بن زِنباع، وكان أحد دُهاة العرب، رأى من عبدالملك بن مروان نَبْوَة وإعراضًا. فقال للوليد: ألا ترى ما أنا فيه من إعراض أمير المؤمنين عني بوجهه، حتّى لقد فغرت السباع أفواهها نحوى، وأهوت بمخالبها إلى وجهى؟ فقال له الوليـد: اِحْتَل فى حديث يُضحكه! فقال رَوْح: إذا اطمأنّ بنا المجلس، فسلْنى عن عبد الله بن عمر، هل كان يمزح أو يسمع مِزاحًا؟ فقال الوليد: أفعلُ.

وتقدّم فسبقه بالدخول وتبعه رَوْحٌ. فلمّا اطمأنّ بهـم المجلس، قال الوليد لرَوْح: هل كان ابن عمر[4] يسمع المزاح؟ قال: بلغنى ابن أبى عَتيق[5] أن امرأته عاتكة بنت عبد الرحمن هجته، فقالت:

---

(١) سماه فى المسعودى: "مرزبان" وكره.

(٢) ص: ويحك.

(٣) نقل المسعودى هذه الحكاية. (مروج الذهب ج ٥ ص ٢٨٣)

(٤) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب. وورعه وتقواه أشهر من نار على علَم. (وترجمته فى "الطبقات الكبرى" لابن سعد. وفى "أسد الغابة" وغيرهما من الكتب الكثيرة الخاصة بالصحابة)

(٥) هو عبدالله بن أبى عتيق بن عبدالرحمن بن أبى بكر الصِّدّيق بن أبى قحافة. كان من نُسّاك قريش وظرفائهم بل قد بذّهم ظرفا. وله أخبار كثيرة. فى الخلاعة بغير رفَث وفى المجون بغير فسوق. وقد غلبت عليه الدعابة واشتهر بها. (انظر "العقد الفريد" ج ٣ ص ٢٢٨؛ وراجع "كامل" المبرد و"الأغانى" و"الكامل" لابن الأثير بمقتضى فهارسها)

ذهب الإله بمـا تعيش به * وقمرتَ ليلك أيّمـا قمـرِ

أنفقتَ مالَكَ غـير محتشِمٍ * فى كل زانيـةٍ وفى الخمرِ

قال: وكان آبن أبى عتيق صاحب غَزَل وفُكاهة، فأخذ هذين البيتين ـ وهما فى رقعة ـ فخرج بهما. فإذا هو بعبد الله بن عمر، فقال: يا أبا عبدالرحمن! أُنظر فى هذه الرقعة، وأَشِرْ علىّ برأيك فيها. فلمّا قرأها، آسترجع عبدُ الله. فقال: ما ترىٰ فيمن هجانى بهذا؟ قال عبدالله: أرىٰ أنْ تعفُوَ وتصفَحَ! قال، والله يا أبا عبدالرحمن، لئن لقيتُ قائلها لأنيلنّه نيلـا[1] جيّـدا! فأخذ آبنَ عمر أفْكَلٌ[2]، وآرْبَدّ لونُه وقال: ويلك! أما تستحى أن تعصِيَ الله؟ قال: هو واللهِ ما قلتُ لك.

وآفترقا. فلما كان بعد ذلك بأيام، لقيه. فأعرض آبن عمر بوجهه، فقال: بالقبرِ ومَن فيه، إلّا ما سمعتَ كلامى![3] فتحوّبَ عبد الله، فوقف وأعرضَ عنه بوجهه. فقال: علمتَ يا أبا عبدالرحمن أنى لقيتُ قائلَ ذلك الشعر فنلته[1]؟ فصَعِق آبن عمر ولُبِطَ به. فلما رأىٰ ماحلّ به، دنا من أُذُنه فقال: إنها آمرأتى! فقام آبن عمر فقبّل ما بين عينيه.

فضحك عبدُ الملك حتى فحص برجله وقال: قاتلك الله ياروْحُ! ما أطيبَ حديثَك! ومدّ إليه يديه فقام رَوْحٌ فأكبَّ عليه وقبّل أطرافه وقال: ياأميرالمؤمنين، الذنبِ فاعتذِرُ

(١) أُنظر الحاشية ٢ ص ٧٩ من هذا الكتاب.

(٢) الأفكل الرعدة. وفى المسعودىّ: "أفْكَلٌ ورعدة"، من باب عطف التفسير.

(٣) أقسم عليه بالروضة الشريفة وبالمدفون فيها وهو النبيّ صلى الله عليه وسلم. فتحوّب أى بجد فى عدم الوقوف إثمـا، فوقف ولكن معرضا عنه بوجهه.

أم لملالةٍ فأرجو عاقبتها. قال: لا والله! ماذاك من شئٍ نكرهه. ثم عاد له أحسن حالاً"(١)

ونحو هـذا يُحكَى عن جرير بن الخَطَفَى(٢)، حين دخل على عبـد الملك، وقد أوفده إليه الحجّاج بن يوسف. فدخل محمد بن الحجّاج وقال لجرير: كنْ فى آخر مَن يدخل. فلمّا دخل جرير، قال محمد: ياأمير المؤمنين هذا جريرُ بن الخطفى، مادحُك وشاعرُك! قال: بل مادحُ الحجّـاج وشاعرُه. قال جرير: فقلتُ: إنْ رأى أميرُ المؤمنين أن يأذنَ لى فى إنشاد مديحه؟ قال هاتِ بالحجاج! قال: فقلت: بل بك ياأمير المؤمنين! قال: هاتِ فى الحجاج! فأنشدته قولى فى الحجاج:

صَبَرْتَ النفسَ ياابن أبى عُقَيْلٍ * مُحافَظَةً، فكيف ترى الثوابا؟
ولو لم تُرْضِ ربَّك، لم يُـنَزِّلْ * مع النصرِ الملائكةَ الغِضابا.
إذا سَعَرَ الخليفةُ نارَ حَرْبٍ، * رأى الحجّـاجَ أثقبَها شِهابا.

فقال: صدقتَ، هو كذلك! ثم قال للأخْطَل(٣)، وهو خلفى وأنا لا أراه: قُمْ فهاتِ

(١) هذه الفقرات الخمس المحصورة بين نجمتين * * منقولة عن صـ. وقد نقل صاحب "محاسن الملوك" هذه الحكاية بالحرف الواحد تقريبا (ص ٧٦ ــ ٧٧). أما المسعوديّ فقد أوردها بألفاظ أخرى وزيادة ونقص فى المعنى (ج ٥ ص ٢٨٤ ــ ٢٨٦)، وكذلك النويريّ فى "نهاية الأرب فى فنون الأدب" (فى الباب الثالث من القسم الثالث من الفنّ الثانى فى المجون والنوادر والفكاهات والمُلَح). ولكن عباراتهم كلهم فيها خالية من حسن الديباجة وجمال الترصيف الذى تراه فى عبارة الجاحظ.

(٢) سماه فى "الصحاح" الخَيْطَفَى. واللفظتان معناهما واحد، وهو السريع. وهما مأخوذان من الخطف وهو الاستلاب. وهو لقب جدّه، لبيت قاله فى شعره. ولكن الاسم المخفف الذى استعمله الجاحظ هو الأكثر شيوعا، وقد ورد فى شعر الأخطل. (أنظر "تاج العروس"، "كتاب الاشتقاق" لابن دُرَيْد (ص ١٤١)، "ديوان الأخطل" الذى نشره الأب الفاضل أنطون صالحانى (ص ٢٢٤)؛ وغيرها من دواوين الأدب)

(٣) سبب تسمية الأخطل أنّ اثنين تحاكما إليه فأقسم أنهما لئيمان، هما وأمهما وهو نفسه أيضا. فقيل له إن هذا لخَطَلٌ من قولك. فسمّى الأخطل. (أمالى القالى ج ٢ ص ٢٣٤)

(١٦١) مديحَنا! فقام فأنشده فأجاد وأبلغ. فقال: أنت شاعرُنا وأنت مادحُنا. قُم فأركبْه! قال: فألقى النصرانيُّ ثوبَه، وقال: جَبِّ[1]! يا ٱبنَ المَرَاغة[2]. قال: وساء ذلك مَن حضر من المُضَريّة، وقالوا: يا أمير المؤمنين، لا يركبُ الحنيفَ المسلمُ، ولا يُظهَر عليه. فٱستحيا عبدُ الملك، وقال: دَعْهُ! قال: فٱنصرفتُ أخزىٰ خلق الله حالًا، لما رأيتُ من إعراض أمير المؤمنين عنى، وإقباله على عدوّى. حتى إذا كان يومُ الرَّواح للوداع، دخلتُ لأودّعه، فكنتُ آخرَ مَن دخل عليه. فقال له محمد بن الحجّاج: يا أميرَ المؤمنين، هذا جريرٌ، وله مديحٌ فى أمير المؤمنين. فقال: لا، هذا شاعرُ الحجّاج! قلتُ: وشاعرُك يا أمير المؤمنين! قال: لا. فلما رأيتُ سوء رأيه، أنشأتُ أقول:

أتصحُو أم فؤادُك غيرُ صاحِ؟ ...

فقـال: ذاك فؤادُك!

ثم أنشـدتُه حتى بلغتُ البيتَ الذى سرّه، وهو قولى:

ألستُم خيرَ مَن ركِبَ المطايا * وأندىٰ العالَمِينَ بُطونَ راحِ؟

فٱستوىٰ جالسًا، وكان متّكئًا، فقال: بلىٰ نحن كذلك، أعِدْ! فأعدتُ. فٱسفرّ لونُه

---

(١) أمره بوضع يديه على ركبتيه أو على الأرض ليتمكّنَ من ركوبه. و"جَبِّ" فعل أمر من التجبية بمعنى الأنحناء. قال فى "لسان العرب" فى مادة ج ب ى مانصه: وجَبّى الرجُل وضع يديه على ركبتيه فى الصلاة أو على الارض. "وهو أيضًا ٱنكبابه على وجهه". والعامة فى مصر تقول الآن فى مثل هـذا المقام: "طاطى البصلة" و يعنون بالبصلة الرأس. وذلك فى حال مايريد أحدهم ركوب الآخر.

(٢) هذا ٱسم أمّ جرير. وقيل إن الفرزدق والأخطل سمياها كذلك فى هجاء كل منهما له. وقيل إن ذلك تعيير له بنى كليب لأنهم أصحاب حمير. وورود جرير على عبد الملك مذكور فى كثير من كتب الأدب مثل "الأغانى" و"العقد الفريد" (ج ١ ص ١٥١). ولكن رواية الجاحظ هى أوفى وأحسن مارأيتُ.

(١١٢) وذهب ما كان فى قلبه، ثم ٱلتفتَ إلى محمد [بن الحجاج] فقال: تُرىٰ أُمَّ حَزْرَةَ[1] تُرْوِيها مائةٌ من الإبل؟ قلتُ: نعم يا أمير المؤمنين! إن كانت من فرائضِ كَلْبٍ[2] فلم تُرْوِها[3]، فلا أرواها الله! قال: فأمر لى بمائة فريضة. ومددتُ يدى ـ وبين يديه صِحَافٌ أربعٌ من فضة قد أُهدِيَتْ إليه ـ فقلتُ: المِحْلَبَ، يا أمير المؤمنين! فأخذتُ منها واحدةً. فقال: خذها، لا بُورِك لك فيها! قلتُ: كلُّ ما أخذتُ من أمير المؤمنين مباركٌ لى فيه.[4]

* وهكذا فعل بالأمس عبد الملك بن مهلهل الهمْدانى[5]، وكان سليمان بن أبى جعفر[6] قد جفاه. فأتاه يوما فى قائم الظهيرة، والهجيرةُ تَقِدُ[7]. فٱستأذن، فقال له الحاجب: ليس هـذا بوقت إذنٍ على الأمير. فقال له: أَعْلِمْهُ بمكانى[8]. فدخل عليه فأعلمه، فقال له: مُرْهُ يُسَلِّمْ قائمًا ويخفِّفْ! فخرج الحاجب فأذِن له وأمره بالتخفيف. فدخل فسلَّم قائمًا ثم قال: أصلح الله الأمير! إنى ٱنصرفتُ بالأمس نحو منزلى، و[قد]

(١) حزرة هى بنت جرير. وكان يُكْنَى بها. قال فى "تاج العروس" ما نصّه: "وأبو حزرة كنية سيدنا جرير رضى الله عنه". ولا أدرى لماذا لقّبه بالسيادة ثم ترضّى عنه (؟ !) ويظهر أنه فهم أنها كنية جرير بن عبد الله البجلى الصحابى، وليس كذلك.

(٢) صـ: كلاب.

(٣) صـ: رواها.

(٤) روى صاحب "الأغانى" هذه القصة باختلاف فيه زيادة وفيه نقص (جزء ٧ ص ٦٦ و ٦٧). وانظر القصة بعينها مروية بتفاصيل وافية فى "ذيل أمالى القالى" (ص ٤٣ ـ ٤٦) ورواها باختصار ألفاظ الجاحظ فى "المحاسن والمساوى" (ص ٢٣٠ ـ ٢٣١).

(٥) صـ: عبد الملك بن هلال الهماى. وقد صححتُ حسبما فى المسعودىّ طبع باريس وبولاق

(٦) هو سليمان بن أبى جعفر المنصور، وكان من قواد موسى الهادى. (مروج الذهب ج ٦ ص ٢٦٦)

(٧) أى كانت شدة الحَرّ تتوقّد. وفى مروج الذهب: وٱحتدام الهجير.

(٨) صـ: "أعلمه موضعى". وقد ٱخترتُ رواية المسعودىّ.

أمسيتُ: فبينا أنا فى الطريق، إذا بمؤذّن قد ثوّب[1] بصلاة المغرب على مسجد مغلّق[2]. فصعدتُ ثم صعدتُ ثم صعدتُ... قال سليمان: فبلغتَ السماءَ، فكان ماذا؟ قال: فتقدّم إنسانٌ، إما كُرَيْجِيٌّ وإما سُنَيْدِيٌّ وإما طُمطانيٌّ[3]. فأمّ القوم فقرأ بكلامٍ لم أفهمْهُ [ولغةٍ ما أعرفها]، فقال: "ويلٌ لكل هرره زَمّاً مالا وعدّده" يريد "ويلٌ لكلّ هُمَزَةٍ لُمَـزَةٍ الذى جَمَعَ مالًا وعدَّده". قال: وإذا خلفه رجُلٌ سكرانُ مايعقِلُ سُكْرًا، فلمّا سمع قراءته ضرب بيديْه ورجليْه وجعل يقول "ايرعكى! ايرعكى دركلى! ايرعكى دركلى فى حرمِّ قاريك!"[4] فضحك سليمان ثم تمرّغ على فراشه، وقال: أُدنُ منى يا [أبا] محمد، فأنت أطيب أُمّة محمد! ثم دعا له بخِلعة وقال: "الزَمِ البـابَ واْغدُ فى كل يومٍ." وعاد إلى أحسن حالاته عنده[5]*

وهذه أخلاق الملوك لمن فهِمها[6]. وليس بعَجَب أن تتلوّن أخلاقُهم، إذ كنا نرى أخلاق القَرِينِ المساوى والشريكِ والإلف تتلوّن ولا تَستَوِى، ولعلّه يجد عن إلفه

(١ – ٢) ثوّب: دعا إلى الصلاة. [وفى المسعودى طبع باريس وبولاق: "فدنوتُ ثم صعد إلى مسجد معلق". وظاهرٌ أن رواية صـ أوقعُ وأقعدُ وأتمُّ].

(٣) فى المسعودى طبع باريس "إما كردى وإما طمطانى" وفى طبع بولاق: "إما كردى أو طمطانى"

(٤) أُنظر الروايات الأخرى فى المسعودى طبع باريس وبولاق. وكلها محرّفة من النساخين كما هو ظاهر وقد نبه على ذلك مترجم المسعودى. [وأنظر حاشية ٤ صفحة ٧٥ من هذا الكتاب]

(٥) هذه الفقرة المحصورة بين نجمتين * * منقولة عن صـ. والحكاية أوردها المسعودى بالحرف الواحد تقريبا عن الجاحظ دون أن يشير إليه (راجع "مروج الذهب" طبع باريس ج ٥ ص ٢٨٦ – ٢٨٨، وطبع بولاق ج ٢ ص ١٠٣)

(٦) صـ: إن فهمتها.

وقرينه وشكله مَنْدوحَةٌ . فكيف بِمَن مَلَكَ الشرق والغرب ، والأسود والأبيض[1] ، والحرّ والعبد ، والشريف والوضيع ، والعزيز والذليل ؟

ثمرات التأديب بالجفوة

وعلى أنه ربما كانت جَفْوَةُ المَلِك أصلَحَ فى تأديب الصاحب من اتّصاله بالأُنس ، وإن كان ذلك لا يقع بموافقة المجفُوّ . لأن فيها فراغَ المجفُوّ لنفسه وتخلُّصه لأمره[2] ولِمَا كان لا يمكنه الفَراغ له من مُهِمّ أمره . وفيها أيضا أنه إن كان المجفُوّ من أهل السَّمَر وأصحاب الفُكاهات ، فبالحَرَى أن يستفيد بتلك الجفوة علما طريفا مُحْدَثاً له بالكتب ودراستها أو بالمشاهدة والملاقاة ، ورُبّما كان لا يمكنه قبل ذلك ، وهو فى شغله . ومنها أن جفْوة المَلِك ربما أدّبت الصاحب الأدبَ الكبيرَ . وذاك أنه كلُّ مَن أنفَسَ[3] المَلِكُ مجلسَه وطال معه قعودُهُ وبه أُنسُه ، تمنّى الفراغ وطلبت منه نفسُه التخلُّص والراحةَ والخلْوةَ لإرادة نفسه . كما أنه مَن كثُر فَراغُه وقلَّ أُناسه ، جُفِيَ واطُّرِحَ ، وطَلَبَ الشغلَ والأُنسَ وما أشبه ذلك .

فبهذه الأخلاق رُكِّبَتْ الفِطَرُ وجُبِلتْ النفوس .

فإذا جاءه الفراغ الذى كان يطلبه ويتمناه من الجهة التى لم يقدِّرها ، طلبت نفسه الموضع الذى يملُّه والشُّغل الذى كان يَهرُبُ منه .

(١) سـ : الأحمر .

(٢) سـ : وتخلص أمره عليه . صـ : وخاص أمرد عليه . وقد صححتُ بحسب السياق .

(٣) بمعنى أن الملك يجد مجلسه وجلوسه معه نفيسا . وفى سـ ، صـ : "نفس" . [ولا معنى لها . ولذلك صححتُ المتن بما وصل اليه اجتهادى .]

ومنها أنه كان فى عزٍّ ومَنَعة وأمرٍ ونهيٍ، وكان مرغوبا إليه مرهوبا منه، ثم [لما] حدثتْ جفوة الملك، أنكر ما كان يعرف، وعصاه مَن كان له مطيعا، وجفاه مَن كان به برًّا.

(١١١) ومنها أن جفوة الملك تُحدِثُ رقة[١] على العامّة ورأفة بهم، وتُحدِثُ للجفوّ حُسْنَ نيّةٍ.

ومنها أن الرضا، إذا كان يعقب الجفوة، وَجَبَ على المجفوّ شكر الله تعالى على ما ألْهَمَ الملك فيه فتصدّق وأعطى وصام وصلّى.

فكلُّ شئ من أمر المَلِك حَسَنٌ فى الرضا والسُّخط، والأخذ والمنع، والبذل والإعطاء، والسرّاء والضرّاء. غير أنه يجب على الحكيم المميِّز أن يَجْهَدَ بكلّ وُسع طاقته أن يكون من المَلِك بالمنزلة بين المنزلتين. فإنها أحرى المنازل بدوام النعمة، واستقامة الحال، وقلة التنافس ومصارعة[٢] أهل الحسد والوُشاة.

صفات المقربين

وليس من أخلاق الملك أن يُدْنِيَ[٣] مَن عَظُم قدرُه واتّسع عِلْمُه وطاب مَرْكَبُه، أو ظهرتْ أمانته أو كَمُلَتْ آدابه.

(١) أى رحمة.

(٢) فى س: "مسارعة". وفى ص: "مشاغبة".

(٣) كذا فى س، ص. نعم إن بقية الكلام ربما تنفى النفى، ولكن قوله بعد ذلك إن الملك يحتاج إلى هذه الطبقة ضرورةً يدلّ على أن تقريبهم ليس من طباع الملوك ولكن من حاجتهم إليهم. ويؤكد ذلك ختام كلامه بأن التقريب للقرناء والمحدّثين كائنا من كانوا ومن حيث كانوا.

وهذه الصفاتُ هي جنسٌ آخَرُ يحتاج المَلِك إلى أصحابه ضَرورةً: لحاجتـه من القضاة إلى الثقة والأمانة، وحاجتـه من الطبيب إلى الحِـذْق بالصناعة والرَّكانة(١)، وحاجته من الكاتب إلى تحبير الألفاظ ومعرفة مخارج الكلام والإيجاز في الكُتُب، وما أشبه ذلك. فأما القُرَناء والمحدِّثون(٢) وأصحاب الملاهي ومَن أشبههم، فكلُّ مَن دنا (١١٤) منهم من المَلِك وعَلِقَ به: كائنًا مَن كان ومِن حيثُ كان.

وكذا وجدنا في كُتُب الأعاجم وملوكها.

كلمة أنوشروان، وأمثولة كليلة ودمنة

وفيما يُذكَر عن أنُوشِرْوان أنه قال: "صاحِبُك مَن علق بثوبك."

وكذا وجدنا في أمثال "كَليلَةَ ودِمْنَةَ" أنّ الملك "مِثل الكَرْم الذي لا يتعلّق بأكرم الشجر، إنمـا يتعلق بمـا دنا منه(٣)". وقد نجد مِصداقَ ذلك عِيانا في كلِّ دهرٍ وأخبارِ كلِّ زمانٍ.

---

(١) الركانة، على ما في "تاج العروس" هي السكون إلى الشيء والاطمئنان به. وربما كان الأصوب "الرَّكانة" وهي الظنّ الذي يكون بمنزلة اليقين.

(٢) صـ: فأما الغرباء والمحدّثون.

(٣) نقلتُ هذه العبارة عن أقدم نسخة معروفة للآن من كتاب "كليلة ودمنة" وهي التي طبعها الأب الفاضل لويس شيخو اليسوعي سنة ١٩٠٥ (صفحة ٥٧) وأصلحتُ لفظة "بمن" بلفظة "بمـا". وقد وردتْ هذه العبارة في النسخة التي طبعها العلامة البـارون دوساسي الفرنسيّ سنة ١٨١٦ هكذا: "مثل شجر الكرم الذي لا يعلق إلا بأكرم الشـجر" (ص ٨٥). وهي كذلك في النسـخة المطبوعة في بولاق عنهـا سنة ١٢٨٥هـ. وهذه الرواية مبتورة وسخيفة جدا، ورواية النسخة القديمة متينة ومعقولة، تؤيدها رواية الجـاحظ وإن كان الذي نسخها قد مسخها. فهي في سـ: "كالشجرة ليس يتعلق بأكبر الأشجار، ولكن بالأقرب منها." وفي صـ: "كالشجرة ليتس يتعلق بأكرم الأشجار، إنمـا يتعلق بمـا قرب منها"

✦✦✦

سخاء الملك ورحمته

ومن أخلاق المَلِك السخاءُ والحياءُ.[١]

فهما قرينا كلّ مَلِك كان على وجه الأرض. ولو قال قائل إنهما رُكِّبا فى الملوك كتركيب الأعضاء والجوارح، كان له أن يقولَ. إذ كنا لم نشاهد ولم يبلُغْنا عمن مضى من الملوك، ملوك العجم ومَن كان قبلهم، وملوكِ الطوائف وغيرِهم، القِحّةُ والبُخْلُ.

فأما السخاء فلو لم يكن أحدَ طبائع الملوك، كان يجب أن يكون باكتسابٍ، إن كان الملك من أهل التمييز. وذلك أنه يُفيد[٢] أكثرَ مما يُنفِق. فإذا كانت هذه صفةَ كلّ مَلِك، فما عليه من اتّخاذ الصنائع وعَمِّ[٣] المِنَنِ والإحسان إلى مَن تأَى عنه أو دنا منه من أوليائه، والرحمةِ للفقير والمسكين، والعائدةِ على أهل الحاجة.

وأما الحياء فهو من أجناس الرحمة.[٤]

وحقيق للملك (إذ كان الراعى) أن يرحَمَ رعيته، (وإذ كان الإمام) أن يرِقّ على المؤتَمّ به، (وإذ كان المولى) أن يرحَمَ عبده. ١١٦

فقد تخطِئ العامّة وكثيرٌ من الخاصّة فى الملوك حتّى يُسَمُّونَهم بغير أسمائهم ويَصِفُونهم بغير صفاتهم ويَنْحَلونهم البخل والإمساك،[٥] إذا رأَوا المَلِك على سَنَنٍ من

---

(١) صـ : الملك الكرم والسخاء. ورواية سـ أصح. لأن الكلام التالى منقسم إلى موضوع السخاء وإلى موضوع الحياء. ولذلك اعتمدتُها فى المتن.

(٢) أفاده واستفاده وتفيَّده بمعنًى واحد. (عن القاموس)

(٣) صـ : وتعميم.

(٤) زاد فى سـ هنا : "للفقير والمسكين والعائدة على أهل الحاجة". وقد سبقت هذه الجملة فى الموضع المناسب لها فى السطر السابق، فلا حاجة لتكرارها.

(٥) صـ : الا بخال.

القصْد وعَدْلٍ من حدّ الإنفاق، ويَغْفُلُون عمّا أدّبَ اللهُ تعالى به نبيه (صلى الله عليه وسلم) بقوله عزّ وجلّ: "وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ"، و بمدحه الصالحين من عباده بالقصْد فى ذات أيديهم، بعلمهم أن أرضى الأحوال عنده مادخل فى باب الاقتصاد، بقوله: "وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا."

الردّ على من وصف المنصور بالبخل

وقد ذكر بعضُ مَن لا يعلَم (فى كتابٍ ألّفه فى البخلاء من الملوك)[1] أن هشام بن عبد الملك بن مروان ومروان بن محمد وأبا جعفر المنصور وغيره[2]، منهم. ولولا أنا

---

(١) هو غير الكتاب الذى ألفه الجاحظ فى البخلاء عامّة، وقد طبعه فى ليدن سنة ١٩٠٠ المستشرق الهولندى ڤان ڤولتن Van Volten، ثم قلده المتهافتون على سرقة المطبوعات فى مصر. وقد روى الجاحظ فيه (ص ١٦٣) أن هشاما هذا "دخل حائطا [بستانا] له فيه فاكهة وأشجار وثمار ومعه أصحابه. فجعلوا يأكلون ويدعون بالبركة. فقال هشام: ياغلام! إقلع هذا، واغرس مكانه الزيتون". فذلك يدلّ على أنه أراد تحقيق دعوة أصحابه، لأن الزيتون هو الشجرة المباركة. ويدلّ أيضا على بخله، حتى إذا جاء حائطه مرّة أخرى لم يجد أصحابه سبيلا إلى الإتيان على فاكهته وثمراته. روى صاحب "شذرات الذهب" (ج ١ ص ١٨١) هذه الحكاية بما يدل على بخل هشام، وختمها بقول هشام لقيّم البستان: "إقلع شجره واغرس فيه زيتونا حتى لا يأكل أحد منه شيأ". ولم يذكر الجاحظ شيئا من هذا القبيل عن المنصور فى كتابه فى البخلاء.

(٢) من الغريب أن صاحب "محاسن الملوك" نقل كثيرا عن الجاحظ بالحرف الواحد أو بالاختصار ولكنه لم يسمّه ولم يشر الى كتابه، فكان مثله كمثل المسعودىّ ونفر كثير من المؤرّخين والمتأدّبين. ولكنه حينما جاء إلى ذكر المنصور وتبخيله ذكر اسم الجاحظ، فقال فى صفحة ١٠٢ مانصه: "قال الجاحظ: ربما وصف الأغبياء المنصور بالبخل، وليس الأمر كذلك. فإنه لم يسمع عن أحد من الخلفاء والملوك أنه وهب لرجل واحد ألف ألف غيره. وفرّق على أهل بيته فى ليلة واحدة ألف ألف." ثم روى القصة الآتية عن زيد مولى عيسى بن نهيك باختصار وختمها بهذه العبارة: "قال الجاحظ: فهل يجوز أن يُعَدّ من فعل هذا الفعل بخيلا؟"

احتجْنا(١) إلىٰ الإخبار عن جَهل هذا ، لم يكُنْ لذِكره معنًى ولا للتشاغُل بالردّ عليه . وكيف يكون المنصور ممن دخل فى جملة هذا القول ، ولا يُعلم أن أحدا من خُلفاء الإسلام (١٤٧) ولا ملوك الأُمم وصَلَ بألفِ ألفٍ لرجلٍ واحدٍ غيرُه(٢) ! ولقد فرّق علىٰ جماعةٍ من أهلِ بيته عشرة آلافِ ألفِ دِرهم . ذكر ذلك الهَيْثَمُ بن عَدِىٍّ والمدايِنىُّ . وحدّثنى بعض أصحابنا عن أبيه عن زيد(٣) مولىٰ عيسىٰ بن نَهِيك(٤) قال : دعانى المنصور بعد موت مولاى

---

(١) صر : ولو احتجنا .

(٢) المنصور هو أول خليفة أعطىٰ ألف ألف لكل رجل من عمومته الأربعة (طبرى سلسلة ٣ ص ٤٢١) ومما يدخل فى مكارم المنصور أن الشعراء دخلوا عليه فأنشدوه من وراء حجاب ، فاستحسن أقوال بعضهم ، فأمر برفع الحجاب وظهر لهم وأمر لأحدهم بعشرة آلاف دينار وأعطى الباقين ألفين ألفين (ذيل الأمالى للقالى ص ٤١) .

ودخل عليه رجل من أهل الشام فأعجبه كلامه فقال : يا ربيع لا ينصرف من مقامه إلا بمائة ألف درهم ، فحُملتْ معه (ذيل الأمالى للقالى ص ٢٢٨) .

ودخل عليه فتى من بنى حزم فذكر له ما فعله بنو أمية بقومه وأنشده شعرا للأحوص كان سببا فى حرمانهم من أموالهم منذ ستين سنة . فأمر له بعشرة آلاف درهم ، ثم كتب إلى عماله بردّ ضياع آل حزم عليهم وإعطائهم غلّاتها فى كل سنة من ضياع بنى أمية ، وتقسيم أموالهم بينهم على كتاب الله على التناسخ ، ومن مات منهم وُفّر على ورثته . فانصرف الفتى بما لم ينصرف به أحد من الناس . (طبرى سلسلة ٣ ص ٤٢١)

(٣) سماه فى محاسن الملوك "يزيد" .

(٤) كان الأمير عثمان بن نهيك على حرس المنصور . فلما مات سنة ١٤٠ فى فتنة الراوندية ، استعمل الخليفة أخاه عيسى هذا على حرسه . وكان ذلك بالهاشمية . وهنالك ابن نهيك آخر استعمله المهدى وأمره بضرب بشار بن برد حتى قتله . وأما إبراهيم بن عثمان بن نهيك فقد قتله الرشيد لأنه كان يبكى على قتل جعفر البرمكى =

فقال: يا زيد! قلتُ: لبَّيْكَ يا أمير المؤمنين! قال: كم خلَّفَ أبو يزيدَ من المال؟ قلتُ: ألفَ دينار أو نحوَها. قال: فأين هي؟ قلتُ: أنفقتها الحُـرَّةُ (١) في مأتمه. قال: فآستعظم ذلك، وقال: أنفقتْ في مأتمه ألف دينـار! يا أعْجَبَ هذا! ثم قال: كم خلَّف من البنات؟ قلتُ: ستًّا. فأطرق مليًّا ثم رفع رأسه وقال: أُغْدُ إلى باب المهديّ. فغدوتُ فقيل لي: معك بغال؟ فقلتُ: لم أومَرْ بإحضار بغلٍ ولا غيره، ولا أدري لِمَ دُعيتُ. قال: فأُعطيتُ ثمـانين ومائةَ ألفِ دينارٍ، وأُمِرْتُ أن أدفع لكلّ واحدةٍ من بناتِ عيسى ثلاثين ألف دينار. ففعلتُ. ثم دعاني المنصور فقـال: قبضتَ ما أمرنا به لبنات أبي يزيدَ؟ قلتُ: نعم يا أمير المؤمنين! قال: أُغْدُ عليَّ بأكفائهنّ حتى أزوّجهن (١١٨)

= وعلى ما وقع للبرامكة. فكان إذا أخذه الشراب، يقول لغلامه: هاتِ سيفي! فيسلُّه ويصيح: واجعفراه! ثم يقول: لآخُذَنَّ ثأرك، ولأقتُلَنَّ قاتلك! فنمَّ عليه ابنه عثمان للفضل بن الربيع فأخبر الرشيد، فكان ذلك سبب قتله. (ابن الأثير ج ٥ ص ٣٨٤ و"شذرات الذهب" ج ١ ص ٢٣٠ و"النجوم الزاهرة" ج ١ ص ٥٢٤) وروى صاحب "المحاسن والمساوى" رواية أخرى في وشاية الولد بأبيه للرشيد (ص ٥٩٢).

وأما لفظ "نهيك" فهو "مشتق من النَّهَاكة وهي الجُرْأة والإقدام يقال: إنْتَهَكَ فلانٌ فلانًا إذا نال من عرضه وشتمه. ومنه: آنتهـاك المحارم، ونَهَكَتْهُ الحُمَّى إذا أضرَّتْ به، وأنهكه عقوبةً إذا أوجعه ضربا." (الأشتقاق لابن دُرَيد ص ١٢٨)

(١) هذا اللقب كان يُعطى عادة في أيام الدولة الأموية والعباسية لنساء الأمراء والأشراف والسادات والأكابر. فلما تغلبت الدولة التركيـة في العراق، وفي مصر خصوصا، صار لقب نساء المـلوك "خونده"، "خاتون"، "آدر (جمع دار)" وهذا اللقب الأخير كان خاصًّا بمصر في زمان المماليك. وفي عصرنا هذا نقول: "حَرَم" و"هانم" وهما لقبان يطلقان على نساء الأكابر. (أنظر ص ١٢١ من كتاب "زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك" المطبوع في باريس)

منهم. قال: فغدوتُ عليه بثلاثة من وَلَد العكّيّ(١) وثلاثة بن آلِ نَهيك بن بني عمّهن، فزوّج كلَّ واحدة منهنّ علىٰ ثلاثين ألف درهم، وأمر أن يُجعل صداقُهن من ماله، وأمرني أن أشتريَ بمـا أمر لهنّ ضياعًا يكون معاشهنّ منها(٢).

فهل سَمِـع هذا الجاهلُ الخائنُ(٣) بمثل هذه المكارم لعربيّ أو عجميّ(٤)؟ ولو أردنا أن نذكر محاسنَ المنصور على التفصيلِ والتقصّي لطال بها الكتّابُ وكثُرتْ فيه الأخبار.

وقلّمـا آستعملتِ العامّةُ وكثيرٌ من الخاصّة التمييزَ، إيثارًا للتقليـد. إذ كان أقلَّ في الشُّغل وأدلَّ علىٰ الجهل وأخفَّ في المُؤونة. وحسبُك من جهل العامّة أنها تُفضّل السمين علىٰ النحيف، وإن كان السمينُ مأفونا(٥) والنحيفُ ذا فضائل؛ وتُفضّل الطويل علىٰ القصـير، لا للطُّول ولكن لشيء آخرَ لا ندري ماهو؛ وتُفضّل راكبَ الدابّة علىٰ راكب البغل وراكبَ البَغل علىٰ راكب الحمار، آقتصارًا علىٰ التقليد إذ كان أسهلَ في المأتىٰ وأهونَ في الآختيار.

* * *

(١١٩) الأدب في اعتلال الملك ونظام التشريفات

ومن حقّ الملك ــ إذا آعتلّ ــ أن لا تَطلُبَ خاصّته الدخولَ عليه في ليلٍ ولا نهار، حتّى يكونَ هو الذي يأمر بالإذن لِمَن حَضَر؛ وأنْ لا يَرْفَعَ إليـه الحاجبُ أسماءهم

(١) الظاهر أن العكّيّ المذكور هنا هو مقاتل بن حَكَم العكّيّ الذي آستخلفه المنصور على حرّان، وقد حاصره بها عبدالله بن عليّ عم المنصور ثم قتله. فهو إذن من أولياء المنصور. (أنظر الطبريّ سلسلة ٣ ص ٩٣ و ٩٤)

(٢) روى الطبريّ هذه الحكاية حرفا حرفا. (سلسلة ٣ ص ٤٢٠)

(٣) لعل الصواب: المائن، بمعنى الكاذب.

(٤) صـ: آثرنا.

(٥) المأفون الضعيف الرأي والعقل. وفي صـ: مؤوفا. [أي ذا آفة وعاهة].

مبتدئا حتى يأذَنَ له. فإذا أَذِنَ له بالدخول، فمن حقه أنْ لاتدخُلَ عليه الطبقةُ العاليةُ مع التى دونها، ولا يدخُلُ عليه من هذه الطبقة جماعةٌ، ومن غيرها جماعةٌ. ولكنْ على الحاجب أن يُحضِرَ الطبقاتِ الثلاثَ كلَّها أو مَن حضر منها، ثم يأْذَنُ للعُلْيا جُمْلةً. فإذا دخلتْ، قامت بحيثُ مراتبُها[1]، فلم تسلِّمْ عليه فتُحْوِجَهُ إلى ردّ السلام؛ فإذا علمتْ أنه قد لاحظها، دعتْ له دُعاءً يسيرًا مُوجَزًا، ثم خرجتْ. ودخلتْ التى تليها، فقامت على مراتبها أقلَّ من قيام الأُولى، ودعت دعاءً أقلَّ من دعاء الأُولى. ثم دخلتْ بعدهما الثالثة، فكان حظُّها أن يراها فقط. وليس من عادة الملوك وُقُوفُ هذه الطبقة الثالثة لتأمُّلِ الملك وتدعو له وتنظر إليه. وإنّما مراتبها أنْ يراها فقط.

ومن حقِّ المَلك أنْ لا ينصرف أحدٌ من هذه الطبقات إلى رَحْلِهِ إلّا فى اليوم الذى كان فيه ينصرف فى صحة المَلك. وبالْحَرى ينبغى أنْ لايبرحَ[2] فِناء سيِّده ومالكه، (١٤٠) انتظارًا لإفاقته من عِلّته وتَفَحُّصًا[3] عن ساعات مرضه.

⁂

جوائز البطانة وصلاتهم

ومن الحقِّ على المَلك تعهُّدُ بِطانته وخاصّته بجوائزهم وصِلاتهم، إن كان ذلك يكون مُشاهرةً أو مُساناةً.

ومن أخلاق المَلك أن يُوكِّلَ بإذْكاره صِلاتِهم، ولايُحْوِجَ أحدًا منهم إلى رفع رُقْعةٍ أو إذْكار أو تعريض. فإن هذا ليس من أخلاق المتيقِّظ من الملوك.

---

(١) صـ : بجنب.

(٢) راجع الحاشية ١ صفحة ٢٢ من هذا الكتاب عن لفظ "برح".

(٣) صـ : وبحصى.

سنة ملوك ساسان فى الجوائز

وكانت ملوك آل ساسان يفعلون فى هذا فعلا بَقِىَ لهم ذِكْرُهُ إلى هذه الغاية وإلى انقضاء مدّة العالَم.

فكان الملك منهم يُقدِّر الرجُل من خاصّته وبِطانته تقديرًا وَسَطًا بين الإسراف والاقتصاد فى مُؤَنِه كُلِّها، وحوائجه خاصّها وعامّها. فإذا كان التقدير — على الجهة التى وصفنا — عشرة آلاف درهم فى الشهر، وكانت للرجُل ضيعةٌ، أمر أن يُدفَعَ إليه فى كل ثلاثين ليلة عشرةُ آلاف درهم، لأنزاله[1] ونفقاته وحوائجه. ويقول له الملكُ: "قد عَلِمنا أنّ الضيعة التى أفدتَها[2] هى ممّا تقدّم من صِلاتنا لك وقد تسلّفنا شكرَ تلك النعمة منك، وليس من العدل أن تكونَ فى خدمتنا، وتكونُ نفقتك من شئ أَفَدْتَه[3] (١٢١) بشكرٍ قد تقدّم وحُرمة قد تأكّدتْ. فليكن ما أثمرتْ لك ضيعتُك ظِهْرِيًّا لنوائب الزمان وتخرُّم الأيّام وانقلاب الدُّوَل وحوادث الموت.[4] ولتكن مُؤَنُك وكُلَفُك[5] على خاصّ اموالنا."

وكذلك الطبقات على هذا النظام والإحكام. فيمضى على أحدِهم عشرون سنة لايفتح فاه بطلب درهم ولا غيره، منبسطا[6] لزمانه مبتهجا بنِعَم مَلِكه مسرورا بما يكفى عن التَّذكار وشكوى الحال.[7]

(١) الأنزال (جمع نُزُل): القوم النازلون على الإنسان، أو ما هُيِّئ للضيف أن ينزل عليه، كما فى تاج العروس.
(٢) صـ: أخذتها.
(٣) صـ: أخذته.
(٤) سـ: وحوادث الأيام والموت. صـ: وحوادث المؤن.
(٥) صـ: وكُلّكَ.
(٦) فى صـ: "مستنشطا". وليس لها معنى فى اللغة يوافق هذا المقام، فلذلك أصلحناها بما اقتضاه الحال. وهى من الكلمات التى تفرّد بها صـ.
(٧) صـ: بما كفى من التذكار وشكر الحال.

هدايا المهرجان والنيروز من الملك وله

ومن حقّ الملك هدايا المَهرجان(١) والنّيروز(٢).

والعلّة فى ذلك أنّهما فَصْلا السنَة.

فالمهرجان دخولُ الشتاء وفصلِ البرْد، والنيروز إذْنٌ بدخول فصل الحرّ. إلا أن فى النيروز أحوالاً ليستْ فى المهرجان. فمنها آستقبال السنة وآفتتاح الخراج وتوليةُ العمّال والآستبدال وضرب الدراهم والدنانير وتذكية بيوت النيران وصبّ الماء وتقريب القربان(٣) وإشادة البنيان(٤) وما أشبه ذلك.

فهذه فضيلة النيروز على المهرجان.

(١٣٣) ومن حقّ الملك أن يُهدِىَ إليه الخاصّةُ والعامّةُ.

والسُّـنّةُ فى ذلك عندهم(٥) أن يُهدى الرجُل ما يُحِبّ من مِلكه، إذا كان فى الطبقة العالية. فإن كان يُحِبّ المِسك، أهدىٰ مسكًا لا غيرَه، وإن كان يحب العنبر،

(١) كلمتان فارسيتان معناهما محبة الروح.

(٢) كلمتان فارسيتان معناهما اليوم الجديد أى رأس السنة.

(٣) صـ : والأخذ بالاسفند. [والذى فى المعجم الفارسى العربى الإنكليزى "لرتشاردسن" أن الإسْفَنْد هو آسم اليوم الثالث من الخمسة الأيام التى يضيفها الفرس لآخر الشهر الثانى عشر من السنة. ولما كان الشهر عندهم ثلاثين يوما فهم يضمُّون خمسة أيام على آخر الشهر من السنة ليجعلوها معادلة للسنة الشمسية. وربما كان الجاحظ يشير إلى حفلة خاصة بالفرس فى ذلك اليوم بتقريب القربان].

(٤) كل هذه رسوم فارسية نقلها الجاحظ عن آيينهم، بغير ملاحظة لما أخذ المسلمون أو تركوا منها.

(٥) هذا وما يليه يؤيد ما أشرنا إليه فى الحاشية السابقة

أهدى عنبرا، وإن كان صاحب بِزّة ولِبْسة(1)، أهدى كُسْوةً وثيابا، وإن كان الرجُل من الشُّجَعاء والفُرسان، فالسُّنّةُ أنْ يُهدِىَ فَرَسا أو رمحا أو سيفا، وإن كان راميا، فالسُّنّة أن يُهدِىَ نُشّابا، وإن كان من أصحاب الأموال(2)، فالسُّنّةُ أن يُهدِىَ ذهبًا أو فضة، وإن كان من عُمّال المَلك، وكانت عليه موانيذ(3) للسنة الماضية، جمعها وجعلها فى بِدَر(4) حريرٍ صينىٍّ وشريحات فضة وخيوط إبْرِيسَم وخواتيم عنبر ثم وجّهها.

(1) صـ : صاحب كسوة وثياب.

(2) صـ : "أصحاب العال". [ولعلها أصحاب الأعمال].

(3) وردت هذه الكلمة مهملة فى سـ، صـ هكذا (مواسد)، فوجدناها فى شفاء الغليل (بعد مراجعة غيره من كتب اللغة) هكذا : "مواتيد" وفسرها بقوله "بقايا فى شعر الفرزدق. معرّبٌ." (ص ٢٠٨) ولكن الناسخ أو الطابع جعلها بالتاء المثناة الفوقية بدلا من النون. وهى واردة على صحتها فى كتاب "المُعرّب من الكلام الأعجمى" للإمام الجواليقى (طبع العلامة الألمانى سخاو بمدينة ليبسك سنة ١٨٦٧ فى صفحة ١٤٣) وقد آستشهد عليها، بقول الفرزدق.

"خَرَاجٌ مَوَانِيذ عَلَيْهِمْ كثيرة * تُشَدُّلَهَا أيديهِمْ بالعواتِقِ".

وقد رأيتُ هذا البيت فى قصيدة طويلة فى مدح عمر بن هُبَيْرَة الفزارى، ضمن ديوان الفرزدق الذى طبعه باللغة العربية وترجمه إلى الفرنسية العلامة المستشرق المسيو بوشيه (R. Boucher) فى باريس سنة ١٨٧٠. (أنظر صفحة ٢٣٨ من القسم العربى و ٧١٧ من القسم الفرنسى). وقد ظنّ هذا العالم أن الكلمة ربما كان الأصحّ فى كتابتها الدال المهملة بدلا من المعجمة، وظنّ أنها تعريب كلمة "مانده" الفارسيّة. وأقول إن العرب يجعلون الدال ذالا عند التعريب (مثل أُستاذ، تلميذ، فالوذج، فولاذ، بغداذ، كلواذ، مروالروذ الخ). وأما الاصل الفارسى فهو "مانده" من مصدر "مانيدن" بمعنى البقاء. وجمعوا الكلمة بعد تعريبها على "موانيذ" بجعل الدال ذالا جريًا على عادتهم فى التعريب.

(4) صـ : بيت.

وكذلك، إنما كان يفعل من العمّال مَن أراد أن يتزيّن بفضل نفقاته أو بفضل عُمالته أو أداء أمانتـه.

وكان يُهدى الشاعرُ الشعرَ، والخطيبُ الخُطبَةَ، والنديم التُّحفة والطُّرفة والباكورةَ من الخَضْراوات.

(١٣٣) وعلى خاصّة نساء المَلك وجواريه أن يهدين إلى الملك ما يُؤْثِرْنَهُ ويُفَضِّلْنَه[1] كما قدّمنا في الرجال. غير أنه يجب على المرأة من نساء الملك ـ إن كانت عنـدها جاريةٌ تعـلَمُ أن الملك يَهواها ويُسَرّ بها ـ أن تُهديَها إليه بأكمل حالاتها وأفضل زِينتها وأحسن هيآتها. فإذا فعلتْ ذلك، فمن حقّها على المَلك أن يُقَدِّمها على نسائه ويَخُصّها بالمنزلة ويَزيدَها في الكرامة، ويَعلَم أنها قد آثرته على نفسها وبذلتْ له ما لا تجود النفس به وخصّته بما ليس في وُسع النساء ـ إلّا القليل منهنّ ـ الجودُ به.

ومن حق البِطانة والخاصّـة على المَلك في هذه الهدايا أن تُعْرَض عليه وتقوَّم قيمةَ عَدْلٍ.

فإذا كانت قيمة الهدية عشرةَ آلافٍ، أُثبِتَتْ في ديوان الخاصّة. فإن كان صاحبها ممن يرغبُ في الفضل ويذهب إلى الربح ثم نابته نائبة من مُصيبة يُصاب بها أو بناء يتخذه[2] أو مأدُبَة يأدِبها[3] أو عُرس يكون من تزويج ابنٍ أو إهداءِ ابنةٍ إلى بَعْلها، نُظِرَ إلى ما له في الديوان (وقـد وُكِّلَ بذلك رجُلٌ يرعى هذا وما أشبهَه ويتعهَّدُه)، فإذا كانت قيمة الهديّة عشرةَ آلافٍ، أُضْعِفَتْ له ليستعينَ بها على نائبته.

(١) صـ : يؤثر به ويفضيلته.

(٢) سـ : يجدّده.

(٣) في سـ : يجدّدها. وليست في صـ.

(١٢٤) وإن كان الرجُلُ ممن أهدى نُشَّابةً أو درهماً أو تُفَّاحةً أو أُتْرُجَّةً، فإن تلك الهديّة إنما قدّمها لتُثْبَتَ له في الديوان، ويُخْبَرَ الملكُ إنْ نابتْه نائبةٌ. فعلى الملك إعانته عليها، إذا كان من أساورته وبطانته أو محدّثيه. فإذا رُفع للملك أن له في الديوان نُشّابةً أو درهمًا أو أُتْرُجّةً أو تُفّاحةً، أمَرَ الملك أن تؤخذ أُتْرُجّةٌ فتُملأَ دنانيرَ منظومةً ويوجَّهَ بها إليه. وكان لا يُعطى صاحبَ التُّفّاحة إلا كما يُعطى صاحبَ الأُتْرُجّة. وأما صاحب النُّشّابة فكانت تخرج نُشّابتُه من الخزانة وعليها اسمه، فتُنْصَبُ ويوضعُ بإزائها من كسوة المَلِك ومن سائر الكِساء. فإذا ارتفعتْ حتّى تُوازِيَ نَصْلَ النُّشّابة، دُعِيَ صاحِبُها فدُفِعَتْ إليه تلك الكِسوة.

وكان من تقدّمتْ له هديّةٌ في النيروز والمهرجان (صَغُرَتْ أم كَبُرَتْ، كَثُرَتْ أم قَلّتْ)، ثم لم يَخْرُجْ له من الملك صِلةٌ عند نائبةٍ تنوبه أو حقٍّ يلزمه، فعليه أن يأتيَ ديوان الملك ويُذَكِّرَ بنفسه، وأنْ لا يغفلَ عن إحياء السُّنّة ولزوم الشريعة. وإن غَفَلَ عن أمره بعارضٍ يحدُثُ، فإن تَرَكَ ذلك على عَمْدٍ، فمن سُنّةِ الملك أن يَحرِمَه أرزاقه لستّةِ أشهرٍ، وأن يدفعها إلى عَدُوِّه إن كان له. إذ أتى شيئاً فيه شَيْنٌ على المَلِك وضَعَةٌ في المملكة.

(١٢٥) وكان أردشير بن بابك وبَهْرام جور وأنوشروان يأمرون بإخراج ما في خزائنهم في المهرجان والنيروز من الكُسَى فتُفرَّقُ كلُّها على بِطانة الملك وخاصّته، ثم على بِطانة البِطانة، ثم على سائر الناس، على مراتبهم.

وكانوا يقولون: إن المَلِك يَستغني عن كِسوة الصيف في الشتاء، وعن كِسوة الشتاء في الصيف، وليس من أخلاق الملوك أن تُخَبَّأَ كسوتُها في خزائنها، فتُساوي العامّة في فعلها.

فكان يلبس فى يوم المهرجان الجديد من الخزِّ والوشْيِ والمُلْحَم. ثم تفرّق كسوة الصيف علىٰ ماذكرنا.

فإذا كان يوم النيروز، لبس خفيف الثياب(١) و رقيقها، وأمر بكسوة الشتاء كلها ففُرِّقتْ.

سِيَر مسلم اقتدى الفرس فى تفريق كسوته

ولا نعلم أنّ أحدًا بعدَهم اقتفىٰ آثارهم، إلّا عبدَ الله بن طاهرٍ، فإنى سمعت من محمد ابن الحسن بن مُصْعَبٍ(٢) يذكر أنه كان يفعل ذلك فى النيروز والمهرجان، حتّٰى لا يترك فى خزائنه ثوبًا واحدًا إلّا كساه. وهذا من أحسن ماحُكِيَ لنا من فضائله.

✤

ومن أخلاق الملوك اللَّهْوُ.

لهو الملوك

غير أن أسعدهم مَن جعل للهوه وقتًا واحدًا، وأَخذ نفسه بذلك. فإنه إذا فعل ذلك، استطاب اللهوَ والهزلَ والمفاكهةَ. وإذا أدْمَنَ ذلك، خرج به اللهوُ من بابه حتّٰى يجعله جِدًّا لا هَزْلَ فيه، وحقًّا لا باطلَ معه، وخُلُقًا لا يمكنه الانصرافُ عنه. (١٢٦)

وليس هذا صفة الملك السعيد.

ترك الإدمان فى الملاذّ

ومَن أدمَنَ شيأً من ملاذِّ الدنيا، لم يجِدْ له من اللذة وُجودَ القَرِمِ النَّهِمِ المُشتاقِ.(٣)

وهذا قد نراه عِيانًا. وذلك أن ألذّ الطعام وأطْيَبهُ ما كان علىٰ جوعٍ شديدٍ؛ وألذّ الجماع وأطيبه، إذا اشتدّ الشَّبَقُ وطالت العُزْبةُ(٤)؛ وألذّ النوم وأهنأه ما كان بِعقب التعَب والسهر.

(١) ص : ثياب سابور.

(٢) راجع حاشية ٢ من ص ٧٤ من هذا الكتاب وقد أورد اسم الأب هنا بلفظ "الحسن" على صحته.

(٣) ص : اللذة وجودة الطعم وجودة النوم.

(٤) ص : الغربة.

وعلى هذا جميعُ ملاذّ الدنيا.

فالملوك الماضية إنما جعلتْ للّلاذّ وقتًا واحدًا من اليوم والليلة، لهذه الفضيلة التي فيها.

فعلى الملك السعيد أن يقسم يومه أقساما. فأوَّله لذكر الله تعالى وتعظيمه وتهليله، وصدرُهُ لرعاياه وإصلاح أمرها، ووَسَطُه لأكله ومنامه، وطَرَفُهُ للّهوِ وشغله. وأنْ لا يُثابر على إدمان الشغل في كلّ يوم. وإن طالت هذه الأقسام بمواضعها، فلا يجد للهو لذته، ولا للنعيم موضعه الذي هو به.

***

(١٣٧) سيرة الملوك والخلفاء في الشرب

وكانت الملوك الماضية من الأكاسرة تشرب في كلّ ثلاثة أيام يومًا، إلّا بهْرام جور والأرْدوان الأحمر(١) وسابور. فإنهم كانوا يُدْمِنون الشُّرْب في كلّ يوم.

وكان ملوك العرب (كالنُّعمان) وملوك الحيرة وملوك الطوائف، أكثرُها يشْرَبُ في كل يومٍ وليلةٍ مرّةً(٢).

وكان من ملوك الإسلام، مَن يُدْمِنُ على شُربه، يزيد بن معاوية. وكان لا يُمسى إلّا سكرانَ، ولا يُصبِح إلّا مخمورًا.

وكان عبد الملك بن مَرْوان(٣) يسكَر في كلّ شهر مرّةً حتّى لا يَعْقِل في السماء هو

(١) لعلّ الصواب: الاصغر. (أنظر حاشية ٦ صفحة ٢٩، وصفحة ١١٨ من هذا الكتاب).

(٢) صـ: في كل جمعة يوما وليلة

(٣) صـ: عبد الله.

أو فى الماء(١)، ويقول: «إنما أقصد فى هذا إلى إشراق العقل، وتقوية مُنّة الحفظ، وتصفية موضع الفكر(٢).» غير أنه كان إذا بلغ آخِر هذا السُّكْر(٣)، أفرغ ما كان فى بدنه حتّى لا يبقى فى أعضائه منه شئ. فيُصْبِحُ خفيفَ البَدَن، ذَكِيَّ العقل والذهن، نشيطَ النفس، قوىَّ المُنّة.

وكان الوليد بن عبد الملك يشرَبُ يومًا ويدَعُ يومًا

وكان سليمان [بن عبد الملك] يشرب فى كلّ ثلاثِ ليالٍ ليلةً.

ولم يشرَبْ عمر بن عبد العزيز منذُ أفضتْ إليه الخلافةُ إلى أن فارق الدنيا، ولا سَمِع غِناءً.

*(٤)وكان هشام يسكر فى كلّ جمعة.

(١٢٨) وكان يزيد بن الوليد والوليد بن يزيد يُدمنان اللهو والشرب.*(٤) فأما يزيد بن الوليد، فكان دهرَه بين حالَيْن، بين سُكْرٍ وخُمارٍ، ولا يُوجَد أبدًا إلّا ومعه إحدى هاتَيْنِ.

وكان مرْوان بن محمد يشرَب ليلةَ الثلاثاء وليلة السبت.

وكان أبو العباس [السفّاح] يشرَب عَشِيّةَ الثلاثاء وحدَها(٥)، دون السبت.

---

(١) صـ: الأرض.

(٢) صـ: وتقوية وتصفية.

(٣) صـ: آخر حد السكر.

(٤) هاتان الجملتان المحصورتان بين نجمتين * * منقولتان عن صـ.

(٥) صـ: وحدها فى كل جمعة.

* وكان المهدىّ[1] والهادى يشربان يومًا، ويدَعان يومًا.

وكان الرشيد يشرب فى كل جمعة مرتين، وربما قدّم أيامه وأخّرها، على أنه لم يرَه أحدٌ قطُّ يشرب ظاهرًا، إلّا أنه كان يقعد هذين اليومين لندمائه.[2]

وكان المأمون فى أوّل أيامه يشرب الثلاثاء والجمعة، ثم أدمن الشرب عند خروجه إلى الشام فى سنة خمس عشرة [ومائتين] إلى أن تُوُفّى.

وكان المعتصم لا يشرب يوم الخميس ولا يوم الجمعة.

وكان الواثق ربما أدمن الشرب وتابَعَهُ، غير أنه لم يكن يشرب فى ليلة الجمعة ولا يومها. *

✣

لبس الملوك

وأخلاق الملوك تختلف فى اللِّبْسة والطِّيب.

فمن الملوك مَن كان لا يَلْبَسُ القميص إلّا يومًا واحدًا أو ساعةً واحدةً، فإذا نزعه لم يعُدْ إلى لُبْسِه.

ومنهم مَن كان يَلْبَسُ القميص والجُبّة أيامًا، فإذا ذهب رَوْنَقه[3] رمى به فلم يلبَسْه بعدُ.

فأما أردشير بن بابك ويزدجرد وبهرام وكسرى أبرويز وكسرى أنوشروان

(١) هذه الفقرات الخمس المحصورة بين نجمتين * * منقولة عن صـ.

(٢) وانظر حاشية ٥ ص ٣٧ من هذا الكتاب.

(٣) صـ: رونقه وبعض مائه رمى. [ولعله: وبعض بهائه رمى]

وقُبَاذ، فإنهم كانوا يَلْبَسُون القميص ويُغَسَّل لهم ثم يَلْبَسونه ويُغَسَّل لهم . فإذا غُسِل ثلاث عَرَكاتٍ(١) لم يُغَسَّلْ بعدَها، وجُعِل فى الخِلَع التى تُخْلَعُ على الوَلَد والقرابات والعمّ وابن العمّ والأخ وابن الأخ . ولم يكونوا يخلعون ما قد لَبِسوه إلّا على القرابات من أهـل بيتِ المملكة خاصّةً، لا يُجاوزونهـم إلى غيرهم . فأما الخِلَع التى تُقطَع وتُتَّخَـذ للطبقات وسائر الناس، فتِلك صِنْفٌ آخَرُ.

(١٢٩) وكان ملوكُ العرب منهم مَن يَلْبَسُ القميص مرارًا ويُغسل له غَسَلاتٍ: معاويةُ وعبدُ الملك وسليمانُ وعمرُ بن عبد العزيز وهشامٌ ومروانُ بن محمدٍ وأبوالعباس وأبو جعفر والمأمونُ.

فأما يزيد بن معاوية. والوليد بن يزيد ويزيد بن الوليد والمهدىّ والهادى والرشـيد والمعتصم والواثق فإنهـم كانوا لا يَلْبَسون القميص إلا لَبْسَةً واحـدةً، إلا أن يكون الثوب نادرا مُعْجَبًا غريبًا.

فأما الجِباب والأردية، فلم تزل الملوك تَلْبَسُها السَّـنةَ أو أكثرَ أيّام السَّنة. ومنهم مَن كان يَلْبَس الجُبَّة والمِطْرَف(٢) السنينَ الكثيرةَ . وليس الجباب والأردية كالقميص والسراويل . لأن القميصَ والسراويل همـا الشِّعار، وسائرَ الثياب الدِّثارُ. ولذلك كره من كره إعارة لُبْسها(٣)

(١) أى مرّات . والعركة المرة الواحدة . وفى صـ : مرات .

(٢) هو رداء من خز مربّع له أعلامٌ . ولم يذكره دوزى Dozy فى "معجم أسماء الثياب عند العرب".

(٣) سـ : إعادة .

✣

تطييب الملوك

وأخلاق الملوك فى العِطر ومَسّ الطِّيب وتغلُّل الغالية[1] تختلفُ.

فمن الملوك مَن إذا مَسّ الطِّيبَ وتغلّلَ[2] بالغالية لم يَعُدْ إلى مَسّ طِيبٍ ما دام عَبَقُها فى ثوبه.

ومن الملوك مَن كان إذا مَسّ الطِّيبَ وتغلل[2] بالغالية فتضوّعتْ منه وعَلِقتْ بثيابه، أمر بصبِّ ماء الورد[3] على رأسه حتّى يسيل. فإذا كان من غَدٍ، فعل مثلَ ذلك. (١٣٠)

فأما مَن كان لا يَمَسُّ طِيبا مادام يجد عَبَق الطِّيب فى ثيابه: فأردشير بن بابك وقباذُ [بن فيروز] بن يزدجرد وكسرى أبرويز وكسرى أنوشروان؛ ومن ملوك العرب: معاويةُ وعبدُ الملك والوليدُ وسليمانُ وعمرُ بن عبد العزيز وهشامٌ ومروانُ [بن محمد]؛ ومن خلفاء بنى العباس: أبو العباس وأبو جعفر والمأمونُ.

وكان المعتصم قلّما يَمَسُّ الطِّيبَ. وكان يذهب فى ذلك إلى تقوية بَدَنِه وإعانته على شدّة البطش والأيْد. وأما فى أيام حروبه، فكان مَن دنا منه وجد رائحة صدإ السلاح والحديد من جسمه.

---

(١) فى حاشية صـ: "أبو نصر: سألتُ الأصمعيَّ هل يجوز تغلّلتُ من الغالية؟ قال: إن أردتَ أنك أدخلتَها فى لحيتك أو شاربك، فجائزٌ. وكذلك غلّلتُ بها لحيتى؛ شُدّد للكثرة. صحاح".

(٢) فى تاج العروس: غلّ الدُّهنَ فى رأسه أدخله فى أصول شعره، وغلّل شعره بالطيب أدخله فيه". [وانظر صفحة ٦٧ من هذا الكتاب والحاشية ٢ منها].

(٣) صـ: الماورد. [وقد استعمل الكُتّاب هذا التركيب المزجىّ ونسبوا إليه فقالوا: الماوردىّ].

زيارة الملوك تكريما لرجالهم، وأنواعها

ومن أخلاق الملوك الزيارةُ لمن خُصَّ بالتكرمة منهم وآثروه المنزلة ورفع المرتبة.

وزيارة الملك على أربعة أقسام: فمنها الزيارة للطاعمة والمنادمة، ومنها الزيارة للعيادة، ومنها الزيارة للتعزية في المصيبة(١)، ومنها الزيارة للتعظيم فقط.

وأكبر هذه الأقسام وأرفعها ذكراً الزيارةُ للتعظيم.

(١٣١) لأن هذه الأقسام الثلاثة أكثر ما تقع وتتفق بسؤال المزور المَلِكَ وتلطُّفِه(٢) في ذلك.

---

(١) من هذا القبيل ما تفضّل به مولانا الخديو المعظَّم الحاجّ عبّاس حلمى الثانى على المأسوف عليه بطرس غالى باشا رئيس مجلس النظار وناظر الخارجية سابقا، بعد أن اغتالته يدٌ أثيمة فى ١٠ صفر سنة ١٣٢٨ (٢٠ فبراير سنة ١٩١٠). فقد يمَّم المستشفى (حفظه الله) بموكبه الجليل فى يوم إصابته، ثم تنازل بالتوجه إلى دار الفقيد بالفجّالة فى القاهرة، عقب مماته فى ١٢ صفر (٢٢ فبراير) وواسى بنفسه أولاد القتيل وقرابته. فخفف بذلك مُصابهم الجَلَل، وأعرب عن جميل عنايته بجميع صنوف رعيته.

ولقد اتفق مثل هذا الصنيع الجميل، فى حادث من هذا القبيل، لأحد السابقين من ملوك النيل، وهو السلطان الملك الناصر حسن صاحب الجامع الأشهر القريب من القلعة. وذلك أنه فى يوم الاثنين ١١ شعبان سنة ٧٥٨ هـ حاول أحد المماليك اغتيال رئيس الحكومة وصاحب الحلّ والعقد فى ديار مصر، وأعنى به الأتابكيّ سيفَ الدين شيخو العُمَرىّ (وهو أوّل من تلقّب باسم أمير كبير، وكانت وظيفته إذ ذاك تعادل رياسة مجلس النظار فى أيامنا هذه)، فضربه وهو فى الإيوان فى يوم الموكب بالسيف فى وجهه ثلاث ضربات. فوقع الأتابكىّ إلى الأرض مغشيًّا عليه. فحملوه إلى بيته وبه بعض رمق. وهنالك ضمَّدوا جراحاته. فنزل السلطان من القلعة فى اليوم التالى، وذهب بموكبه إلى داره وترجّل عن فرسه وواسى رئيس حكومته. ولكنّ الأتابكىّ مات فى يوم الجمعة ١٦ ذى القعدة من السنة المذكورة. فاحتفل السلطان بجنازته وحضرها بنفسه وصلّى عليه قبل دفنه. (راجع ابن إياس ج ١ ص ٢٠٤ — ٢٠٥)

(٢) فى س، ص: تلفظه.

وربما رفع الملكُ مرتبةَ الوزير وخصّه وقدّمه على سائر بطانته (١)، فيكون من حِيَل الوزير أن يتعالل فيعودهُ الملك، فيُظْهِرَ للعامّة منزلته عنده وتكرمته إيّاه وإيثاره له.

وأيضا، فقلَّ مَلِكٌ سأله وزيرُه أو صاحبُ جيشه أو أحدُ عظمائه زيارتَه إلّا أجابه إلى ذلك، و[لا] سيّما (٢) إذا علم أنّ غرضَه في ذلك الزيادةُ في المرتبة والتنويهُ بالذكر.

فإذا كانت الزيارةُ من الملك على أحد هذه الأقسام الثلاثة، فهي منزلةٌ كان صاحبُها يحاولها فبلغها، وأُمْنِيَّةٌ (٣) طلبها فأدركها.

فأما الزيارة للتعظيم، فإنها لا تقع بسؤالٍ ولا بإرادةِ المزور. إذ كان ليس من أخلاق وزيرٍ ولا شريفٍ أن يقولِ للملك: زُرْنى لتعظِّمَنى، ولترفعَ فى الناس من ذِكرى وقدرى.

فإذا كان ذلك من الملك ٱبتداءً، فقد علمنا أن تلك أرفعُ مراتب الوزراء، وأفضلُ درجات الأشراف (٤).

(١) سـ: وقرّبه.

(٢) [أنظر الحاشية ٣ ص ٤٥ من هذا الكتاب].

(٣) صـ: بأملها.

(٤) يدخل فى هذا الباب ما تكرم به أيضا الخديو المعظم الحاجّ عبّاس حلمى الثانى على عبده وصنيعته وغرس نعمته، وخادم دولته، محمد سعيد باشا رئيس مجلس النظار وناظر الداخلية الحالىّ. فقد زاره بمنزله فى رمل الإسكندرية فى ١٥ رمضان سنة ١٣٢٩ (٨ سبتمبر سنة ١٩١١). وقد جمعتْ هذه الزيارة مزيّتين فى آنٍ واحدٍ: مزية التكريم ومزيّة العيادة اللتين أشار إليهما الجاحظ. ولقد كانت هذه الزيارة على غير ٱنتظار ألْبتَّةَ.

وكنتُ حاضرًا ليلتها فى دار الوزير، وهو لا يعلم بذلك. لأنه قبل تشريف المليك بهنيهة، كان بملابس نومه. فما هو إلا أن فاجأنا الخبر بالتلفون، مبشرا بهذه الزيارة الجليلة. وقد كانت بعد ذلك بدقائق.

وذلك لعمرى يشابه كثيرا من الأيادى البيضاء التى أسداها الخلفاء والسلاطين فى مصر إلى رجالات دولتهم. أكتفى بذكر مثال واحد يضارع هذه الأُكرومة. وذلك أن السلطان قايتباى الشهير بمآثره الجليلة فى خدمة العلم والأدب والفنون الجميلة نزل من قصره بالقلعة فى شهر رمضان سنة ٨٧٣ هـ لزيارة الأمير يشبك الدوادار الكبير، بمناسبة التوعك الذى حصل فى جسده. وكان هذا الأمير قد جمع فى يده أكبر وظائف الدولة على ذلك العهد، وهى: الاستادارية، والدوادارية، والوزارة، وكشوفية الكشاف. وقد عظم أمره جدا حتى قال فيه ٱبن إياس: "ما أظنّ أن هذه الوظائف قد جُمعت لأحد من الأمراء قبله." (أُنظر "بدائع الزهور فى وقائع الدهور" ج ٢ ص ١٠٧—١٠٨)

وكان أردشير وأنوشروان إذا زارا وزيراً من وزرائهما أو عظيماً من عظمائهما للتعظيم لا لغيره، أرّخت الفرس تلك الزيارة، ونُسخت بذلك التاريخ كُتُبُهُمْ إلى الآفاق والأطراف.

(١٣٢) وكانت سُنّة مَن زاره الملك للتعظيم أن تُوغَر(١) ضياعهُ وتُوسَم خيلُه ودوابُّه لئلا تُسَخَّر، ولا تُمتَهَن(٢). ويأتيه خليفةُ صاحب الشُّرطة في كلّ يوم مع ثلاثمائة راكبٍ ومائة راجلٍ، يكون ببابه إلى غروب الشمس. فإن رَكِبَ كانت الرجّالة(٣) مُشاةً أمامَهُ، والركبان من خلفه، ولا يُحبس أحدٌ من حامّته وخاصّته(٤) بجناية جناها، ولا يُحكم على أحدٍ من عبيده بحكمٍ، وإن وجب على أحدٍ من بطانته حدٌّ، وُجّهَ به إليه ليرى فيه رأيه، ويُؤَخَّر عليه وظيفةُ ما عليه من خراج أرضه حتّى يكون هو الحامل له، وتُقَدَّم هداياه في النيروز والمهرجان على كلّ هديّة وتُعرَض على الملك، ويكون أوّلَ مَن يأذَنُ له الحاجبُ، ويكون من الملك إذا رَكِبَ عن يمينه مزوِيًّا، وتكون مرتبتُه إذا قعد عن يمينه، وإذا خرج من دار المملكة، لم يقعُدْ بعده أحدٌ.

---

(١) في س : "توعر" وفي ص : "يوغر". يقال أوغر المَلِكُ الرَّجُلَ الأرضَ: جعلها له من غير خراج، أو هو أن يُؤدّي الخراج إلى السلطان الأكبر فراراً من العُمّال (قاموس). وهذا المعنى الثاني هو الذي أراده الجاحظ، لقوله بعد ذلك بخمسة أسطر: "ويؤخر عليه وظيفة ما عليه من خراج أرضه حتى يكون هو الحامل له".

(٢) ص : ولا تمهن.

(٣) ص : الرجال.

(٤) س : وحامته.

* وكانت ملوك آل ساسان لاتزور أحدًا لعلّةٍ من هذه العلل التى قدّمنا ذكرها، فينصرف[1] بخلعة أو طِيبٍ أو تحفةٍ أو هديّةٍ من جاريةٍ أو غلام. غير أنه كان إذا نزل الملك، وَطّأ لِرِجْله[2] فرسًا رائعا بسرجٍ مُذْهَبٍ وأداةٍ تامّةٍ، فقُدِّم إليه إذا أراد الانصراف. فكان الأمر كذلك، حتّى ملك بهرام بن يَزْدِجِرْدَ. فكان ينادم الأساورة من أبناء أهل الشرف، فيخلع عليه[3] فى كلّ ساعةٍ خِلعة مجدّدة؛ ويشتهى الزامرةَ والمغنّية والرقاصةَ فيأخذُها. وكان أوّلَ مَن أطلق يدَه فى ذلك، لغَلَبَة اللهْو عليه وإيثارِه هواه.

فأما مَن كان من ملوكهم قَبْلَه، فعلى الأمر الذى ذكرنا والحكاية التى أدّينا.[4] *

❖

استقبال الناس فى الأعياد

ومن أخلاق الملك القعود للعامّة يومًا فى المهرجان، ويومًا فى النيروز. ولا يُحْجَبُ عنه أحدٌ فى هذين اليومين من صغيرٍ ولا كبيرٍ، ولا جاهلٍ ولا شريفٍ.[5]

وكان المَلك يأمر بالنداء قبل قعوده بأيامٍ، ليتأهّبَ الناس لذلك. فيُهيّئُ الرجُلُ القِصّةَ، ويهيّئُ الآخَرُ الحُجّةَ فى مظلمته، ويصالحُ الآخَرُ صاحبَه إذا علم أن خَصمه

(١) لعلّه: فتنصرف. وبقية الكلام يدلّ على أن الضمير هنا يرجع للملوك ولعل الفاعل مقدّر ويكون المعنى: فينصرف الملك منهم.

(٢) أى: وطأ المزور لِرِجْل الملك الزائر.

(٣) أى الأُسوار المزور.

(٤) هذه الفقرة المحصورة بين نجمتين * * منقولة عن صـ.

(٥) وهذا أيضا من منقولات الجاحظ عن آيين الفرس.

يتظلَّم منه إلى المَلك . فيأمُرُ الموبَذ أن يُوَكِّل رجالا من ثقات أصحابه فيقفون بباب العامّة ، فلا يُمنَع أحدٌ من الدخول على المَلك . وينادى مُناديه : "مَن حَبَس رجُلاً عن رفع مظلمته ، فقد عصى الله وخالف سُنّة الملك ؛ ومَن عصى الله ، فقد أَذِنَ بحربٍ منه ومن الملك ."

التظلم من الملك إلى القاضي

ثم يُؤْذَنُ للناس وتُؤخَذ رِقاعُهم ، فينظرُ فيها . فإن كان فيها شئ يُتَظَلَّمُ فيه من المَلك ، بُدِئَ به أوّلاً ، وقُدّم على كلّ مظلمة . ويُحضِرُ المَلكُ الموبَذَ الكبير والدّبيرَبذ[1] ورأس سَدَنَة بيوت النار ، ثم يقوم المنادى فينادى : " ليعتزلْ كلُّ مَن تظلّمَ من الملك ! " فيمتازون . ويقوم المَلك مع خصومه حتّى يجثو بين يدَي الموبَذ فيقول له : " أيها المُوبَذُ ، إنه ما من ذنب أعظمَ عند الله من ذنب الملوك ! وإنما خوّلها الله تعالى رعاياها لتدفع عنها الظلم وتَذُبّ عن بيضة المُلْك جوْرَ الجائرين وظُلْمَ الظالمين . فإذا كانت هى الظالمة الجائرة ، فحُقّ لِمَنْ دونها هدمُ بيوت النيران ، وسلْبُ ما فى النواويس من الأكفان . (١٣٩) ومجلسى هذا منك ــ وأنا عبدٌ ذليلٌ ــ يشبه مجلسك من الله غدًا . فإنْ آثرتَ الله آثرك ، وإن آثرت الملك عذّبك[2] . " فيقول له المُوبَذ : " إن الله إذا أراد سعادة عباده ، ٱختار لهم خير أهل أرضه . فإذا أراد أن يعرّفهم قَدْره عنده ، أجرى على لسانه ما أجرى على لسانك . " ثم ينظر فى أمره وأمر خَصمه بالحقّ والعدل . فإن صحّ على الملك ،

(١) سـ ، صـ : الدسرند . [وٱنظر صفحة ٧٧ من هذا الكتاب وحاشية ٢ منها ، وصفحة ١٧٣ منه أيضا] .

(٢) فى "محاسن الملوك" أن الخصم هو الذى يقول ذلك الكلام للقاضى ، لا الملك . (ص ٣٩)

شيءٌ أخذه به؛ وإلّا[1] حبس مَن ادّعى عليه باطلًا، ونكّل به. ونُودي عليه : "هذا جزاء

(١) فى تواريخ الإسلام غرر كثيرة من هذا القبيل. فالخلفاء وآل بيتهم والملوك ووزراؤهم كانوا يساوون أقلّ الخصوم فى مجلس القاضى و يجرى عليهم الحكم الشرعىّ كما يجرى على سائر الناس. فقد تحاكم علىّ بن أبى طالب أمامَ عُمر بن الخطاب (مستطرف ج ١ ص ١١٨)، ثم تحاكم وهو خليفة مع ذمىّ أمام القاضى شريح (ابن خلكان فى ترجمة شريح)؛ وتحاكم هشام الأموىّ مع صاحب حرسه أمام القاضى فى دار الخلافة (ابن عبد ربه ج ٢ ص ٣٣٩)؛ وخاصم رجل من حلوان مصر الخليفة عمر بن عبد العزيز وتوجها معا إلى مجلس القاضى فساوى بينهما فى كل شيء، وقضى للرجل عليه (المحاسن والمساوى ص ٥٢٥، وفيها وفيما يليها وقائع أخرى من هذا القبيل لعمر بن الخطاب)؛ وتحاكم المأمون بين يدى القاضى يحيى بن أكثم "محاضرات" الراغب ج ١ ص ١٢٤ و"المحاسن والمساوى" ص ٥٣٢ "والمستطرف" ج ١ ص ١١٩؛ وتحاكم إبراهيم بن المهدىّ مع بختيشوع الطبيب عند القاضى أحمد بن أبى دؤاد "العقد الفريد" ج ١ ص ٣٣؛ وتحاكم الوزير ابن الزيات فى مجلس القضاء، وفى دار الوزارة "محاضرات" الراغب ج ١ ص ١٢٣ و ١٢٤؛ وتحاكم الأشعث عند شريح القاضى "العقد الفريد" ج ١ ص ٣٤. والأمر أشهر من أن يذكر، والوقائع أكثر من أن تحصر.

وأبدع من ذلك كله ما جرى بالقاهرة فى أيام الأيوبيين فقد روى السيوطىّ أنه فى سنة ٦٣٩ للهجرة تولى عبد العزيز المعروف بعز الدين بن عبد السلام المشهور بسلطان العلماء قضاء مصر والوجه القبلىّ. وكان قدم فى هذه السنة من دمشق بسبب أن سلطانها الصالح إسماعيل استعان بالفرنج وأعطاهم مدينة صيدا وقلعة الشقيف، فأنكر عليه الشيخ عز الدين وترك الدعاء له فى الخطبة، وساعده فى ذلك الشيخ جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب المالكىّ. فغضب السلطان منهما، فخرجا إلى الديار المصرية، فأرسل السلطان إلى الشيخ عز الدين (وهو فى الطريق) قاصدًا يتلطف به فى العود إلى دمشق. فاجتمع به ولاينه، وقال له: ما نريد منك شيئاً إلا أن تنكسر للسلطان وتقبّل يده لا غير. فقال الشيخ له: يامسكين! "ما أرضاه يقبل يدى فضلا عن أن أقبل يده! ياقوم، أنتم فى واد وأنا فى واد! والحمد لله الذى عافانا مما ابتلاكم به!" فلما وصل إلى مصر، تلقاه سلطانها الصالح نجم الدين أيوب وأكرمه وولّاه قضاء مصر. فاتفق أن أستاذ داره فخر الدين عثمان بن شيخ الشيوخ (وهو الذى كان إليه أمر المملكة) عمد إلى مسجد بمصر، فعمل على ظهره =

مَن أراد شَيْنَ المُلك، وقَدَحَ فى المملكة(١)!"

= بناء طبلخاناه، وبقيَت تضرب هنالك. فلما ثبت هذا عند الشيخ عز الدين، حكم بهدم ذلك البناء، وأسقط فخر الدين، وعزل نفسه من القضاء. ولم تسقط بذلك منزلة الشيخ عند السلطان. وظن فخر الدين وغيره أن هذا الحكم لا يُتأثَّر به فى الخارج. فاتفق أن جهز السلطان رسولا من عنده إلى الخليفة المستعصم ببغداد. فلما وصل الرسول إلى الديوان، ووقف بين يدَي الخليفة وأدى الرسالة له، خرج إليه وسأله: هل سمعتَ هذه الرسالة من السلطان؟ فقال: لا، ولكن حمَّلنيها عن السلطان فخرُ الدين ابن شيخ الشيوخ، أستاذ داره. فقال الخليفة: إن المذكور أسقطه ابن عبد السلام، فنحن لا نقبل روايته. فرجع الرسول إلى السلطان حتى شافهه بالرسالة، ثم عاد إلى بغداد وأدّاها. ولما تولّى الشيخ عز الدين القضاء تصدّى لبيع أُمراء الدولة من الأتراك، وذكر أنه لم يثبت عنده أنهم أحرار، وأن حكم الرِّق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين. فبلغهم ذلك، فعظم الخطب عندهم، واحتدم الأمر، والشيخ مصمِّم لا يُصحح لهم بيعًا ولا شراء ولا نكاحًا. وتعطلت مصالحهم لذلك وكان من جملتهم نائب السلطنة، فاستشاط غضباً. فاجتمعوا وأرسلوا إليه. فقال: نعقد لكم مجلساً، وننادى عليكم لبيت مال المسلمين! فرفعوا الأمر إلى السلطان، فبعث إليه، فلم يرجع. فأرسل إليه نائب السلطنة بالملاطفة، فلم يفد فيه. فانزعج النائب، وقال: كيف ينادى علينا هذا الشيخ، ويبيعنا ونحن ملوك الأرض! والله لأضربنَّه بسيفى هذا! فركب بنفسه فى جماعته، وجاء إلى بيت الشيخ، والسيفُ مسلولٌ فى يده. فطرق الباب. فخرج ولد الشيخ فرأى من نائب السلطنة ما رأى، وشرح له الحال. فما اكترث لذلك، وقال: يا ولدى أبوك أقلّ من أن يُقتَل فى سبيل الله! ثم خرج. فحين وقع بصره على النائب، يبست يد النائب وسقط السيف منها، وأُرعدت مفاصله. فبكى وسأل الشيخ أن يدعو له، وقال: يا سيدى، إيش تعمل! قال: أُنادى عليكم وأبيعكم! قال: ففيمَ تصرف ثمننا؟ قال: فى مصالح المسلمين! قال: مَن يقبضه؟ قال: أنا! فتمّ ما أراد ونادى على الأمراء واحداً واحداً، وغالى فى ثمنهم ولم يبعهم إلا بالثمن الوافى، وقبضه وصرفه فى وجوه الخير. ("حسن المحاضرة" ج ٢ ص ٩٨ و ٩٩ من النسخة المطبوعة على الحجر بالقاهرة). وقد روى السبكى هذه الحكاية بتفصيل فى ترجمة الشيخ عبد العزيز فى "طبقات الشافعية" (ج ٥ ص ٨٠ — ١٠٧)

(١) ص: أراد شرّ المملكة والقدح فيها بالباطل. [اقتطع صاحب "محاسن الملوك" هنا سياق الكلام، وأضاف حاشية نبه على أنها ليست من الخبر، وهذا نصها: "وذكر أن أحد خلفاء العلويين الفاطميين فعل مثل فعل هـذا وجلس بين يدى قاضى القضاة مُحاكِماً لخصم ولم يتحرك له القاضى عند حركته للقعود بين يديه وحكم القاضى بالحق بينه وبين خصمه فلما بتّ الحكم وقضى به، وثب مقبّلاً للأرض، جالسا دون مجلس الخليفة. فقال: والله! لو تحرك لى أوّلا وخرج عن حكم الحقّ، لضربتُ عنقه"]

فإذا فرغ الملك من مظالمه فى نفسه، قام فحمد الله ومجّده طويلًا، ثم وضع التاج، على رأسه وجلس على سرير المُلْك، والتفت إلى قرابته وحامّته وخاصّته وقال: "إنى لم أبدأ بنفسى فأُنصِفُ منها إلّا لئلّا يطمع طامعٌ فى حَيْفى. فمَن كان قِبَلَه حقٌّ فليخرُجْ إلى خصمه منه، إمّا بصلحٍ وإمّا بغيره."

فكان أقربُ الناس إلى المَلك [فى الحقّ] (١) كأبعدهم، وأقواهم كأضعفهم.

فلم يزَل الناس على هذا من عهد أردشير بن بابك ثم هَلُمَّ جرًّا حتى ملكهم يزدجرد الأثيم، وهو المحسن الناركر (٢). فغيّر سنن آل ساسان وعاث فى الأرض وظلم الرعايا وأظهر الجَبْرِيّة والفساد، وقال: "ليس للرعيّة أن تنتصف من الراعى، ولا للسُّوقة أن تتظلّم من الملوك، ولا للوضيع أن يساوى (٣) الرفيع فى حَقٍّ ولا باطلٍ." (١٣٥)

العقوبة الربانية للملك الظالم

فذكرت الأعاجمُ فى كُتُبها وسِيَر ملوكها أنه بينًا هو قاعد فى الإيوان ــ والناسُ على طبقاتهم ومراتبهم ــ إذ دخل من باب الإيوان فرسٌ مُسْرَجٌ مُلْجَمٌ، لم يُرَ قطُّ شئٌ أحسنَ منه منظرًا، ولا أكملَ أداةً. فأهوى نحو يزدجرد الناركر (٤). فقامت إليه الأساورة

(١) روى صاحب "محاسن الملوك" هذه الآداب كلها فى تظلم الناس من الملك إلى القاضى وبالحرف الواحد تقريبا عن الجاحظ. (ص ٣٩ ــ ٤١)

(٢) هكذا فى س. والمشهور أنه يسمّى يزجرد اللئيم الأثيم، ويزدجرد الأثيم كما هو فى صفحة ١١٨ من هذا الكتاب. (أنظر غرر أخبار الفرس وسيرهم للثعالبى صفحة ٥٣٩ ــ ٥٤٩). ولم ترد هذه الكلمات الثلاث فى ص.

(٣) س: يتساوى.

(٤) ص: يزدجرد الأثيم

لتدفعه عنه. فجعل لا يدنو منــه أحدٌ إلّا رَمَحَه[١] فأرداه[٢]. وهو فى خلال ذلك يقصد إلى المَلِك. فقام إليه يَزْدَجِرْدُ وقال للأساورة: دَعُوه، فإنه إلىّ يقصد.

فدنا منه حتّى أخذ بمَعْرَفَتِه[٣]، فذلّ له الفَرَسُ وتطامَنَ حتّى ركبه. فلما جال[٤] فى متنه، خَطَا به خُطًا، ثم ردّه إلى قرار مجلسه، فنزل عنه وجعل يمسحه بيده، مُقبِلًا[٥] ومُدبِرًا. حتّى إذا وجد الفَرَسُ منــه تمكّنًا وغَفْــلةً، رَمَحَــهُ فأصاب حبّةَ قلبِــه، فقتله. فقالت الفُرْسُ: هــذا مَلَكٌ من الملائكة، جعــله الله فى صورة فَرَس، فبعثه لقتل يزدجرد، لـمّـا ظلم الرعيّة وعاث فى الأرض.[٦] (١٣٦)

ما صنعه بهرام جور لأخذ ملك أبيه

وكان بَهْرام جُور بن يزدجرد فى حِجر النُّعمان بن المُنذر، مَلِك الحِيرة. وضعه أبوه عنده ليتأدّب بآداب العرب ويعرف أيامَها وأخبارَها ولغاتِها. فبلغه خبرُ أبيه، وأنّ الفُرْسَ ملّكتْ عليها رجُلًا ليس من أبنــاء ملوكها. فآستنهضَ النُّعمانَ بن المُنذِر وآستنجده، وقال: "إنّ لى عليك حقًّا، إذ كنتُ أحَدَ أولادك. وإنّ أبى قد مات وملّكتِ

(١) أى رفســه برجله أو برجليه. يقال ذلك للفرس والبغل والحمار وكل ذى حافر، وربمــا آستعير لذى الخف. (تاج العروس)

(٢) أى فأهلكه. وفى صـ: فأداره.

(٣) صـ: بعرفه.

(٤) صـ: حال.

(٥) صـ: بثوبه.

(٦) قارن ذلك بمــا أورده الثعالبىّ (فى غُرر أخبار الفُرس) عن هــذه القضية وتفاصيلها مع آختلاف. (صفحة ٥٥١ ـــ ٥٥٢)

الفُـرْسُ رَجُلًا من غير بيت المُلْك . فإنْ أنت خَذَلْتَنِى ، ذهبَ مُلك آل ساسان . ” فقـال له النُّعمان : ”ما أنا وآل ساسان ، وهُمُ الملوكُ وأنا رعيّةٌ ؟ ولكنِّى أَخْرُجُ معك فى جيشى لتقوىٰ نِيَّتُك(١) وتصِحَّ عَزْمَتُك . ثم أنت أولىٰ بقومك ، وهم أولىٰ بك . ” قال : فهذا أُريد .

فخرج النعمان مع بَهْرام حتّى صار بالمـداين ، وبلغ الفُرْسَ قدومُهما(٢) . فخرجوا إلىٰ بَهرام ، فقـالوا : ما تريد ؟ فقال : مُلْكَ أبى وإرْثَ آل ساسان . قالوا : إن أباك سامنا العـذابَ أيّامَ مدّته ، فأنفرد الله بقتله . فلا حاجة لنا فى أحدٍ من عَقِبِهٖ . فقال بَهْرام : إنّ جَوْرَ أبى وظلْمَه لا يُلزِمُنى لائمةً(٣) ، ولا يُكْسِبُنى ذمًّا(٤) . وأنتم لم تَخْبُرونى ، فيجب علىّ حَمْدٌ أو ذمٌّ . قالوا : فإنّا قد أقمنا رجُلًا نرضاه . فقال : إنّ هـذا فسادٌ فى صُلب المملكة أنْ تُمَلِّكوا مَن ليس من أهلها . فإذ فعلتم ، فآمتحنونى وهذا الرجُلَ مِحْنَةً توجب المملكة . قالوا : وما هى ؟ قال : تعمِدون إلىٰ أسدَيْن ضارِيَيْن فتجمعونَهما فى موضعٍ واحدٍ ، وتضعون تاج المملكة بينهما ، وتقولون لهذا الذى ملّكتموه أمرَكم يأْخُذُهُ من بينهما . فإنْ فعل فهو أحقُّ بالملك وأَوْلىٰ . وإن أبىٰ أن يفعل ، وفعلتُ أنا ذلك ، كنتُ أحقّ بالملك منه . قالوا : نعرِضُ عليه هذا .

(١٣٧)

---

(١) صـ : مُنّتك .

(٢) روىٰ الثعالبىّ هذه القصة بعبارة أكثر اختصارًا من الجاحظ . (غرر أخبار الفرس ص ٥٤٨) .

(٣) صـ : لا يلزمنى لائمته .

(٤) صـ : مذمته .

فقالوا ذلك له، فقال: ما أقدِرُ علىٰ هـذا، ولكنْ قولوا له فلْيفعلْ. فإن أخذ التاج من بين الأسدَيْن فهو احقُّ بالملك وأَوْلىٰ.

فأخذوا التاج وعمدوا[1] إلىٰ أسدَيْن فأجاعوهما ثم وضعوا التاج بينهما وقالوا لبَهرام: شأنُك! فنزلَ بهرام عن فرسه وأخذ الطَّبَرْزِينَ[2] ومضىٰ نحوهما. ثم بدا له فجعل الطبرزين فى مِنْطَقَتِه. ودنا من الأسـدَيْن فأهويا نحوَه، فأخذ برأس أحدهما فأدناه من رأس الآخر ثم نطحه به حتّىٰ قتلهما جميعا. وشدّ علىٰ التاج فأخذه من موضعه فجعله (١٣٨) علىٰ رأسه.

فملكته الفُرْسُ أمرهم، وآنصرف النعمان إلى الحِـيرة. وسار بَهْرَام سِيرَةً حَسَـنَةً

(١) صـ : وغدوا.

(٢) جمعه طبرزينات [أُنظر البيان والتبيين ج ٢ ص ٧٦] . وهـذا اللفظ مأخوذ من كلمة فارسـية (تبر، تبر) ومعناها الفأس. وهى آلة للقتال عبارة عن عمود له حدّان، وكانوا يعلّقونها فى السرج ليستخدمها الفارس فى وقت النزال والبراز. وقد عرّب المشارقة وأهل الأندلس هـذا اللفظ الفارسىّ فيا بعدُ فجعلوه "طبرزين". قال فى "المُعجب فى تلخيص أخبار المغرب" للرّاكشىّ (ص ٩٠) مانصه "فخرج المعتمد وبيـده الطبرزين ... فعلاه بالطبرزين الذى فى يده ولم يزل يضربُه بهِ حتى برَدَ". وقال فى "المحاسن والمساوى" (ص ٥٩٣). "وكان معه طبرزين فضرب به كسرىٰ ... ثم ضربه بالطبرزين حتى مات".

(وآنظر أيضا تاج العروس، وبرهان قاطع، وشفاء الغليل، وتكملة المعجمات العربية لدوزى.)

كذلك كان الشأن عند كتّاب المشارقة. ولكنهم عادوا فآقتصروا على التعبـير بالطبر. قال فى صبح الأعشى (ج ١ ص ٣٦٥) مانصه: "الطبر. وهو باللغـة الفارسية الفأس. ولذلك يسمى السُّكَّرُ الصُّلْب بالطَّبَرْزَذ يعنى الذى يُكسر بالفأس. وإلىٰ الطبر تنسب الطبردارية. وهم الذين يحملون الاطبار حول السلطان ..".

وقد بقيت هذه الآلة مستعملة إلىٰ مابعـد اختراع المدافع ثم آنعدمت بالكلية. وكانت مستعملة بمصر إلى زمن الفتح العثمانى. وقد رأيتُ منها رواميز كثيرة محفوظة بدار التحف العسكرية بالقسطنطينية. وأشار إليها آبن إياس فى "بدائع الزهور فى وقائع الدهور" مرات عديدة منها قوله: "وضربه بطبر كان معه على وجهه فسقط إلى الأرض مغشياً عليه" (ج ١ ص ٢٤٧)؛ وقوله: "خرج عليهم التركمان بالقسىّ والنُّشاب والسيوف والاطبار" (ج ٢ ص ١١٠)؛ وقوله: "فلما خرجوا بهم قطعوهم بالاطبار قطعا." (ج ٣ ص ٢٦٩)

وعَدَلَ فيهم، حتّى كان أحبَّ إليهم من جميع ملوك آل ساسان.(١)

إلا أن اللهو واللعب كان أغلبَ أحواله عليه.

⁂

استقصاء الملك لأحوال رعيته

ومن أخلاق الملك السعيد البحثُ عن سرائر خاصّته وحامّته، وإذكاءُ العيون عليهم خاصّةً وعلى الرعيّة عامّةً.

وإنما سُمّيَ المَلك راعياً ليفحص عن دقائق أمور الرعيّة وخَفِيِّ نيّاتهم. ومتى غَفَل المَلك عن فحص أسرار رعيّته والبحثِ عن أخبارها، فليس له من آسم الراعي إلا رَسْمُه، ومن المُلك إلا ذِكْرُه.

فأما الملك السعيد، فمن أخلاقه البحثُ عن كل خَفِيٍّ ودَفِينٍ(٢) حتّى يعرِفَه مَعْرِفةَ نفسِه عند نفسِه(٣)، وأنْ لا يكون شيءٌ أهمَّ ولا أكبرَ في سياسته ونظام مُلكه من الفحص عمّا قدّمْنا ذِكْرَه.

الملوك والخلفاء الذين اشتهروا بذلك

ولم يُرَ مَلِكٌ قطُّ كان أعجبَ في هذا الأمر من أردشير بن بابك. ويقال إنه كان يُصبِحُ فيعلَمُ كلَّ شيء بات عليه مَن كان في قَصَبة دار مملكته من خيرٍ أو شرٍّ، ويُمسي فيعلَمُ كلَّ شيء أصبحوا عليه. فكان متى شاء قال لأرفعِهم وأوضعِهم: كان

(١٣٩)

(١) روى ابن ظُفَر هذه الحكاية والتي قبلها بتطويل كبير وتفصيل كثير. (أُنظر "سلوان المطاع في عدوان الأتباع" المطبوع على الحجر بالقاهرة سنة ١٢٠٨ هـ من صفحة ١٠٠ إلى صفحة ١٠٤؛ وأنظر ترجمته الى الإنكليزية للعلامة ميشل أماري الطلياني Michel Amari، طبع لوندره سنة ١٨٥٢ ج٢ ص ١٥٤–١٦٥).

(٢) صـ: ودقيق.

(٣) صـ: معرفة نفيه.

عندك فى هذه الليلة كَيْتَ وكَيْتِ[1]. ثم يحدثه بكل ما كان فيه إلى أن أصبح.

فيقال إن بعضهم كان يقول إنه كان يأتيه مَلَكٌ من السماء فيُخْبِرُه[2]. وما كان ذلك إلا لتيقُّظه وكثرة تعهُّده لأمور رعيته.[3]

ثم كان فيمن نأى من أهل مملكته على مثل هذه الحال.

فيقال إن الأمم كلَّها، أوّلَها وآخِرَها، وقديمَها وحديثَها، لم تَخَفْ أحدًا من ملوكها خَوْفَها أردشير بن بابك من ملوك الأعاجم ومَن كان قبلهم، وعمر بن الخطّاب من خلفاء الإسلام.[4]

فإنّ عُمَرَ كان عِلْمُه بِمَن نأى عنه من عُمّاله ورعيّته كعلمه بِمَن بات معه فى مِهادٍ واحدٍ، وعلى وِسادٍ واحدٍ. فلم يكن له فى قُطرٍ من الأقطار [illegible] النواحى عاملٌ ولا أميرُ جيشٍ إلا وعليه له عَيْنٌ لا يفارقه ما وجده. فكانت ألفاظُ مَن بالمشرق والمغرب عنده فى كلّ مُمْسًى ومُصْبَحٍ. وأنت ترى ذلك فى كُتُبِه إلى عُمّاله وعُمّالهم

---

(١) بفتح التاء، وبكسرها أى كذا وكذا.

(٢) أنظر التفصيل الذى أورده الأبشيهىّ فى "المستطرف" (ج ١ ص ١٠٨).

(٣) ورد هذا الخبر فى "المحاسن والمساوى" ص ١٥٣. وكان كسرى أنوشروان أشدّ الناس تطلّعا فى خفايا الأمور وأعظم خلق الله تعالى فى زمانه تمحّصا وبحثا عن أسرار الصدور. وكان يبثّ العيونَ على الرعايا، والجواسيسَ فى البلاد ليقف على حقائق الأحوال ويطّلع على غوامض القضايا. فيعلم المفسد فيقابله بالتأديب، والمصلح فيجازيه بالإحسان. ويقول: متى غفل الملك عن تعرّف ذلك، فليس له من الملك إلا اسمه وسقطت من القلوب هيبته. (مستطرف ج ٢ ص ١١٤)

(٤) روى ذلك فى "المحاسن والمساوى" ص ١٥٣

(١٤٠) حتّى كان العامل منهم لَيتّهِمُ أقربَ الخلق إليه وأخصّهم به. فساس الرعيـة سياسة أردشير بن بابك في الفحص عن أسرارها[1][2] خاصّة.

ثم اقتفى معاويةُ فعلَه وطلبَ أثرَه، فانتظم له أمرُه وطالت له مُدّتُه[2][3].

وكذا كان زيادُ ابن أبيه يحتذى فعل معاوية كاحتذاء معاوية فعل عُمر. وفيما يُحكى عنه أنّ رجلا كلّمه فى حاجةٍ له، فتعرّف إليه ـ وهو يظُنّ أنه لا يعرفه ـ فقال: أصلح الله الأمير! أنا فُلانُ بن فُلانٍ. فتبسّم زيادٌ وقال: تتعرّف إلىّ، وأنا أعْرَف بك منك بأبيك؟ والله إنى لأعرفك وأعرف أباك وجدّك وأُمّك وجدّتك، وأعرف هذا البُرْد الذى عليك، وهو لفلانِ بن فلانٍ. فَبُهِتَ الرجُل وأُرْعِبَ حتّى أُرْعِدَ[4] [وكاد يُغشى عليه][2].

وعلى هذا كان عبد الملك بن مروان[2][5]، والحجّاج بن يوسف.

ثم لم يكن بعد هؤلاء أحدٌ فى مثل هذه السياسة حتّى مَلَكَ المنصور. فكان أكْثَرُ الأُمور عنده معرفةَ أحوالِ الناس، حتّى عَرَفَ الولىَّ من العدوّ والمُداجى من المُسالِم[6]. فساس الرعيّة ولِبِسَها[7]، وهو من معرفتها على مثل وَضَح[8] النهار.

---

(١) وانظر ما وقع له مع النفر الذين كانوا يشربون المزرخفية ومع المرأة التى جاءها المخاض، فى "المستطرف" ج ١ ص ١٠٨ وج ٢ ص ١١٤ و ١١٥)

(٢) روى ذلك فى "المحاسن والمساوى" ص ١٥٤.

(٣) أنظر ما جاء فى المستطرف (ج ٢ ص ١١٥)

(٤) روى صاحب "المستطرف" الحكاية التى أوردها الجاحظ (ج ٢ ص ١١٥ وج ١ ص ١٠٨)

(٥) "المستطرف" (ج ٢ ص ١١٥)

(٦) روى ذلك فى "المحاسن والمساوى" ص ١٥٤.

(٧) لبسها أى تملّى بها دهرا طويلا.

(٨) أنظر التفصيل الذى أورده فى "المستطرف" (ج ٢ ص ١١٥ ـ ١١٧)

(١٤١) ثم دَرَسَتْ هذه السياسةُ حتّى مَلَكَ الرَّشيدُ. فكان أشدَّ الملوك بحثا عن أسرار رعيّته وأكثرهم بها عنايةً وأحزَمَهم فيها أمرًا.

وعلى نحو هذا كان المأمونُ أيامَهُ. والدليل على ما قلنا فيه ماشاهدنا من رسالته إلى إسحاق بن إبراهيم فى الفقهاء وأصحاب الحديث، وهو بالشأم. خَبَّرَ(١) فيها عن عيبٍ واحدٍ واحدٍ، وعن حالته وأموره التى خَفِيَتْ(٢) ـ أو أكثرُها ـ عن القريب والبعيد.

ثم ما عَلِمْتُ(٣) أنَّ أحدًا ممن كان دون السلطان الأعظم فى دهرنا هـذا، كان أشدَّ على الأسرار بحثًا وأكثَرَ لها فحصًا حتّى بلغ من هذا الجنس أقصى حدِّه وآخِرَ نهايته وأبعدَ مداهُ، وجَعَلَهُ(٤) أكثرَ(٥) شُغله فى ليله ونهاره، إلّا إسحاق بن إبراهيم. فحدّثنى موسى بن صالح بن شيخ(٦)، قال: كلّمتُه فى آمرأةٍ من بعض أهلنا وسألتهُ النظر لها.

---

(١) صـ : حصر.

(٢) كان للأمود ألف عجوز وسبعمائة، يتفقّد بهن أحوال الناس من الأشقياء، ومَن يُحبّه ويُبغضه ومَن يُفسد حُرَم المسلمين، وكان لايجلس إلى دار الخلافة حتى تأتيه كلها. وكان يدور ليلا ونهارا مستترا. (محاضرات الأوائل)

(٣) صـ : علما. [وأهمل هذه الكلمة فى "المحاسن والمساوى" وآستعمل صيغة مطلقة فقال: ولم يكن أحد ممن كان الخ. ولكنه نسى ذلك فعاد وقال حدثنى موسى بن صالح وهى من كلام الجاحظ كما تراه بعد كلمات.]

(٤) هو المصعبيّ أمير بغداد.

(٥) روى ذلك فى "المحاسن والمساوى" ص ١٥٥.

(٦) هو موسى بن صالح بن شيخ (بالشين المعجمة والياء المثناة التحتية والخاء المعجمة) ابن عُميرة الأسدىّ. كان من ندماء الأمير إسحاق بن إبراهيم المُصعَبيّ أمير بغداد.

وآنظر أيضا القصة التى رواها صاحب "الأغانى" فى ج ٥ ص ٨٤ و ٨٥ وفيها إشارة إليه؛ وكذلك الحكاية التى رواها المسعودىّ عن هذا النديم فى "مروج الذهب" (ج ٧ ص ٢١١ و ٢١٢). وكانت وفاته فى سنة ٢٥٧ فى خلافة المعتمد على الله، وقد نيّف على التسعين. وقُبِض آبنه بعد أن عمّر ٩٩ سنة. ("مروج الذهب" ج ٨ ص ٢١٠)

فقال : ياأبا محمـد ! مِن قصّة هـذه المرأة ومِن حالها ومن فعلها[١]. قال : فوالله ! لم يَزَلْ يصفُها ويصفُ أحوالَهـا حتّى بُهِتُّ[٢].

[وحدّث أبو البرق الشاعر قال : كان يُجرى علىّ أرزاقا فدخلتُ عليه، فقال بعد أن أنشدته : "كم عيالُك ؟ تحتاج فى كلّ شهر من الدقيق إلىٰ كذا ومن الحطب إلىٰ كذا." فأخبرنى بشىء من أمر منزلى ممّا جهلت بعضه وعلمه كلَّه.[٣]]

وحدّثنى[٤] بعضُ مَن كان فى ناحيته، قال : رفعتُ إليه رُقْعَةً أسألُه فيها إجراءَ أرزاق. فقال : كم عيالُكَ ؟ فزِدْتُ فى العدد. فقال : كَذَبْتَ ! فَبُهِتُّ وقلتُ فى نفسى : يانَفْسُ من أين عَلِمَ أنى كذبتُ ! فأقمتُ سـنةً لا أجترئُ علىٰ كلامه. ثم رفعتُ إليـه رُقْعَةً أخرىٰ فى إجراء أرزاق. فقال : كم عيالُكَ ؟ فقلتُ : أربعـةٌ. فقال : صـدقتَ. فوقّع فى حاشية رقعتى : يُجرىٰ علىٰ عياله كذا وكذا. (١٤٢)

ولولا أنْ يطولَ كتابنا فى إسحاق وذكره، لحكينا عنه أخبارًا كثيرةً. وهى من هذا الجنس، وفيما ذكرناه كفاية.

التمييز بين الأولياء والأعداء

فعلىٰ الملك أن يُميِّزَ بين أوليائه وأعدائه بالفحص عن أسرارهم ودقيق أخبارهم، حتّى إنْ أمكنَه أن يعرِف مبيتَ أحدِهم ومَقِيلَه وما أحدث فيهما، فعلَ.

---

(١) يعنى : من قصتها كيت وكيت. وقد ترك المؤلف الخبر لأنه معلوم. وهذه عادة شائعة بين أكابر الكتّاب.

(٢) هذه الكلمة مضبوطة فى س : بَهِتَ. [وهو خطأ ظاهر من الناسخ. وقد روى الأبشيهى هذه القصة ونسبها للأمون. (المستطرف ج ١ ص ١٠٨)]. روى ذلك فى "المحاسن والمساوى" ص ١٥٥.

(٣) هذه الزيادة من "المحاسن والمساوى" ص ١٥٥.

(٤) رجع صاحب "المحاسن والمساوى" هنا إلى صيغة المطلق فقال : حدث بعض من كان الخ. وذكر القصة بتمامها وبحروفها. (ص ١٥٥)

فإنّ الرعيّة لا تَسْكُنُ قلوبها جلالةُ مَلِكها ــ ولو عبدتْه الجنُّ والإنْس ودانتْ له ملوكُ الأمم كلُّها ــ حتّى يكون أشدَّ إشرافاً [1] عليها وأكثر بحثًا عن سرائرها، من أُمِّ الفريد [2] عن حركته وسكونه.

✦✦✦

بماذا تطول مدّة الملك

وأيضًا فإنه يُقال فى بعض كُتُبِ [3] الأوائل فى مواعظ الملوك وآدابها:

"إن المَلك تطول مدّته إذا كانت فيه أربع خصال:

إحداها، أنه لا يرضىٰ لرعيّته إلّا ما يرضاه لنفسه؛

والأُخرىٰ، أنْ لا يسوِّف عَمَلًا يخاف عاقبته؛

(١٤٣) والأُخرىٰ، أن يجعلَ وليَّ عهده مَن ترضاه وتختارُه رعاياه لا مَن تهواه نفسُه؛

والرابعة أن يَفْحَصَ عن أسرار الرعية، فَحْصَ المُرْضع عن منام رضيعها."

وقد نجد مِصداقَ هذا القول ونشهدُ به. وذلك أنا لم نرَ مدّةً طالتْ لملكٍ عربيٍّ ولا عجميٍّ قطُّ إلّا لمن فَحَصَ عن الأسرار، وبَحَثَ عن خفيِّ الأخبار، حتّى يكون فى أمرِ رعيّته علىٰ مِثْلِ وَضَحِ النَّهار.

---

(١) فى س: إشراف.

(٢) فى س: "سرائرها فى الفريد". [ولما لم يكن للجملة معنىً أرتضيه فقد صححتُها على ما هو فى المتن ليكون المعنى "أن الملك يجب أن تكون عنايتــه بهذه الأمور أكثر من عناية الأمِّ بحركة ولدها الوحيــد الفريد وبسكونه." وبذلك يستقيم المعنى وينسجم الكلام. [يؤيد هذا التخريج قول الجاحظ بعد ذلك بستة سطور: "والرابعة أن يفحص عن أسرار الرعية فحص المرضع عن منام رضيعها."]

(٣) فى س: الكتب.

واجبات الملوك عند الأحداث الخطيرة

ومن أخلاق الملك، إذا دَهِمَهُ أمرٌ جليلٌ من فَتْقِ ثَغرٍ أو قَتْلِ صاحبِ جيشٍ أو ظهورِ عَدُوٍّ يدعو إلى خلاف المِلَّة أو قوةِ مناوِئٍ، أنْ يترك الساعات التي فيها لَهْوُهُ ويجعلها وسائرَ الساعات في تدبير مكايدة عدوِّه وتجهيز جنوده وجيوشه، وأنْ يصرف في ذلك شُغْلَه وفِكْرَه وفراغه (على مثل ما فعل مَن مضى من ملوك الأعاجم وغيرها) ولا يجعل للتسويف والتمنّي وحُسن الظنّ بالأيام نصيبًا.

فإنّ هذا عَجْزٌ من الملك ووَهْنٌ يدخل على المُلك.

سنة الأعاجم إذا دهمتهم الكوارث والعظائم (١٤٤)

وكانت ملوك الأعاجم، إذا حَزَبها مِثلُ هذا، أمرتْ بالموائد التي كانت توضع في كل يوم أن تُرفَعَ وظائفُها، واقتصرتْ على مائدةٍ لطيفةٍ تقرُبُ من الملك ويحضرها ثلاثةٌ: أحدهم مُوبَذان مُوبَذ والدبيربذ(١) ورأس الأساورة. فلا يُوضع عليها إلا الخبزُ والمِلْحُ والخَلُّ والبَقْلُ. فيأخذ منه شيأً هو ومَن معه. ثم يأتيه الخبّاز(٢) بالبزماورد(٣) في طبق. فيأكلُ

(١) في س: والدمويذ. وفي ص: الزبرن. [وأنظر الحاشية ٢ صفحة ٧٧ وصفحة ١٦٠ من هذا الكتاب].

(٢) الخبّاز (هنا وفي كتب المسعودي وفي كتاب الأغاني) معناه خادم المائدة، لا بمعنى الذي يصنع الخبز. وذلك هو الذي نسميه الآن بالسفرجي.

(٣) قال عاصم افندي في ترجمة المعجم الفارسي "برهان قاطع" إلى اللغة التركية مامعناه "بزماوَرْد هو طعام يسمّى لقمة القاضي، ونخالة الست، ولقمة الخليفة. وهو مصنوع من اللحم المقلي بالزبد والبيض. ويقال فيه أيضا برماورد بالراء المهملة". وقال الشهاب الخفاجيّ في "شفاء الغليل" مانصه: "رماورد، والعامة تقول بزماورد. كلمة فارسية استعملها العرب للرقاق الملفوف باللحم. كذا في حواشي الكشاف. وفي القاموس: الزماورد بالضم طعام من البيض واللحم. وفي كتب الأدب: طعام يقال له لقمة القاضي ولقمة الخليفة. ويسمّى =

منه لُقمة[1]. ثم يَرفَعُ المـائدةَ ويتشاغلُ بتدبيرِ حَرْبِه وتجهيزِ عساكره[2]. ولا تزال هذه حاله حتّى يأتيه عن ذلك الفتق مايرتقه، وعن ذلك العدوّ مايُحِبُّ. فإذا أتاه، أمَرَ أنْ يُتّخَذَ له طعامٌ مثلُ طعامه الأوّل، وأمَرَ الخاصّــة والعامّة بالحضور. وقامت الخطباء أوّلا بالتهنئة له والتحميد لله تعالىٰ بالفتح عليه والنصر له. ثم قام المُوبَذ فتكلّمَ، ثم الوزراء بنحوٍ من كلام الخطباء. ثم مدّ الناس أيديهم إلىٰ الأطعمة علىٰ مراتبهم. فإذا فرغوا، بُسِطَ للعامّة فى ظهر الإيوان، وللخاصّة فى صَحْنِه بحضرة الملك. وقَعَدَ صاحبُ الشُّرْطة العامّة، كقعود الملك للخاصّة، ثم دعا بالمغنّين وأصحاب الملاهى.

وكانوا يقولون: إنّ حقّ شكرِ النعمة أن يُرىٰ أثرُها.

--- بخراسان نواله؛ ويسمى نرجس المـائدة وميسر ومهيأ." والذى فى شرح القاموس فى مادة (ورد) يماثل هذا الكلام، ولكنه قال فى مادة (زم رد) إن الزماورد دواء معروف، ووعد بشرحه فى مادة (ورد) ولم يفعل. ويتلخص من هذا البيان أن الباء أصلية فى بنية الكلمة كما يشهد به صاحب "برهان قاطع" وكما يدل عليه استعمال الجاحظ. وربمـا رأىٰ العرب التخفيف فحـذفوا الباء من أوّل الكلمة. ولكن ذلك لايجوز معه القول بأن بزماورد من كلام العامة. ويكون هذا الطعام عبارة عما نسميه الآن (الكفتة). وأما لقمة القاضى فهى الآن فى مصر عبارة عن صـنف من الحلوى يُتّخذ من الدقيق معجونا بالسمن والسـكر ثم يُقلْ ذلك المخلوط على أقراص مستديرة لهـا صومعةٌ رُبّمـا تكون فوقها قطعة من القشدة. ورأيتُ فى "كتاب مبادئ اللغة" لابن الخطيب الإسكافىّ المتوفّى سنة ٤٢١ مانصه: "البزماورد هو المُهنّأ والمُيسّر. وقال بعض المتأخرين:

أكلُ المُيسّر من رأسين، ياسَكَنى، * لايُستطاع ولا سيفانِ فى غِمد."

وقد ذكر صاحب "الأغانى" هذا الطعام. (ج ٤ ص ١٥٤)

(١) فى سـ: لُقَمًا.

(٢) روى ذلك صاحب "محاسن الملوك" باختصار ووقف عند هذا المكان، ثم زاد أن ملوك الفرس كانوا يقولون: "أسـعدُ الملوك مَن غَلَبَ عدوَّه بالحيلة." (ص ١٠٥)

[وكانت الخلفاء والأمراء إذا دهمهم أمرٌ — فزعوا إلى المنابر وحرّضوا الناس على الطاعة ولزوم الجماعة.] (١)

(١٤٥) ما فعله معاوية أيام صفين

وفيما يُذكَرُ عن معاوية أنه قال: ماذُقتُ أيامَ صِفِّينَ لحمًا ولا شحمًا ولا حُلْوًا ولا حامضا، ما كان إلا الخُبْزُ والجُبْنُ وخَشِنُ المِلح [إلى أن تمّ لى ما أردته]. (٢)

ما فعله عبد الملك عند خروج ابن الأشعث عليه

ويُحكَى عن عبد الملك بن مروان أنّ صاحب إفريقيّة أهدى إليه جاريةً تامّةَ المحاسن، شهيّةَ المُتَأمَّلِ. قال: فلمّا أنْ دخلتْ على عبد الملك بن مروان، نظر إليها وفى يده قضيبُ خَيْزُرانٍ. فصعّد ببصره إليها وصوّبه، ثم رمى بالقضيب. وقال: رُدّيه علىّ. فوَلّتْ. فنظر إليها مُقبِلةً ومُدبِرةً. فقال: أنتِ والله أُمنيّةُ المُتَمَنّى. قالت: فما يمنعُك ياأميرَ المؤمنين، إذْ كانت هذه صِفتى عندك؟ قال: بيتٌ قاله الأخْطَلُ:

قومٌ إذا حاربوا، شدّوا مآزِرَهُمْ (٣) * دون النساء، ولو باتتْ بأطهار.

وكان هذا فى خروج عبد الرحمن بن محمد بن الأشْعَث. ثم أمر بها أن تُصانَ وتُخْدَم. فلما فُتِحَ عليه، كانت أوّلَ جاريةٍ دَعا بها. (٣)

ما فعله مروان ابن محمد عند ظهور العباسيين

ويُحكَى عن مروان بن محمد الجَعْدىّ (٤) أنه أقام ثلاثين شهرًا لم يطأْ جاريةً إلى أنْ قُتِلَ. وكان إذا اسْتهدفتْ إليه الجاريةُ قال: إليكِ عَنّى! فوالله لا دنوتُ من أُنثَى

---

(١) هذه الزيادة عن "محاسن الملوك" (ص ١١٠).

(٢) أورد صاحب "محاسن الملوك" هذا الخبر باختصار قليل وأضاف عليه الجملة التى زدناها فى المتن. (ص ١٠٥ — ١٠٦)

(٣) أورد هذا صاحب "محاسن الملوك" فى صفحة ١٠٦

(٤) آخر خلفاء بنى أُميّة [وانظر حاشية ٣ صفحة ١٠٦ من هذا الكتاب].

(١٤٦) ولا حَلَّتْ لها عَقْدَ حَبْوَتي، وخُراسانُ ترجُف بنَصْرٍ[١]، وأبو مُجْرِمٍ[٣] قد أخذَ منه بالمُخَنَّق[٤]!

(١) ترجف بنصر أى تضطرب به. وهو نصر بن سيّار الذى ولّاه هشام بن عبد الملك إقليم خراسان فلم يزل واليا عليه حتى وقعت الفتنة بظهور العباسيين وطلبهم الخلافة على يد صاحب الدعوة أبى مسلم الخراسانى. وكتب نصر إلى مروان الجعدى آخر الخلفاء الأمويين يستنجده بالأبيات المشهورة، وهى:

أرى خَلَلَ الرَّماد وَميضَ نارٍ * ويوشك أن يكون له ضِرامُ.
فإنّ النارَ بالعُودَيْن تُذْكَى * وإنّ الحربَ أوّلها الكلامُ.
فإنْ لم تطفئوها، تَجْنِ حربًا * مشمَّرةً يشيب لها الغلامُ.
أقول من التعجب: ليتَ شِعرى! * أأيقاظٌ أميّةُ أم نيامُ؟
فإن يَكُ قومنا أضحَوْا نياما، * فقل: قوموا، فقد حان القيامُ!
ففِرّى عن رحالك ثم قولى: * على الإسلام والعَرَب السلامُ!

وأخباره معروفة، تراها فى "مروج الذهب" و"معارف" ابن قتيبة و"وفيات الأعيان" و"فتوح البلدان" وأبى الفداء، و"الأغانى" وابن خلدون و"معجم البلدان".

(٣) فى س: "أبو مخزوم". وهو تحريف من الناسخ. والإشارة هنا إلى أبى مُسلم الخراسانى الذى كان قد ضيّق الخناق على نصر بن سيّار المذكور فى الحاشية السابقة. وقد لقبه مروان بأبى مجرم بدلا من أبى مسلم بمعنى أبى الذنب والإجرام. وقد بقى له هذا النبز فى الدولة العباسية. فإن المنصور خاطبه بعد أن قتله بقوله:

زعمتَ أن الدَّيْن لا يُقتضَى ؟ * فاستوفِ بالكيل، أبا مُجْرِمِ!
اشرَبْ بكأسٍ كنتَ تَسقِى بها، * أمَرَّ فى الحلق من العلقم!

وقال أبو دُلامة:

أبا مُجْرِمٍ، ما غيَّرَ الله نعمةً * على عبده حتى يغيِّرها العبدُ!
أفى دولة المنصور حاولتَ غَدْرةً؟ * ألا إنّ أهل الغدر آباؤك الكُرْدُ!
أبا مسلم خوّفتنى القتلَ فانتحى * عليك بما خوّفتنى الأسَدُ الوَرْدُ!

وأنظر ابن خلكان فى ترجمته، و"شذرات الذهب" (ج ١ ص ١٩٨ و ١٩٩) [وأنظر ص ٨٢ من هذا الكتاب]. وأنظر "البيان والتبيين ج ٢ ص ١٥٥".

(٤) لخص ذلك صاحب "محاسن الملوك" (ص ١٠٦). وقد أورد المسعودى هذه الحكاية، فقال: "وأقام مَرْوانُ أكثرَ أيامه لايدنو من النساء الى أن قُتل. وتراءت له جارية من جواريه، فقال لها: والله لادنوتُ منك، ولاحَلَلْتُ لكِ عُقْدةً، وخُراسان ترجف وتضطرم بنصر بن سيّار، وأبو مُجْرِم قد أخذ منه بالمخنّق".

("مروج الذهب" ج ٦ ص ٦٣ و ٦٤ طبع أوروبا؛ ج ٢ ص ١٥٩ طبع بولاق)

مكايدة الملوك فى الحروب

ومن أخلاق الملوك المكايدةُ فى حروبها .

ولذلك كان يقال ينبغى للمَلك السعيد أن يجعل المحاربة آخِرَ حِيَلِهِ . فإن النفقة فى كلّ شىء إنما هى من الأموال، والنفقةُ فى الحروب إنما هى من الأنفُس . فإنْ كان للحِيَل محمودُ عاقبةٍ ، فذلك بسعادة المَلك، إذ رَبِحَ مَالَه وحقَنَ دماء جيوشه . وإن أعْيَت الحِيَلُ والمكايدُ، كانت المحاربةُ من وراء ذلك .

فأسعدُ الملوك مَن غَلَبَ عدُوَّه بالحيلة والمكر والخديعة .

وقد روينا عن نبيّنا (صلى الله عليه وسلم) مايُحقّق هذا ويؤكّده بقوله : "الحَرْبُ خَدْعَةٌ" .

وليس لأحدٍ من الخِدَع ما للملوك الأعاجم . والأخبارُ فى ذلك عنهم كثيرة . ولكنّا نقتصرُ من ذلك على حديثٍ أو حديثَيْنِ .

خدعة بهرام جور

فمن ذلك مايُذكر عن بَهْرام جُور أنه لمّا ملك بعد أبيه يَزْدَجِرْد ، بلغه أنّ ناحيةً من نواحى أطرافه قد أُخِذَتْ، وغَلَبَ عليها العدوُّ. فآستخفَّ بها وأَظْهَرَ الآستهانةَ به حتّى قَوِىَ أمرُ ذلك العدو وآشتدّت شوكتُه . فكان إذا أُخْبِرَ بحاله ، آستخفَّ بأمره (١٤٧) وصغّر من شأنه . حتّى قيل إنه قد زَحَفَ إليك ووجّه جيوشه إلى قَرار دارك . فقال : دَعُوهُ فليس أمرُه بشىء . فلمّا رأى وزراؤُه تهاوُنَه وتراخيَهُ عن أمرِ عدوِّه وآستهانتَه به، آجتمعوا إليه فقالوا : إنّ تَراخِىَ المَلك عن عدوّه ليس من سياسة المُلك ولا تدبيرِ المملكة ، وقد قرُب هذا العدوّ من قرار دار المَلك ، وأمرُه كلَّ يوم فى عُلُوٍّ . فقال بَهرام : دعوه، فأنا أعلمُ بضَعفه وصغَر شأنه منكم . وأقبلَ على اللهو واللعب ، وترَكَ

مايجبُ عليه من الصَّمْد [1] لعدوّه والقصْد له . فلمّا دنا عدوّه منه وأشرفَ عليه وخاف [2] الوزراء ورؤساء أهل المملكة آجتياحَه، آجتمعوا فتآمروا بينهم على توبيخ الملك وتعنيفه وإعلامه ماقد أشرفوا عليه من البَوَار والهَلَكة . وبلغه الخبر . فأمر مائتَىْ جاريةٍ من جواريه، فلبِسْنَ الثيابَ المُصَبَّغةَ المختلفةَ الألوان ، ووضعْنَ على رؤوسهنّ أكاليلَ الرَّيحان، وركِبْنَ القَصَبَ . وفعل بهرام كما فعلن . فلبِسَ من ثيابهنّ المصبوغة، وركِبَ قَصَبَةً . وأذِن للوزراء، فدخلوا عليه . فلما رآهم، صاح بالجوارى . فمرَرْنَ يخطِرْنَ، (١٤٨)
وبهرامُ خَلْفَهنّ يُغَنّى، وهنّ يغنّينَ معه، ويَصِحْنَ ويَلْعَبْنَ . فلمّا رأى ذلك وزراؤه يئسوا منه وآجتمعوا على خلعه . وبلغه الخَبَر . فدعا جاريةً من خاصّ جواريه، وقال: لكِ الويلُ إنْ عَلِمَ أحدٌ من اهل المملكة ما أُريدُ أن أفعلَ! ثم أمرها أن تَحْلِق رأْسَه، فَحَلَقَتْه . ودعا بمُدَرَّعةِ صوف فتدرّعها، وخرج فى جَوْف الليل ومعه قَوْسُه ونُشّابُه . وتقدّمَ إلى الجارية أن تُخْفِىَ أمْرَه وتُظْهِرَ أنّه عليلٌ إلى رُجوعه إليها . ومضى وَحْدَه حتّى آنتهى إلى طلائع العدوّ . فكَمَنَ فى مَنارٍ على ظهر الطريق . فجعل لا يَمُرُّ به طائرٌ فى السماء ولا وحشٌ فى البرّ، إلّا وضع سَهْمَه منه حيثُ أَحَبَّ . وجعل يجمع كلَّ ماصاد من ذلك، فجمعه بين يديه حتّى صار كالشىء العظيم . قال : فمرّ به صاحبُ طليعة العدوّ، فنظر إلى أمرٍ بُهِتَ له . فأخذه وقال: ويلك! ماأنتَ ومَن أنتَ ومن أين أنت؟ قال: إنْ أعطيتَنى الأمانَ، أخبرتُك! قال: فلكَ الأمانُ! قال: أنا غلامٌ سائسٌ، وإنّ مولاىَ غضِبَ علىّ ـ وكان لى مُحْسِنًا ـ فأوجعنى ضربًا ونزع ثيابى وحلَق رأسى وألبسنى هذه المُدَرَّعة وأجاعنى . وإنّى طلبتُ غَفْلته ، فخرجتُ أطلبُ شيئا أصيدُه (١٤٩)

(١) الصمْد هو القصْد كما فسره المؤلف بعده بواو العطف .

(٢) فى س "وحاق" وقد آعتمدتُ رواية ص .

فأكلهُ . فلما أعجبنى كثرةُ ما صِدْتُ، أردتُ أن أرمىَ بكلِّ ما معى من هذه السهام، ثم أنصرِفَ .

فأخذه فحمله إلى الملك فأخبَرَه بقصّته. فقال له الملك: ارْمِ بين يدىَّ! فرمى بين يديه. فكان لا يضع سهمَه فى طائرٍ ولا غيرِه إلّا أصابه حيثُ أراد. فبُهِتَ الملك، وطال تعجُّبه. فقال: ويلك! فى هذه المملكة مَنْ يرمى رِمايتَك؟ فضحِك بَهْرام، وقال: أيها الملك! أنا أخسُّهم رِمايةً وأحقرُهم قَدْرًا. وعندى جنسٌ آخَرُ من الثّقافة(١). قال: وما هو؟ قال: أدْعُ لى بإبَرٍ. فدعا له بها. فأخذ إبرةً فرمى بها على عشرةِ أذرعٍ، ثم أتبعها بأخرى فشكّها، ثم أتبعها بأخرى فشكّها كذلك، حتّى جعلَها سلسلةً قد تعلّق بعضُها ببعضٍ .

فبُهِتَ الملكُ ومُلِئَ قلبُه رُعْبًا. فقال له: ويلك! مَلِكُكم هذا جاهلٌ! أما يعلَمُ أنى قد قَرُبْتُ من قرار داره؟ فضحِك بَهْرام، وقال: إنْ أعطانى الملك الأمانَ، نصحتُه. قال: قد أعطيتُك الأمان. قال: إنّ مَلِكنا إنما تركك آستهانةً بأمرك، وتصغيرًا لشأنك، وعِلْمًا بأنك لا تخرُج من قَبْضَته. وذلك أنّى أخسُّ مَنْ فى دار مملكته وأخملُهم ذِكرًا. [١٥٠] فإذا كنتُ ـ وأنا بهذه الحال ـ أقتلُ بألفِ سَهْمٍ ألفَ رجلٍ، فما ظنُّك بالملك، وله مائةُ ألفِ عبدٍ فى قرار داره، أصغرُهم شأنًا أكبرُ منّى؟ فقال له الملك: صدقْتَنى فيما قُلْتَ! ولقد خُبِّرْتُ عن بهرام من تصغيرِه لشأنى وآستخفافِه بأمرى ما طابَقَ خبرَك. وما تركَنى أبلُغُ هذا الموضعَ من مُلْكِه إلّا لِما ذَكرتَ .

فأمَرَ عظيمَ جيشه أن يرتحِلَ من ساعته. ونادى فى الناس بالرحيل. ثم خرج لا يلوى على شىءٍ، وأطلق بَهْرَامَ. فانصرف بعد ثالثةٍ حتّى دخلَ داره ليلاً. فلمّا أصبح،

(١) الحذق والخفة والفطنة .

قَعَدَ للناس ودخل عليه الوزراءُ والعظماءُ. فقال: ماعندكم من خَبَرِ عدوّنا هذا؟ فأخبروه بانصرافه عنهم. فقال: قد كنتُ أقول لكم إنه صغيرُ الشأنِ، ضعيفُ المُنّة[1].

ولم يعلم أحدٌ منهم ما كانت العلّة في انصرافه[2].

مكايد أبرويز

وكان كسرى أَبَرْوِيز، بعد بَهرام جور، صاحب مكايد وخِدَع في الحروب ونِكاية في العـــدوّ[3].

(٥) وكان قد وجّه شَهْرَبَرَاز[4] لمحاربة مَلك الروم، وكان[5] مقدّما عنده في الرأي والنّجدة

---

(١) أي القوّة.

(٢) نقل هذه الحكاية بالحرف صاحب "تنبيه الملوك" (ص ٣٤ — ٣٨)، ولخصها صاحب "محاسن الملوك" (ص ١٠٧).

(٣) الحكاية الآتية نقلها أيضا صاحب كتاب "تنبيه الملوك والمكايد" المنسوب للجاحظ، وفيها تحريف كثير وسَقَطٌ متواتر واضطرابٌ في التعبير (ص ٢٢ — ٢٦).

(٤) في سـ: شهر يزاد، وهو تصحيف من الناسخ، وفي صـ: شهر يار وقد صحف ناسخو ابن الأثير هـذا الاسم بجعلوه شهر براز وشهر يزار، كما صحفوه في نسخ "مروج الذهب" بجعلوه مثل صـ شهر يار (وقد صححه العلامة باربيه دومينار في ترجمته بجعله شهر بار ليكون مطابقا للاسم الوارد في تواريخ الروم). وأما الصحيح فهو الذي اعتمدناه. (أنظر جميع المؤرخين وخصوصا الثعالبي في "غرر أخبار ملوك الفرس" (ص ٧٠١ حيث أورد هذه القصة). وانظر ابن الأثير. (ج ١ ص ٣٤٦ — ٣٤٩) وقد أورد قصة أخرى في سبب انتقاض شهر براز وفي الخديعة التي استعملها أبرويز لصدّ ملك الروم عنه. (وانظر "التنبيه والإشراف" ص ١٥٦ و ١٥٧).

وقد أورد هذه القصة رواية أخرى في "المحاسن والمساوي" ص ١٣٦ — ١٣٧. وسمى القائد "شهر براز" على الوجه الصحيح الذي اعتمدناه في المتن.

(٥) في سـ: فكان.

والبَسالةِ ويُمنِ النَّقيبة. فكان شهر براز قد ضيّق علىٰ ملك [الروم] قَرارَ داره [١] وأخذ بمُخنّقه حتّى همّ بمُهادنته ومَلّ محاربتَه وطَلَبَ الكَفَّ عنه. فأبىٰ ذلك عليه شهر براز، وآستعدّ له ملك الروم بأفضل عُدّة وأتمّ آلة وأحدّ شوكة. وتأهّب للقائه في البحر فجاءه في جمع لا تُحصىٰ عِدّته. قد أعدّ في البحر كلَّ ما يحتاج إليه من مالٍ وسلاحٍ وكُراعٍ وآلةٍ وطعامٍ وغير ذلك، والسُّفُنُ مَشحونةٌ مُوقَرةٌ. فبينا هو كذلك إذْ عصفَتْ ريحٌ في تلك الليالي فقلعتْ أوتادَ تلك السُّفن كلِّها وحَمَلَتْها إلىٰ جانب شهر براز، فصارتْ في مِلكه. وأصبحَ مَلك الرُّوم، قد ذهبَ أكثرُ ما كان يملكُ من الأموال والخزائن والعُدد والسِّلاح. فوجّه شهر براز بتلك الخزائن والاموال إلىٰ أبرويز. فلمّا رأىٰ أبرويز ما وجّه به شهر براز، كَبُرَ في عينه وعظُم في قلبه. وقال: ما نَفْسٌ أحقّ بطَيّب الثناء ورفيع الدعاء والشكر علىٰ الفعل الظاهر من شهر براز! جاد لنا بما لا تَسْخُو به النفوس ولا تَطيب به القلوب! فجمع وزراءه وأمر بتلك الأموال والخزائن فوُضعَتْ نُصْبَ عينيه، ثم قال لوزرائه: هل تعلمون أحدًا أعظمَ خطَرًا وأمانةً، وأحرىٰ بالشكر من شهر براز؟ فقامت الوزراء فتكلّم كلُّ واحدٍ منهم، بعد أن حمد الله وشكره ومجّده، وأثنىٰ علىٰ المَلك وهنّاه، ثم ذكر ما خصّ الله به المَلك من يمن نقيبة شهر براز وعفافه وطهارته ونُبله وعظيم عنايته. حتّى إذا فرغوا، أمر بإحصاء تلك الأموال والخزائن. (١٥٢)

ثم قام أبرويز فدخل إلىٰ نسائه. وكان للملك غلامٌ يقال له رُسْتَة، وكان سيِّئَ الرأي في شهر براز. فقال: أيها الملك! قد ملأ قلبَك قليلٌ من كثيرٍ، وصغيرٌ من كبيرٍ، وتافهٌ من عظيمٍ، خانَكَ فيه شهر براز وآثر به نفسَه. ولئن كان المَلك، مع رأيه الثاقب وحَزمه الكامل، يظُنُّ أنّ شهر براز أدّى الأمانة، لقد بَعُدَ ظَنُّه من الحقّ وخَسّ

(١) في سـ: وزار داره.

نَصِيبَهُ[(١)]. فوقع [في] نفس أبرويز ما قال رُسْتَهْ، فقال له : ما أَظُنُّك إلّا صادقًا. فما (١٥٣) الرأْيُ عندك؟ قال: تَكتُبُ إليه بالقدوم وتُوهِمُه أنّ بك حاجةً إلىٰ مناظرته ومشاورته فى أمرٍ لم تَجُز الكتابة به. فإنه إذا قَدِمَ، لم يُخَلِّف ما يملكُ وراءه، إذ كان لا يدرى أيرجعُ إلىٰ ما هناك أم لا. فيكون كلُّ ما يَقْـدَمُ به نُصْبَ عينيك.

فكتب أبرويز إلىٰ شهر براز يأْمره بالقدوم عليه لمناظرته ومشاورته فى أمرٍ يدِقُّ عن الكتّاب والمُراسلة.

فلما مضىٰ الرسول، أردفه برسولٍ آخَر. وكتب إليه: "إنى قد كنتُ كتبتُ إليك آمُرُك بالقُـدوم لأُناظرَك فى مُهِمٍّ من أمرى. ثم علِمْتُ أنَّ مُقامَك هناك أقدَحُ فى عدوّك وأنكىٰ له وأصلَحُ للملك وأَوْفَرُ علىٰ المملكة. فأقِم وكُنْ من عدوّك علىٰ حَذَرٍ، ومن غِرّته علىٰ تيقُّظ. فإنه مَن ذهب ماله، حَمَـل نفسَـه علىٰ التلف أو القَلْج[(٢)] والسلام!"

وقال للرسول الثـانى: إنْ قَدِمتَ فرأيتَـه قد تأهَّبَ للخروج إلىّ وظهـر ذلك فى عسكره، فآدفَعْ إليه هـذا الكتابَ. وكتَبَ: "أما بعـدُ، فإنى كتبتُ إليك وقد آستبطأتُ جواب قُدومك وحَرَكَتك. وعلمتُ أنَّ ذلك لأمرٍ تُصلِحه من أمر نفسك (١٥٤) أو مكيدةِ عدوّك. فإذا أتاك كتابى هذا فخلِّفْ أخاك علىٰ عَمَلك وأَغِذَّ السيرَ ولا تُعَرِّج علىٰ مُهِمٍّ ولا غيرِه. إنْ شاء الله!". وإن لم تره آستعدّ للخروج ولا تأهّب له، فآدفع إليه الكتابَ الأول.

(١) فى س : "نفسه". ولعل الصواب: "نصيبه". قال فى القاموس: "خسَّ نصيبَه جعله خسيسا دنيئا حقيرا." . ولم ترد هذه الكلمة ولا التى قبلها فى ص.

(٢) فى س : الفتح، وفى ص : الحتف. وقد صححتُ بما فى المتن ليكون المعنى ان الذى يذهب ماله يركب أخشن المراكب فإما أن يتلف وإما أن يظفر و ينجح. لأنه يكون فى حالة يأس تحمله على المغامرة ... نصوزَ.

فقدِمَ الرسولُ الثانى، وليس لشهر براز فى الخروج عزمٌ ولا خاطرٌ، ولا هَمٌّ به. فدفع إليه الكتاب الأوّل. فقال شهر براز: أوّلُ كلِّ قتلة حِيلَةٌ. وكان خليفة شهر براز ببـاب المَلك قد كتب إليه ما كان من قول رُسْتَةَ للمَلك وما كان من جواب المَلك له. ثم نازعت أبرويزَ نفسُه ودعاه شرهُهُ إلى إعادة الكتّاب إلى شهر براز بالقدوم عليه.

فلمّا قرأ شهر براز كتابه الثالث قال: كان الأمر قبل اليومِ باطنًا، فأمّا اليومَ فقد ظهر.

فلمّا علم أبرويز أنّ نيّة شهر براز قد فَسَدت وأنه لايقدَمُ عليه (١)، كتب إلى أخى شهر براز: "إنى قد ولّيتُك أمرَ ذلك الجيش ومحاربةَ ملك الروم. فإنْ سَلَّمَ لك شهر براز ما ولّيتُك، وإلّا فحاربْهُ!"

فلمّا أتاه كتابُهُ أظهره وبعث إلى شهر براز يخبره أن الملك قد ولّاه موضعه، وأمَرَهُ بمحاربته إن أبى أن يُسَلِّمَ إليه ما ولّاه. فقال له شهر براز: أنا أعلم بأبرويز منك، هو صاحب حِيَل ومكايد، وقد فَسَدتْ نيته لى ولك. فإن قتلَنى اليومَ، قتلَك غدا؛ وإنْ قَتَلك اليومَ، كان على قتلى غدًا أقوى (٢). (١٥٥)

ثم إنّ شهر براز صالَحَ مَلك الروم، لمّا خاف أبرويز. وتوثّق كلُّ واحدٍ منهما من صاحبه. واجتمعا على محاربة أبرويز. فقال له شهر براز: دَعْنى أتولّى محاربته، فإنّى

(١) هذه رواية ص . وأما س فروايتها: يقدر

(٢) رواية ابن الأثير فى هذا الموضوع أحسن وأمتن. ومحصلها أن شهر براز لما امتنع عن إجابة كسرى، بعد طلبه ثلاث مرات، أمر الملكُ بعزله وبتولية أخيه فرّخان الذى كان معه، وأمره بقتله. فلما أراد فرخان أن يقتله، قال له شهر براز: أمهلنى حتى أكتب وصيتى. ثم أحضر درجا وأخرج ثلاثة كتب من كسرى يأمره فيها بقتله، وأطلعه عليها، وقال له: أنا راجعتُ فيك أربع مرات ولم أقتلك، وأنت تقتلنى فى مرة واحدة. فاعتذر فرخان إليه وأعاده إلى الإمارة. واتفقا على موافقة ملك الروم على كسرى. (ج ٢ ص ٣٤٨)

أبصرُ بمكايده وعَوْراته[١] . فأبىٰ عليـه مَلِكُ الروم، وقال: بل أَقِمْ فى دار مملكتى حتّى أتولّىٰ أنا محاربته بنفسى. فقال شهر براز: أمّا إذ أَبَيْتَ علىّ فإنى مصوّرٌ لك صورةً، فآعمَلْ بمـا فيها وآمتثِلْها.

ثم صوّر له كلّ منزلٍ ينزلُه بينَه وبين أبرويز فى طريقه كلّه، وأىّ المنازل ينبغى له أن يقيم فيه، وأيّها يجعلها طريقا وسيرًا ماضيا حتّى اذ أقامه من طريقه كله علىٰ مِثل وَضَحِ النهار، قال له: فإذا صرتَ بالنَّهْرَوَانِ، فأَقِمْ دُونَه ولا تقطعْهُ إليه، وآجعله منزلك وجهِّزْ جيوشَك وعساكرك إليه.

فمضىٰ ملك الروم نحوه. وبلغ أبرويزَ الخبرُ فضاق به ذَرْعه، وآرْتَجَّ[٢] عليـه أمرُه. فكان أكثرُ جنوده قد تفرّقوا لطلب المعاش، لقطعـه عنهم ما كان يجب لهم من إقطاعاتهم وأرزاقهم. فبقِىَ فى جُنْدٍ كالمَيِّت أكثرُهم هَزْلىٰ إضرَاءٌ[٣]. ١٥٦

وكان ملك الروم يعمل علىٰ ما صوّره له شهر براز فى طريقه كلّه، حتّى إذا أشرَفَ علىٰ النَّهْرَوانِ، عَسْكَرَ هناك وآستعدّ للقاء أبرويز. وقد بلَغَهُ قلّةُ جموعه وتفرّقُ جنوده وسُوءُ حال مَن بَقِىَ معه. وكان فى أربعمائةِ ألفٍ، قد ضاقت بهم الفِجاج والمَسالك، فطَمِعَ فى قتل أبرويز ولم يَشُكَّ فى الظَّفَر به.

فدعا أبرويز رجُلا من النصارىٰ، كان جدُّه قد أنعمَ علىٰ جدّ النصرانىّ وآستنقذه من القتـل أيامَ قتل مانِى، وكان من أصحابه الذين آستجابوا له. فقال له أبرويز: قد عَلِمْتَ ماتقدّم من أيادينا عندكم، أهلَ البيت قديمًـا وحديثًا. قال: أجَلْ أيها الملك! وإنّى لشاكرٌ ذلك لك ولآبائك. قال: نخذْ هذه العصا وآمضِ بها إلىٰ شهر براز، فأْتِه فى قرار

---

(١) ضـ : ومعدراته .

(٢) أى آضـطرب .

(٣) أى مهزولون مَرْضىٰ . [والذى فى ســ : هزلا رضرا] .

مَلِك الروم، فادفعها إليه من يدك إلىٰ يده . وعَمَد إلىٰ عصًا مثقوبة، فأدخَل فيها كتابًا صغيرًا منه الىٰ شهر براز: "أما بعدُ فإنى كتبتُ إليك كتابى هذا وآستودعتُه العصا. فإذا جاءك، فحرِّق دار مملكة الروم، وآقتُل المُقاتلة، وآسْبِ الذُّرِّيّة، وآنْهَبِ الأموال، ولا تتركَنّ عينًا تطرِف ولا أُذنًا تسمَعُ ولا قلبًا يعى، إلّا كان لك فيه حُكْمٌ. (١٥٧) وآعلم أنى واثبٌ بملك الروم يوم كذا وكذا. فليكن هذا وقتك الذى تعمَل فيه ما أمرتُك."

قال: وأمر للنصرانىّ بمالٍ وجهّزه، وقال: لا تُعرِّجَنّ علىٰ شئ ولا تُقيمَنّ يومًا واحدا. وإيّاك ثم إيّاك أنْ تدفع العصا إلّا إلىٰ شهر براز، من يدك إلىٰ يده!

ثم ودّعه ومضىٰ النّصرانىّ. فلما عبَر النَّهروانَ، آتفق أنْ كانَ عُبورُه مع وقتِ ضربِ النواقيس. فسمع قَرْعَ عشرةِ آلافِ ناقوسٍ أو أكثر. فآنهملتْ عيناه وقال: بئس الرجُل أنا، إنْ أعنْتُ علىٰ دينِ النصرانيّة وأطعتُ أمرَ هذا الجبّار الظالم!

فأتىٰ باب مَلِك الروم، فآستأذن عليه، فأُذِنَ له. فأخبَره بقصّة أبرويز حرفًا حرفًا. ثُمّ دفع إليه العصا، فأخذها ونظر فيها. ثم آستخرجَ الكتاب منها فقُرِئَ عليه. فنخر، وقال: خدعنى شهر براز! ولئن وقعتْ عينى عليه، لأقتُلنّه!

وأمَر فقُوِّضَتْ أبنيَتُه من ساعته، ونادىٰ فى الناس بالرحيل. وخرج ما يَلْوِى علىٰ أحدٍ.

(١٥٨) ووجه أبرويزُ عينًا له يجيئه بخبره. فآنصرف إليه فأخبره أنّ الملك قد مضىٰ ما يلتفتُ لَفتةً. فضحك أبرويز، وقال: إنّ كلمة واحدة هزَمتْ أربعمائة ألف بجليلٍ قدْرُها ورفيعٍ ذِكْرُها[١]!

(١) والعرب تقول: أنفذُ من الرميّة، كلمةٌ خفيّة. ("العقد الفريد" ج ١ ص ١٦٥)

الكتاب وإذ قد انتهينا إلى هذا الموضع من كتابنا هذا، وأخبرنا بأخلاق الملوك في أنفسها، وما يجبُ على رعاياها لها، بقدر وُسع طاقتنا، فلنختِمْ كتابنا هذا بذكر مَنْ بعثنا على نظمه، وكان مفتاحا لتأليفه وجمعه.

ولنقُلْ إنّا لم نَرَ في صَدر هذه الدولة المباركة العباسيّة ولا في تاريخها وأيّامها إلى هذه الغاية فتًى اجتمعتْ له فضائلُ الملوك وآدابُها ومكارمُها ومناقبُها، فحازَ الولاءَ من هاشم والخِصّيصَى(١) من خُلفاء بني العباس الطّيّبين، والتّبنّي من المُعتصِم بالله وإخوته الأبرار من أئمة المؤمنين وورثة خاتَمِ النبيّينَ، عدا الأميرَ الفتحَ بنَ خاقانَ مَوْلى أميرِ المؤمنين.

فلتهنئـه هذه النِّعْمَةُ المُهداة! وبارك له واهبها، وزاده إليها الدأبَ عليها حتّى يبلغ به أرفعَ يَفاعِها وأسنىٰ ذِرْوتها وأعلىٰ درجاتها، في طُولٍ من العُمر وسلامةٍ من عوادي الزمان وغِيَرِه ونَكَباته وعَثَراته! فإنه رحيم كريم!

في آخر النسخة السلطانية ما نصُّـه:

تمّ الكتاب المبارك بحمد الله تعالىٰ وعونه وحسن توفيقه. والحمد لله وحده!

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا!

حسبنا الله ونعم الوكيل!

---

(١) أي الاختصاص بالتفضيل.

تكميل للروايات

و

تصحيحات مطبعيـــــــة

تكميلٌ

لبعض الروايات والملحوظات الانتقادية التي وضعتُها في حواشي هذا الكتاب . والقصد من هذا التكميل أن تزداد فوائده لمن يعنيهم استيفاء بحث خاصّ أو التوسّع في مطلبٍ ممّا جرىٰ به قلمُ الجاحظ .

صفحة ١١ (حاشية ١)

١ — ورد اسم "ميسرة" في كتاب "الحيوان" (ج ٧ ص ٢٨) ولكن الجاحظ نعته فيه بلقب "التّبّاس" ووصف مقداراً كله ، وما ذا كان يصنع إذا أجهدته الكظّة . كذلك ابن أبي الحديد (ج ٤ ص ٣٢٤ — ٣٢٦) تكلّم عن هذا الأكول وأعطاه لقباً آخر وهو "الرأس" بدلا من "التّرّاس" أو "البرّاش" . ولاشك أن هذه الألفاظ كلها محرّفة عن لقب واحد من مادّة واحدة . ولو اعتبرنا كتابتها نجدها كلها متقاربة في الشكل والصورة . وهذه التحريفات مصدرها إهمال النّسّاخين المتأخرين .

٢ — أولع الجاحظ بذكر "قاسم التّمّار" وبمداعبته والعبث به في كتبه . وقد وصفه بطول العنق ، وأشار إلىٰ بعض نوادره وأحواله ، هو وابنه ، الذي كان شرّ شبيه بأبيه .

ويستفاد من كلام الجاحظ أنه كان معاصرا له .

أنظر كتاب "التربيع والتدوير" (ص ٨٩ و ١٠١) ؛ وكتاب "البيان والتبيين" (ج ٢ ص ٣ وخصوصا ص ١٦١) ؛ وكتاب "الحيوان" (ج ٥ ص ٦١) ؛ وكتاب "البخلاء" (ص ٢١٥ و ٢١٦ بأكلهما) ؛ و"المحاسن والأضداد" (ص ٩ حيث سماه : القاسم التمار) .

٣ — ذكر الجاحظ "أبا همام السنوط" في كتاب "البخلاء" (ص ٢٢٨) ، وسماه السنوط ، ووصفه بالأكّال . وقد ذكره أيضا في كتاب "الحيوان" (ج ١ ص ٥٥) .

٤ — مما يجب بيانه فى موضوع المشهورين بكثرة الأكل فى الإسلام أن ابن أبى الحديد نص (فى شرح نهج البلاغة، ج ٤ ص ٣٢٤ — ٣٢٦) على أن الذى منهم هو "أبو الحسن بن أبى بكر الحسن بن على ابن العلاف" أى ابن الشاعر الشهير بابن العلاف . وقد ورد ذكر هذا الابن عرضا فى "وفيات الأعيان" لابن خلكان فقال عنه : " وهو الأكول المقدّم فى الأكل ، فى مجالس الرؤساء والملوك " . ثم قال عنه فى موضع آخر : "وهو المشهور بكثرة الأكل " (ج ١ ص ١٩٤ ، ٥٣١ طبعة بولاق سنة ١٢٧٥ أى فى ترجمة أبيه الحسن بن العلاف ، ثم فى ترجمة علىّ بن المرات) .

٥ — ذكر ابن أبى الحديد أيضا " هلال بن أشعر " وهو نفس الذى سميناه " هلال بن الأسعر " . لأن صحة اسمه بالسين المهملة . (أنظر " تاج العروس " فى مادة — س ع ر — وفى مادة — ر ز م — وأنظر ترجمته فى "الوافى بالوفيات") . وهو هو الذى سميناه فى حاشية صفحة ١١ من التاج : "هلال ابن مسعر" والغلط عن الكتب التى نقلنا عنها وأشرنا إليها فى تلك الحاشية .

٦ — أضاف ابن أبى الحديد لنا اسما جديدا يجب ضمه إلىٰ إخوانه وهو " عنبسة بن زياد " إن لم يكن هو و"عبيد الله بن زياد بن أبيه" رجلا واحدا . فإن تحريف "عبيد" إلىٰ "عنبسة" ليس ببعيد .

٧ — أضاف ابن أبى الحديد لنا اسما جديدا آخر ، وهو " أبو خارجة " الذى روىٰ لنا الجاحظ أخباره وقال عنه إنه يضرب به المثل . (أنظر"الحيوان" ج ٥ ص ١٤٧) .

٨ — هذا وأنا أعتقد أن"مزردا" الذى ذكرته فى ضمن أسماء الأكَلة فى تلك الحاشية إنما هو "مُزَرِّد" وهو لقب ضرار بن الشّماخ . والتحريف راجع إلىٰ تلك الكتب التى نقلتُ اسمه عنها . وأنظر"تاج العروس" فى مادة — زرد — وإن كان لم يخبرنا بأنه من الأكلة .

٩ — وقد نقل ابن أبى الحديد عن كتاب " الأكَلة " للمداينى — الذى ذكرناه فى آخر تلك الحاشية — أحوالا وأخبارا تراها فى الجزء الرابع من "شرح نهج البلاغة" (ص ٣٢٤ — ٣٢٦) .

صفحة ١٢ (حاشية ١)

عرّفنا الجاحظ بإبراهيم بن السندى بن شاهك ، فقال فى رسالة "مناقب الترك وعامة جند الخلافة" إنه "كان عالما بالدولة شديدا الحب لأبناء الدعوة ... ... وكان نخم المعانى، نخم الألفاظ . لو قلت : لسانه كان أردّ على هذا الملك من عشرة آلاف سيف شهير وسنان طرير، لكان ذلك قولا ومذهبا" .

وعرّف به الجاحظ أيضا فى "البيان والتبيين" (ج ١ ص ١٢٩) بقوله :

كان رجلا لانظير له ، وكان خطيبا ، وكان ناسبا ، وكان فقيها ، وكان عروضيا وحافظا للحديث ، راوية للشعر ، شاعرا . وكان نخم الألفاظ ، شريف المعانى . وكان كاتب القلم ، كاتب العمل . وكان يتكلم بكلام رؤبة ، و يعمل فى الخراج بعمل زاذان فروخ الأعور . وكان منجما ، طبيبا . وكان من رؤساء المتكلمين ، وعالما بالدولة وبرجال الدعوة . وكان أحفظ الناس لما سمع ، وأقلهم نوما ، وأصبرهم على السهر .

صفحة ١٦ (حاشية ١)

أضف على البيانات التى أوردتها فيها عن آستعمال لفظة "الأستكفاء" بمعنى التولية وتقليد المناصب قولَ الجاحظ نفسه :

قال يزيد بن معاوية لسلم بن زياد حين ولاه على خراسان : إن أباك كفى أخاه عظيما ، وقد آستكفيتك صغيرا . فلا تتكلنّ على عذر منى لك ، فقد آتكلت على كفاية منك . و إياك منى ، قبل أن أقول : إياى منك . فإن الظن إذا أخلف منك ، أخلف منى فيك . وأنت فى أدنى حظك ، فآطلب أقصاه . وقد أتعبك أبوك ، فلا تريحن نفسك . وكن لنفسك ، تكن لك . وآذكر فى يومك أحاديث غدك ، تسعد . إن شاء الله !
(البيان والتبيين ج ١ ص ١٤٩ ثم ص ٢٠٤).

صفحة ١٦ (حاشية ٢)

أضف على هـذه الحاشية أن ابن أبي الحديد روى فى " شرح نهج البلاغة " (ج ٤ ص ٣٨٠) قصة الرجل الذى أراد سابور أن يمتحنه قبل أن يوليه قضاء القضاة .

صفحة ١٩ (حاشية ٢)

أضف على ما أوردته من البيانات بخصوص الآيين أن الجاحظ نفسه قد استعمل هذا اللفظ ثلاث مرات فى كتاب "البخلاء" طبع ليدن فقال :

١ — الآيين فيما نحن فيه أن تكون إذا كنتُ أنا الجالس وأنت المـارّ أن تبدأ أنت فتسلّمَ فأقول أنا حينئذ مجيبا لك : وعليكم السلام . (ص ٢٧) .

٢ — وإن كنتُ آكلُ ، فهاهنا آيين آخر . وهو أن أبدأ أنا فأقول هَلُمَّ ! وتجيب أنت فتقول : هنيئا ! فيكون كلامٌ بكلامٍ . فأما كلامٌ بفعالٍ ، وقولٌ بأكلٍ ، فهذا ليس من الإنصاف . (ص ٢٨) .

٣ — إحضار الجَدْي إنمـا هو شيء من آيين الموائد الرفيعة . وإنمـا جُعل كالعاقبة والخاتمة ، وكالعلامة اليسر والفراغ ، وإنه لم يُحْضَر للتمزيق والتخريب . (ص ١٠٣) .

هـذا وقد ذكر ياقوت فى الجزء الثانى من معجم الأُدباء (ص ٥٩) نقلا عن الفهرست أن أحمد بن محمد ابن نصر الجيهانىّ ألّف "كتاب آيين" و"كتاب الزيادات فى كتاب آيين فى المقالات" .

صفحة ٢٠

الحكاية الواردة فى متن هـذه الصفحة قد أوردها الجـاحظ بنصها وفصها مع زيادة كلمتين فقط (فى "البيان والتبيين" ج ١ ص ٢٣٢) . ثم أوردها أيضا فى كتاب "البخلاء" (ص ١٩٣) :

وعنه نقلها ابن عبد ربه فى " العقد الفريد " بدليل نقله أيضا الكلام الذى عقّب به الجاحظ فى موضوع آخر من باب الاستطراد .

صفحة ٢٠ (حاشية ١)

أضيف إلى ما كتبته عن بلال بن أبي بُردة ما ذكره لنا الجاحظ من أنه خطب بالبصرة يوما ، فرأى الناس قد استحسنوا كلامه ، فقال لهم : " لا يمنعكم سوء ما تعلمون منا أن تقبلوا أحسن ما تسمعون منا " .

(البيان والتبيين ج ١ ص ٢٠٨)

وقد ذكره الجاحظ فى مواضع كثيرة من كتاب " البخلاء " (ص ٧٥ و ١٦٣ وخصوصا ص ١٦٩) حيث أورد له كلمة ضافية فى المقارنة بين البخل والكرم ، وتفضيل الكرم .

صفحة ٢٠ (حاشية ٢)

كان الجارود بن أبي سبرة — ويكنى أبا مفضل — من أبين الناس وأحسنهم حديثا . وكان راوية علامة ، شاعرا مفلقا . وكان من رجال الشيعة . ولما استنطقه الحجاج قال : ماظننتُ أن بالعراق مثل هذا . وكان يقول : ما أمكننى والٍ من أذنه إلا غلبت عليه ، ماخلا هذا اليهودى (يعنى بلال بن أبي بردة) . وكان عليه متحاملا . فلما بلغه أنه (أى الحجاج) وحقه (أى بلالا) حتى رقت ساقه وجعل الوتر فى خصييه أنشأ يقول :

لقد قرَّ عينى أن ساقيه رقتا ❊ وأن قوى الأوتار فى البيضة اليسرى
بخلت وراجعت الخيانة والخنا ❊ فيسرك الله المقدس للعسرى
فما جذع سوء خرّب السوس جوفه ❊ يعالجه النجار يبرى كما تبرى

وإنما ذكر الخصية اليسرى ، لأن العامة تقول إن الولد منها يكون .

(البيان والتبيين ج ١ ص ١٢٦ و ١٢٧)

صفحة ٢٤ (حاشية ١)

الشائع عند العرب آستعمالهم "الأساورة" بصيغة الجمع . ولكنهم كانوا يستعملون المفرد أيضا . والامثلة كثيرة ، نختار منها ما أورده الجـاحظ فى كتاب "الحيوان" (ج ٦ ص ١١٤) حيث قال "بصُرت بفهد على قاب غلوة ، فسعيتُ إليه ، وأنا أُسوارٌ كما تعلمون . فوالله ! ما أخطأتُ حاقّ لِهزِمِه حتّى رزق الله عليه الظفر" .

صفحة ٤٣ (سطر ٨)

مما يجب تعليقه على ما رواه الجاحظ بخصوص تهاون الأمين إبّان محاصرة الجيوش له فى بغداد ، أن صاحب "بدائع البدائه" روى القصة الآتية (فى صفحة ٦٨) وهى :

خرج كوثر، خادم الأمين ، لينظر الحرب أيام محاصرة طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعْيَن لبغـداد ، فأصابه سهم غَرَب ، بجرحه . فدخل على الأمين يبكى لألَمِ الجراحة . فلم يتمالك الأمين أن جعل يمسح عنه الدمَ ويقول :

ضربوا قُرّةَ عيـــنى ، * ومن أجلى ضرَبوهُ !
أخـذ اللهُ لقلـــبى * مِن أُناس أوْجعُوه ...

ثم أُرْتِج عليه . فأستدعى الفضل بن الربيع وأمره بإحضار شاعر يُجيزُ البيتين . فأستدعى لذلك عبد الله بن محمد بن أُيوب التيمىّ وأنشدهما له فقال :

ما لِمَنْ أهوى شبيهٌ ، * فبـــه الدُّنيا تَتِيهُ !
وَصْـلهُ حُلْو ، ولكِنْ * هَجْره مرٌّ كريهُ !
مَن رأى الناسُ له الفضـــل عليهم ، حسدوه !
مثل ما قد حســد القا * ئمَ بالمــلك أخُوه .

فأمر الأمين له بوقر ثلاثة أبغل دراهم .

صفحة ٤٣ (حاشـــية ٣)

أضف على ما أوردته فى هـــذه الحاشـــية شرحًا للفظة "بأْو" ما أورده الجاحظ فى "البيان والتبيين" (ج ٢ ص ٣٧) وهو :

قال جعدة بن هبيرة :

أبى من بنى مخزومَ ، إنْ كنتَ سائلًا ، * ومن هاشمٍ أُمّى ، لَخـــيرُ قبيلِ !
فمن ذا الذى "يَبْأَى" علىَّ بخـــاله ، * وخالى علىٌّ ، ذو الندىٰ ، وعقيـــلُ ؟

صفحة ٤٤ (حاشـــية ١)

الشجرة المعروفة عند العرب بأسم "السرحة" تكلم عنها علمـــاء النبات من الإفرنج مثل العلامة "فورسكال" قديمـــا ، والأستاذ "شويتفُرتْ" الموجود الآن .

فقال الأوّل : CADABA farinosa ; foliis ovatis, oblongis, farinosis.
Descr. Folia alterna, semipollicaria, farinoso-tomentosa, plana, integra, obtusa, alterna. Pedunculi racemi ramorum terminales. Rami recentes tomentoso-farinosi. Nectarium album, parvum lingua tubo angustiore revoluta. Petala 4, undulata. Stamina inserta pedicello germinis infra medium.

Arab. Asal. aliis Korrah vel Særah سرح Usus antitoxicus: dum rami recentes & minores masticantur ; vel pulveris forma eduntur.

(P. Forskal, *Descriptiones plantarum flora Ægyptiaco-Arabicæ* : pp. 68)

وقال الثـــانى ما نصه : Sserahh. Saerah سرح 140 Cadaba c) farinosa Forsk.
(Schweinfürth G., *Arabische Pflanzennamen aus Ægypten, Algerien und Jemen* : p.p. 117)

ولكن شرح هذين العالمين ينطبق على نجم أى ّشجيرة ، مع أن المفهوم من كتب اللغة العربية أنها شجرة كبيرة .

صفحة ٤٧ (حاشية ٤)

أضف على ما بها من المعلومات أن الجاحظ أورد البيانات الخاصة بأبى أُحيحة وعمامته (فى "البيان والتبيين" ج ٢ ص ٧٧) فقال ما نصه : "وكان أبو أُحيحة سعيد بن العاص (*) إذا اعتمّ بمكة لم يعتمّ معه أحدٌ . هكذا فى الشعر . ولعلّ ذلك أنْ تكون مقصورا فى بنى عبد شمس . وقال أبو قيس بن الأسلت :

وكان أبو أُحيحةَ ، قد علمتُمْ ، * بمكّةَ غيرَ مهتضَمٍ ذميمِ .
إذا شدّ العِصابةَ ذات يومٍ * وقام إلى المجالس والخُصومِ ،
فقد حَرُمتْ على مَن كان يمشى * بمكّةَ غيرِ مُدَّخَلٍ سقيمِ .
وكان البَخْتَرِىَّ (١) غداةَ جمعٍ * يدافعهُم بلُقمانَ الحكيمِ .
هو البيتُ الذى بُنِيَتْ عليه * قُرَيْشُ السِّرِّ فى الزمن القديمِ .
وسِطْتَ (٢) ذوائبَ القَرْعَيْنِ منهمْ ، * فأنت لُبابُ سرِّهِمِ الصميمِ ! "

صفحة ٤٨ (حاشية ٦)

أضف ما أفادناه صاحب كتاب "الفهرست" عن أبى حسّان الزيادىّ أنه . كان "قاضيا فاضلا ، أديبا ناسبا ، جوادا كريما يَعمل الكتب وتُعمل له ، وكانت له خِزانة حسنة كبيرة ... ومات ... سنة ٢٤٣ ، وله سبع وثمانون سنة وأشهر . .وله من الكتب : كتاب مغازى عروة بن الزبير ، كتاب طبقات الشعراء ، كتاب ألقاب الشعراء ، كتاب الآباء والأمهات" . (عن كتاب "الفهرست" ص ١١٠) .

(*) يغلط كثير من ناسخى الكتب وطابعيها فيقولون "العاصى" فى هذا الرجل وفى عمرو بن العاص وغيرهما من أبناء هذا البيت . والحقيقة أنه من "العوص" لا من "العصيان" . ولذلك يقال لهم "الأعياص" (راجع "الاشتقاق" لابن دريد و"لسان العرب" وغيرهما من كتب الأنساب واللغة والأدب) .

(١) البَخْتَرِىُّ الحسن المشى والجسم . (أنظر اللسان ج ٥ مادّة ـ ب ح ت ر ـ) .

(٢) أى توسّطتَ فكنتَ أنت الواسطة بين القرعين .

هذا ، وقد أوهمتني عبارة أبي المحاسن عند كلامه على السنة الثانية من ولاية عنبسة بن إسحاق على مصر أن المتوكل ولّى أبا حسان الزيادىّ هذا قضاء الشرقية ، أن المقصود هو إقليم الشرقية بديار مصر . ذلك خاطرٌ سبق إلى وهمي ، وأنا أبرأ إلى الله منه . لأن الشرقية التي تولّى قضاءها أبو حسان الزيادىّ هي أحد شِقّيْ بغداد . وقد وصفها اليعقوبىّ (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب) فقال : " وإنما سُمّيت الشرقيّة لأنها قُدِّرت مدينةً للمهدىّ قبل أن يعزم [أبو جعفر المنصور] على أن يكون نزول المهدىّ في الجانب الشرقىّ من دِجلة . فسُمّيت الشرقية ؛ وبها المسجد الكبير ، وكان يُجمَّع فيه يوم الجمعة ، وفيه منبر . وهو المسجد الذي يجلس فيه قاضي الشرقيّة " . (أنظر كتاب البلدان لليعقوبىّ طبع لَيْدن سنة ١٨٦٠ صفحة ١٧) .

صفحة ٥٢ (حاشية ٢)

أضف على هذه الحاشية أن الجاحظ قد شرح لنا "التتايع" بقوله : فالمتايع ، لا يثنيه زجر وليست له غاية دون التلف . (كتاب "البخلاء" ص ١٨٣) .

صفحة ٥٣ (سطر ١٤)

أورده الجاحظ " في البيان والتبيين " أيضا (ج ١ ص ١٦٦) .

صفحة ٥٤ (سطر ١ — ٢ من المتن)

روى الجاحظ مقولة الشعبىّ في "البيان والتبيين" (ج ١ ص ١٦٦) . ولكن طابعه أورد "تنابذا" بدلا من "تناقدا" التي في طبعتنا نقلا عن مصر . والظاهر أن هذه الثانية أفضل ، لأن السياق يدل عليها .

صفحة ٥٤ (سطر ٣ ـــ ٧ من المتن)

روى الجاحظ أيضا فى "البيان والتبيين" الحديثَ الذى كان بين المأمون و بين سعيد بن سَلْم بشأن آستحسان الخليفــة له فيما يبديه من "حسن الإفهام وحسن الفهم" . (أنظر "البيان والتبيين" ج ١ ص ١٦٦ ، وفيها آختلاف طفيف فى بعض الألفاظ مما لا عبرة به) .

صفحة ٥٤ (حاشية ١)

أضف إلى الرواية التى أشرنا إليها أن الجاحظ روى كلمة عمرو بن العاص أيضا فى "البيان والتبيين" برواية ثانية فيهــا آختلاف فى اللفظ لا المعنى ، وهى مغايرة لرواية المبرد التى أشرنا إليها فى تلك الحاشية . (أنظر "البيان والتبيين" ج ١ ص ١٦٦) .

صفحة ٥٦ (حاشية ٤)

فى "المخصص" لأبن سِيدَهْ شرح "السهم العائر، والسهم الغَرَب" (ج ٦ ص ٧٦) . [وآنظر عن "السهم الغَرَب" ما أوردته فى صفحة ١٩٤ عن تكميل صفحة ٤٣ س ١٠] .

صفحة ٥٨ (حاشية ١)

أضف على الخلاصة التى كتبتُها على أبى بكر الهُذَلى ما قاله الجاحظ عنه فى "البيان والتبيين" (ج ١ ص ١٣٦) أنه كان قاصًّا وعالما بيِّنًا وعالما بالأخبار والآثار . وقد سماه (ج ٢ ص ١٢٠) "سلمى" ونقل عنه هذه الكلمة : "إذا جمع الطعامُ أربعا ، فقد كمل : إذا كان حلالا ، وكثرت عليه الأيدى ، وسُمِّىَ الله على أوّله ، وحُمِدَ على آخره" . . وأضف على ذلك ما قاله الجاحظ فى ذلك الكتاب أيضا (ج ١ ص ١٣٦) من أنه كان خطيبا قاصًّا وعالما بالاخبار والآثار ؛ وأنه لما ناظرَ أهل الكوفة قال : "لنا الساج والعاج

والديباج والخراج والنهر العجّاج" . وقد روى الجاحظ هذه الكلمة فى كتاب "الحيوان" (ج ٧ ص ٧٢) على هذا المثال : "نحن أكثر منكم عاجا وساجا وديباجا وخراجا" . ونسبها للأحنف بن قيس فيا نفخر به على أهل الكوفة ، ثم قال الجاحظ : ويقال إنها من كلام خالد بن صفوان أو من كلام أبى بكر الهذلىّ . وقد أورد الجاحظ هــذه الكلمة فى كتاب "البيان والتبيين" (ج ١ ص ١٨٤) ولكنه اقتصر على نسبتها للهذلىّ هذا ، دون غيره .

صفحة ٦٠ (حاشية ١)

أضف على الخلاصة التى كتبتها عن رَوْح بن زِنْباع ما رواه الجاحظ من أن معاوية همّ به فقال له رَوْحٌ :

"لا تُشْـــمِتَنّ بى عدوّا أنت وقمتَه (*) ، ولا تَسُوأنّ بى صديقا أنت سررتَه ، ولا تَهدِمنّ منى ركنا أنت بنيتَه ! هلّا أتى حلمك على جهلى وإساءتى؟" (البيان والتبيين ج ١ ص ١٣٧ [illegible] التى استمال بها الناس لمبايعة مَرْوان بن الحَكَم بالخلافة (فى الكتاب المذكور ص ١٤٧) [illegible] التبيين" (ج ١ ص ١٨٠) كلمة عبد الملك بن مَرْوان التى نقلناها عن "العقد الفريد" فى تلك الحاشية . فلا بد أن يكون ابن عبد ربّه قد أخذها عن الجاحظ .

صفحة ٦٠ (حاشية ٣)

أضف على ما ذكرتُه عن أسماء بن خارجة الفزارىّ أن الحجاج بن يوسف الثقفىّ لما بلغه موته ، قال :

"هل سمعتم بالذى عاش ماشاء ثم مات حين شاء ؟" (البيان والتبيين ج ١ ص ١٠٣ ، ١٧٧) .

(*) وقمتَه أى قهرتَه وأذللته . [حاشية عن طابع "البيان والتبيين"] .

صفحة ٦١ (حاشية ١)

أضف عليها ما أورده الجاحظ فى كتاب " الحيوان " حيث قال :

١ — العقرب تقع فى يد السنور، فيلعب بها ساعة من الليل، وهى فى ذلك مسترخية " مستخذية " لا تضربه (ج ٤ ص ٧٢) .

٢ — ولولا أن الأبغث [هو هو البُغاث] علىٰ حال يعلم أن الصقر... قد أُعطى فى سلاحه وكفّه فضل قوة، لما "استخذىٰ" له ولما أطمعه فيه بهربه (ج ٦ ص ١٠٣) .

٣ — ولولا أن المرّيمعن فى الهرب غاية الإمعان ثم لحقته [الهرة]، لقطعته وهو "مستخذ" (ج ٧ ص ٤٧) .

(صفحة ٦٢ — ٦٥)

أورد فى كتاب " المحاسن والأضداد " المنسوب إلىٰ الجاحظ ما رواه الجاحظ عن امتحان أنوشروان لمن خانه فى حريمه . والعبارتان يكاد لفظهما يكون واحدا . علىٰ أنّ النصّ الوارد فى روايتنا قد استوفىٰ نصيبه من التصحيح والتحقيق (أنظر كتاب المحاسن والأضداد طبع العلّامة فان فلوتن ص ٢٧٧ — ٢٨٠) .

صفحة ٦٥ (حاشية ٣)

أوّلا — ورد اسم خالد بن يزيد فى أثناء الكلام . وقد رأيتُ من الواجب زيادة التعريف به لأنه من السابقين إلىٰ إدخال علوم الفلسفة فى اللغة العربية . فقد روىٰ لنا عنه صاحب " كتاب الفهرست " بعض الشىء، ووصفه بأنه "حكيم بنى أُميّة" . ولكن المعلومات التى أوردها عنه تدلّ علىٰ أنه كان منقطعا إلىٰ الكيمياء . أما الجاحظ فقد أظهر لنا فضلَه الكبير فى خدمة الأدب والعلم، فقال : إنه "كان خطيبا شاعرا، وفصيحا جامعا، جيّد الرأى كثير الأدب . وكان أوّلَ مَن ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء ." (البيان والتبيين ج ١ ص ١٢٦) .

وأنا أزيد على ذلك أن هذا الأمير كان مرشحا للخلافة ، فلما نحوها انقطع لخدمة العلم والأدب ، فأبقى لنفسه فخرا باقيا على مدى الأبد .

وليت امراء الشرق فى هذا العصر يقتدون به ، لينفعوا أنفسهم ووطنهم وأمتهم ! ! !

ثانيا — أنظر أيضا مكاتبات عبد الملك بن مروان وعمرو بن سعيد الأشدق (فى "البيان والتبيين" ج ٢ ص ١٨٥) ، وتلقيب سعيد بلطيم الشيطان (ج ١ ص ١٥٢ و ١٨٤) ، وأسبابا لطيفة فى تسميته بالأشدق (ج ١ ص ١٩١) .

ثالثا — ذكرتُ فى هذه الحاشية قول ابن الزبير " إن أبا ذِبّان قتل لطيم الشيطان " . واعلم أن " أبا ذِبّان " هو كما فى " لسان العرب " (لقبٌ غلب على عبد الملك بن مَرْوان الخليفة الأموى ، لفسادٍ كان فى فمه . والعرب تكنى الأبخر "أبا ذُبّاب" وبعضهم يكنيه "أبا ذِبّان" . قال الشاعر مشيرا إلى هشام ابن عبد الملك بن مَرْوان :

لَعَلِّىَ إنْ مالتْ بِىَ الرِّيحُ ميلةً * على ابن أبى الذِّبّان ، أن يتندَّما) .

وقال الجاحظ فى كتاب " الحيوان " (ج ٣ ص ١١٨) : "يقال لكل أبخر : أبو ذِبّان . وكانت — فيما زعموا — كنية عبد الملك بن مروان . وأنشد قول ابن خرابة (١) :

أمسى أبو ذِبّان مخلوع الرَّسَنْ * خلع عنان قارح من الرسن .

وقد صفقت بيعتنا لابن الحسن " .

هذا ، وقد أورد الجاحظ فى كتاب الحيوان معلومات عن "لطيم الشيطان" (ج ٦ ص ٥٥) ، كما أن ياقوت ذكر فى "معجم الأدباء" أن لوط بن يحيى له كتاب فى مقتل عمرو بن سعيد بن العاص ، المعروف بالأشدق وبلطيم الشيطان . (ج ٦ ص ٢٢١) .

---

(١) هكذا بالنسخة المطبوعة ، والتحريف فيها كثير . وصحة اسم هذا الشاعر هو " أبو حُزَابة " (بالحاء المهملة ثم الزاى المعجمة) فإنه من الذين خرجوا مع ابن الأشعث على الخليفة عبد الملك بن مروان (أنظر " الأغانى " ج ١٩ ص ١٥٢ ؛ وأنظر "المشتبه" للذهبى ، طبع ليدن ، ص ١٦٠) .

وقد روى الجاحظ فى كتاب "الحيوان" (ج ٦ ص ١٠٣) أن بعض بنى مروان قال فى قتل عبد الملك عمرو بن سعيد :

كأنّ بنى مروان إذ يقتلونه * بغاث من الطير اجتمعن على صقر!

[أى إن هذا من العجب] .

صفحة ٦٧ (حاشية ٣)

أضف على البيانات التى أوردتُها عن "البان" أن أحد الشعراء المتأخرين قد وصفه بما يدلنا على هيئته وشكله ، فقال :

لله بستانٌ حللنا دَوْحَهُ * فى جَنَّةٍ قد فُتِّحَتْ أبوابُها!

والبانُ تحسبه سنانيرًا رأتْ * قاضى القضاة ، فنفَّشَتْ أذنابَها!

(بدائع الزهور لابن إياس ج ١ ص ١٢٩)

صفحة ٧٥ (حاشية ٢)

أضف على الشواهد التى أوردتُها ما قاله صاحب "لسان العرب" فى مادة ــ ر هـ ن ــ وهذا نصه : الرهينة الرهن ، والهاء للمبالغة ، كالشتيمة والشَّتْم ، ثم استُعملا بمعنى المرهون .

صفحة ٧٨ (حاشية ١)

أضف على هذه الحاشية أن الجاحظ نفسه تكفل بشرح "تَحَصُّن الفرس" ، فقال فى كتاب "الحيوان" (ج ٢ ص ٥٠) ما نصه : "فما تقول فى فرس تحصَّن تحت صاحبه ــ وهو فى وسط موكبه ــ وغبارُ الموكب قد حال بين استبانة بعضهم لبعض ، وليس فى الموكب حِجْر ولا رَمَكَة ، فيلتفت صاحب الحصان فيرى حِجْرًا أو رَمَكَةً على قاب عِرْض أو عِرْضين أو غلوة أو غلوتين؟ حدِّثنى : كيف شمَّ هذا الفرس تلك الفرس الأنثى؟" .

ففى ذلك تأييد تامٌّ لما توهمتُه بطريق التخمين عند شرحى كلمته هنالك . وكأنى كنتُ أنظر بنور الله إلى هذا الشرح حينا أوردتُ حكاية قايتباى ، سلطان مصر .

صفحة ٨١ (حاشية ٤)

روى الجاحظ أيضا مسايرة سعيد بن سَلْم للخليفة الهادى بنفس ألفاظها التى أوردها فى "التاج" وقال : إن الخليفة نَعَتَهُ بـ"الخائن" (البيان والتبيين ج ٢ ص ١٥٠).

فأنت ترى أن جميع الروايات قد تطابقت على هذا النعت ، دون غيره .

صفحة ٨٩ (حاشية ١)

أورد الجاحظ فى كتاب "الحيوان" أيضا ما قاله طُوَيْس المغنّى لبعض ولد عثمان بن عفّان (أعنى هو سعيد ابن عثمان بن عفان) ثم عقّب عليه بقوله : ولو قال شهدتُ زفاف أُمِّك الطيّبة إلى أبيك المبارك ، لم يحسُن ذلك . [وأنظر مقدّمة هذا الكلام فى الجزء الرابع ص ١٩] .

صفحة ٩٥ — ٩٧

أورد فى كتاب "المحاسن والأضداد" المنسوب إلى الجاحظ ماروه الجاحظ عن امتحان أبرويز لرجاله فى حفظ الحُرَم . والعبارتان تكادان تكونان بلفظ واحد ، غير أن التى عندنا قد أخذت حظّها من العناية فى التصحيح .

(أنظر "المحاسن والأضداد" طبع العلامة فان فلوتن بمدينة ليدن صفحة ٢٧٧ — ٢٨٠).

صفحة ٩٩ (حاشية ١)

أحَلْتُ القارئ على بعض المراطن التى يرى فيها تفاصيلَ شافيةً عن بيت النار المعروف باسم "النو بهار" . وأزيد على ذلك أن ابن فضل الله العُمَرىّ تكلّم عنه فى " مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار" (ج ١ ص ١٦٦ ، ج ٢ ص ١٥٥ و ١٥٦ من النسخة المحفوظة بدار الكتب الخديوية التى نقلتها بالفتوغرافية عن نسخة السلطان المؤيّد شيخ ، الموجودة الآن بخزانة طوب قبو بالقسطنطينية) .

صفحة ١٠٢ (سطر ٨) وصفحة ١٠٣ (سطر ٦)

للجاحظ شرح لطيف على قولهم : " المغبون لا محمود ولا مأجور" . (أنظره فى كتاب " البخلاء" ص ٢٧ و٢٠٣) .

صفحة ١٠٧ (حاشية ٣)

أوردتُ فى آخر هذه الحاشية التى اتصلتْ بصفحة ١٠٨ معلوماتٍ عن الجعد بن درهم بحسب ما وصل إليه اجتهادى بعد مراجعة كثير من الكتب ، وذكرت المصنفات التى عثرتُ فيها على شىء من هذا القبيل . ثم رأيتُ ترجمته فى " سرح العيون" لابن نباته (ص ١٥٩) فأحببتُ لفتَ النظر إلى ذلك ، وإن كان فى الحقيقة لا يحتوى على شىء يذكر أكثر مما أتيتُ عليه .

صفحة ١٠٨ (حاشية ٢)

أوردتُ فى المتن اسم "سليم بن مُجالد" اعتمادًا على رواية مصر ، وأشرت فى الحاشية إلى أن صاحب "المحاسن والمساوى" قد أورد القصة . ولكن فاتنى أن أقول إنه سماه "سليمان بن مُجالد" . وأنا أضيف الآن أن ابن أبى الحديد روى هذه القصةَ أيضا فى " شرح نهج البلاغة " وسماه مثل صاحب " المحاسن والمساوى" أى "سليمان" وقال إنه "مولى بنى زهرة وكانت له من السَّفّاح منزلة عظيمة" (وأورد تفصيلات أوفى . أنظرها فى ج ٢ ص ٢٠٧) .

وقد أورده فى النسخة الحلبية لكتاب "التاج" صحيحا : "سليمان بن مجالد" .

صفحة ١٠٩ (حاشية ١)

أضف على هذه الحاشيـة أن الجاحظ نفسه روى بعض المكاتبات التى دارتْ بين معاوية وبين قيس ابن سعد بن عبادة أمير مصر من قِبَل على بن أبى طالب (فى " البيان والتبيين " ج ١ ص ٨٢) ، وكذلك ابن أبى الحديد (فى "شرح نهج البلاغة" ج ٢ ص ٢٣ — ٢٤) .

صفحة ١٠٩ (حاشية ٣)

أضف على هذه الحاشية : "ومن خطبة أبي حمزة الخارجي : وأما بنو أمية، ففرقة ضلالة، وبطشهم بطش جبرية . يأخذون بالظِّنَّة، و يقضون بالهوى، و يقتلون على الغضب، ويحكمون بالشفاعة، و يأخذون الفريضة من غير موضعها و يضعونها فى غير أهلها ." (عن "البيان والتبيين" ج ١ ص ١٩٥) .

وقال أيضا : آثر الإمامة على ملك الجبرية . (من كتاب فضائل الترك، ص ٤١)

صفحة ١١٠ (حاشية ٣)

أضف على الخلاصة التى أوردتُها عن صباح بن خاقان رأى الجاحظ فيه أنه "كان ذا علم و بيان، ومعرفة وشدّة عارضة، وكثرة رواية مع سخاء واحتمال وصبر على الحق ونصرة للصديق وقيام بحق الجار" . ("البيان والتبيين" ج ١ ص ٣٦) .

صفحة ١١٦ (حاشية ١)

أضف على المعلومات التى أوردتُها عن "ابن دأب" ما رواه الجاحظ فى "البيان والتبيين" (ج ١ ص ١٢٤، ١٢٥) .

صفحة ١١٨ — ١٢٠

أضف إلى الحواشى التى كتبتُها عن علامات الانصراف ما أورده الجاحظ فى "البيان والتبيين" (ج ٢ ص ٦٠) .

صفحة ١١٩ (حاشية ٤)

أضف إلى شرحى لكلمة "مخصرة" قول ابن سِيدَهْ : "المِخْصرة مايُشير به الملك إذا خطب" (عن المخصص ج ١١ ص ١٨) . وأما الجاحظ نفســه فقد وفّى هذا الموضوع حقه فى "كتاب العصا" الذى أدمجه فى كتاب "البيان والتبيين" وقال فيه (ج ١ ص ١٣٩) مانصه : "كانت المخاصر لاتفارق أيدى الملوك فى مجالسها ، ولذلك قال الشاعر :

فى كفّه خَيزُران ريحها عَبِقٌ * بكفّ أَرْوَعَ[1] فى عِرْنِينه شَمَمُ".

وانظر بقية الأبيات هناك . وقد أورد الجاحظ هذا البيت فى "الحيوان" (ج ٣ ص ١٥٢) وعلق عليه بقوله : لأن الملك لا يختصر إلّا بعودٍ لَدْنٍ ناعِمٍ .

وانظر أيضا كتاب "العصا" لأُسامة بن منقذ ، وقد طبعه العلامة هرتويغ درنبرغ Hartwig Derenbourg فى ضمن كتابه على أسامة بن مُنْقِــذ Ousâma Ibn Mounkidh, *un émir syrien aux premiers siècles des croisades.*

صفحة ١٢١ (حاشية ٢)

ذكرتُ فى هذه الحاشية شاعر قريش "عروة بن أُذينة" . ومما يجب التنبيه إليه أن هناك رجلا آخر اسمه "عروة بن أُدَيَّة" . وقد غلط صاحب القاموس فوصفه بأنه "شاعر" . وترتب على ذلك أن الشارح وقع فى التخليط مع أن شيخه عرف الصواب فنص على (أن الصحيح أنه "ابن أذينة" تصغير أذن) . ولكن الشارح ردّ على ذلك بأن الصاغانىّ نسب هذا القول إلى العامة . (أُنظر "تاج العروس" ج ١٠ ص ٣) .

والتحقيق أن "عروة بن أُدَيَّة" منسوب إلى جدته "أُدَيَّة" . وأما أبوه فهو حُدَيْر أحد بنى ربيعة بن حنظلة . وقد قتله زياد بن أبيه فى أيام معاوية (أُنظر "الكامل" للبرد طبعة ليبسك ص ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣) .

أما "عروة بن أذينة الشاعر" ، شاعر قريش ، فقد عاش إلى أيام الخليفة هشام بن عبدالملك بن مروان . ونسبه وأخباره وأشعاره كثيرة جدا تراها فى "الأغانى" خصوصا فى الجزء ٢١ ص ١٦٢ — ١٧١ (وانظر فهرسه أيضا) .

---

(١) الأَرْوَع : الذى يروعك ويعجبك حسنه أو شجاعته .

صفحة ١٢٣ (حاشية ١)

أضف على ما أوردته عن استعمال "السُّكَّينة" أن صاحب بدائع البدائه (ص ٢٢٧) قد أنشد لابن قلاقس الإسكندري مرتجلا :

أتانا الفقيـــه بيطِّيخـــةٍ * وسِكِّينةٍ قد أُجيدتْ صقالا ،

فقطَّع بالبرق بدرَ الدُّجىٰ * وناول كلَّ هلالٍ هلالاً .

صفحة ١٢٤ (س ١ من المتن ، ثم ح ١)

اتفقت النسخ على التعبير بلفظ "الحوىّ" عن المكان الذى قد ينام فيه الملك . وكنتُ آثرتُ استعمال "الحاوى" لأنه من اصطلاحات الفلاسفة . والآن أرىٰ أن الرجوع إلى اللفظ الأول أفضلُ ، لانه وارد فى جميع النسخ الثلاث ، ولأن اللغة لا تمنع من ذلك .

صفحة ١٢٩ (س ٢)

شرح الجاحظ الملال وشهوة الاستبدال فى كتاب "البيان والتبيين" . (ج ٢ ص ١٥٨) .

صفحة ١٣١ (حاشية ٥)

ترىٰ تعريفا لطيفا عن ابن أبى عتيق فى الجزء الثانى من كتاب "الحيوان" (ص ٢٨) .

صفحة ١٤٣ (سطر ٦ وما يليه)

قارن ما كتبه الجاحظ فى "التاج" عن رأى الناس فى المشهور المتداول بما أورد فى كتاب "الحيوان" (ج ٢ ص ٣٦) مما يدخل تحت هذه البابة ويندرج فى ذلك المعنىٰ .

صفحة ١٥٥ (حاشية ١ و ٢)

أضف على هاتين الحاشيتين أن الجاحظ يقول إن الموسوس غلفاء بن الحارث "كان يتغلّف" و يغلف أصحابه بالغالية ، فسُمّى "غلفاء" بذلك "البيان والتبيين" (ج ٢ ص ١٦١).

قال فى الصحاح " وتَغَلَّف الرجُل بالغاليـة وغَلَّفَ بهـا لحيته غَلْفا ، ومعديكرب بن الحـرث بن عمرو أخو شُرَحْبيل بن الحـارث يُلَقَّبُ بالغلفاء لأنه أوّل مَن غَلَّفَ بالمسـك ، زعموا " . ونحوه فى "اللسان" (ج ١١ مادة غ ل ف) .

صفحة ١٦١ (حاشية ١) .

يضاف على السطر الثالث منها أن ابن أبى الحديد روى محاكمة علىّ بن أبى طالب مع خصمه أمام عمر بن الخطاب "شرح نهج البلاغة" (ج ٤ ص ١٣٣) .

هذا ، وقد صنف أبو هلال الحسن بن عبدالله العسكرى كتابا خاصا فى هذا الموضوع سمّاه "كتاب من احتكم من الخلفاء إلى القضـاة " . [ذكره ياقوت الحموىّ فى ص ١٣٧ من القسم الأوّل من الجزء الثالث من "معجم الأدباء"] .

وقد سهوتُ عن ذكر شىء مما وقع من هذا القبيل بالأندلس ، مع علم الخاص والعام بغرامى بهذا القطر ومن كانوا فيه . فرأيت أن أتلافى الآن ذلك الإهمال بالإحالة على ما حصل من قاضى قضاة قرطبة محمد بن بشير (المصرى الأصـل) مع الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ومع عمه ووزيره (وانظر التفصيـل الوافى فى نفح الطيب ، ج ١ ص ٣٩٥ طبعـة بولاق ، ج ١ ص ٥٥٥ طبعة ليدن ؛ وفى كتاب بغيـة الملتمس للضبى طبع مدريد ، ص ٥١ ؛ وفى كتاب التكملة لكتاب الصـلة لابن الأبّار ، طبع مدريد ، ص ٩٠ ؛ وفى كتاب المدارك للقاضى عيـاض ، الذى أشار اليه صاحب نفح الطيب) . ومثل ذلك ما وقع أيضا لمنذر بن سعيد البلوطى مع الخليفة الاكبر عبد الرحمن الناصر (وأخبـار هذا القاضى مشهورة تجد المعجب والمطرب منها فى الكتب المذكورة ـــ بمراجعة فهارسها) وانظر على الخصوص نفح الطيب طبع أوروبا (ج ١ ص ٤٧٠) وما يليهـا .

صفحة ١٦٦ (سطر ٣ — ٧)

أنظر ما رواه الجاحظ في كتاب " الحيوان " عن مهارة بهرام وفروسيته في صيد الحمار الوحشي . (ج ١ ص ٩٤).

صفحة ١٦٦ (حاشية ٢)

أضف على المعلومات التي أوردتُها عن "الطبر" و"الطبرزين" :

١ً — أن ابن جرير الطبريّ الشهير ذهب إلى أبي حاتم السجستانيّ ليأخذ عنه حديثا في القياس . فأعاده أبو حاتم ، ثم سأله عن بلده ، فقال : طبرستان . ولما سأله عن سبب هذه التسمية ، قال : لا أدرى . فقال أبو حاتم : إن المسلمين بعد أن فتحوا هذا الإقليم شرعوا في بناء المدينة ، "وكانت أرضا ذات شجر ، فالتمسوا ما يقطعون به الشجر ، فجاءوهم بهذا الطبر الذي يقطع به الشجر ، فسُمّى الموضع به" . (أنظر "معجم الأدباء" لياقوت ج ٦ ص ٤٢٨) . وقد ذكر الجاحظ "الطبرزين" و"الطبرزينات" في كتاب "البيان والتبيين" (ج ٢ ص ٧٦) وفي كتاب "الحيوان" (ج ٧ ص ٥٣) .

٢ً — أن أهل مصر توسعوا في القرن الثامن للهجرة فأطلقوا لفظة "طَبَر" على السلاح جملة . يدل على ذلك قول تاج الدين أبي نصر عبدالوهاب السبكي في كتاب " معيد النعم ومبيد النقم" (ص ٥٠ من طبعة لوندرة سنة ١٩٠٨) : الطبردار وهو الذي يحمل السلاح بين يدى السلطان لأجل حفظ نفسه .

صفحة ١٧٣ (حاشية ٢)

يظهر من كلام الجاحظ نفسه أن الخباز عندهم كان هو الطاهي والطباخ ، وأنه هو الذي كان يقدّم الطعام لمخدوميه .

قارن ما ذكره في صفحة ١٧٣ من كتاب "التاج" بما ذكره قبل ذلك في صفحة ٢٠ ، وأعتبر كلامه في " الحيوان" (ج ٤ ص ٢٦) حيث قال : إن " العرب تقول للرجل الصانع ... ... خبّازًا ، إذا كان يطبخ ويعجن" . وقد قال في الجزء الخامس منه (ص ١٣٦) : "ولذلك صار الخبّازون الحُذّاق قد تركوا

الضأن ، لأن المعز يبقىٰ شحمه ولحمه فيصلُحُ أنْ يُسَمَّن مرّاتٍ ، فيكون أرْبَحَ لأصحاب العُرس" . وانظر في الجزء السادس منه (ص ١٦٦ — ١٦٧) قصة الطباخ السندىّ الذى اشتراه ثمامة [بن أشرس] ثم قال عنه الجاحظ : "إنه أحسن الناس خبزا وأطبخهم قِدرًا" .

وورد فى كتاب "البخلاء" للجاحظ :

١ — إنك لتغالى بالخباز والطباخ والشوّاء والخبّاص [أى الذى يصنع الخبيصة] (ص ٧٠) .

٢ — قرّبَ خبازُ أسد بن عبدالله — وهو علىٰ خُراسان — شواء قد نضجه نضجا ، وكان يعجبه ما رطب من الشواء ، فقـال لخبازه : أتظن أن صنيعك يخفى على ؟ (ص ١٦٠) .

٣ — جاء الخبازون فرفعوا الطعام (ص ١٦٤) .

فكل هذه النصوص تؤيد ماقلناه من أن الخباز عندهم كان هو القائم بخدمة الآكلين ، وأنه كان فوق ذلك قد يصنع بعض ألوان الطعام .

صفحة ١٧٣ (حاشية ٣)

ذكر الجاحظ البزماورد فى كتاب "الحيوان" فقال : والدَّجاج أكثر اللحوم تصرُّفا ، لأنها تطيب شواءً ، ثم حارًّا وباردًا ، ثم تطيب فى البزماورد (ج ١ ص ٩١) . ثم قال فى موضعٍ آخَر : إن "أهل خراسان يُعْجَبُون باتِّخاذ البزماورد من فراخ الزنابير ، ويعافون أدناب الجراد الأعرابىّ السَّمين ." (ج ٤ ص ١٥) . ثم أورد فى الجزء السادس منه (ص ٢٨) أن الفضـل بن يحيىٰ استظرف بزماورد الزنابير حينما كان واليا علىٰ خراسان . فلما عاد إلىٰ بغداد كان يشتهيها ، فتطلب له من كل مكان . وحكىٰ حكايةَ رجُل بدوىّ تناول الطعام علىٰ مائدة الأمير ، وقد عيَّره الندماء بأكل الجراد الأعرابىّ . ثم مالبث الرجل أن رأىٰ القوم أحضروا علىٰ المـائدة صحفة ملأ ىة من فراخ الزنابير ليتخذوا منها بزماوردا للأمير . فخرج البدوىّ وهجاهم بأبيات ، تراها هنـاك .

صفحة ١٧٦ (حاشية ٣)

أنظر أيضا التفصيل الذى أورده الجاحظ عن قتل المنصور لأبى مسلم الخراسانىّ فى "البيان والتبين" (ج ٢ ص ٥٥) .

صفحة ١٨٤ (سطر ١٥)

مانى الثنوىّ هو القائل بالنور والظلام . والطالب يرى ترجمته فى "سرح العيون" (ص ١٥٥) . والقائلون بمذهبه يسمون "مانية" و"مانوية" . وآسمه عند الفرنسيين Manichée, Manès وآسم أصحابه Manichéens . وكان مولده باليمن حينما كانت تابعة للفرس .

تصحيحاتٌ

لأغلاط مطبعية طفيفة وردتْ فى المتن وبعض الحواشى، رأيتُ وجوب آستدراكها ليكون الكتاب آية فى الكمال بقدر الإمكان .

صفحة	سطر	خطـــأ	صـــواب
١١	١٤	أبو الحسن بن بكر	أبو الحسن بن أبى بكر
٢٠	٨	ويتّبع ، ويقصر ويجتهد	ونتّبعُ ، ونُقصّرُ ونجتهد
٢٤	١٠	بمخاطبة	علىٰ مخاطبة
٣٣	١٤	بهرام جُوِرِ	بَهرامَ جُورَ
٤٠	١١	وجاوزوا	وجاوُزوا
٤٧	٨	حتى	حين
٤٧	١٩	ص ٢٠ من طبعتنا	ص ٢٥ من طبعتنا
٤٨	٢١	قضاء مديرية الشرقية بمصر	قضاء الشرقية ببغداد
٧٠	١٤	حِالات...	حَالات
٧٨	١٤	تَنب ... تكون	ينب ... يكون
٧٨	١٥	قدّامها	قدّامه
٩٨	١١	خلوا ، تذاكروا	خَلَوا ، تَذَاكَرَا
٩٩	١٥	الأطلاع	الأُطّلاع
١٠٢	٩	للسَّفَلة	للسُّفْلة
١١١	١	الرويدية	الزيدية (١)
١١٦	١٢	يقرؤن	يقرؤون
١٢١	٩	بمحارج	بمخارج
١٢٥ ، ١٢٦	١٢ ، ١ ، ٣	أراد مرد	آزادمرد (٢)
١٣١	٣	عزَل	هَزَل (٣)

(١) هذا التصحيح عن النسخة الحلبية . ولعله قريب من الصواب . ويكون الواجب تصحيح رواية س ، ص بمقتضاه ، أى نحمل بدل " الرويدية " لفظة " الزويدية " بطريق التصغير والتحقير لكلمة " الزيدية " (كما فعل فى صفحة ١٣٥ س ٣) .

(٢) هذا التصحيح عن الحلبية أيضا . والفُرس يسمون بهذا الأسم ، ومعناه " الرجُلُ الحرُّ "

(٣) هذا التصحيح عن الحلبية أيضا . وهو وجيه جدّا ومتحتّمٌ يقضى به السياق .

استدراك (١)

للهمّ من الاختلافات فى رواية النسخة الحلبية ، وخصوصا للزيادات التى انفردت بها دون نسختى س ، ص .

(الكلمات الزائدة فى الحلبية أدمجناها فى الرواية بحرف كبير ، تمييزا لها وتنبيها على موقعها)

ص ٢ س ٩ "هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات" [والآية التى فى آخر سورة "الأنعام" (آية ١٦٥ سورة ٦ من مصحف الحافظ عثمان) ليس فيها لفظ "فى" والذى أوجب الخلط على ناسخ الحلبية قوله تعالى فى سورة "فاطر" : "هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض فمن كفر فعليه كفره" . (آية ٣٩ سورة ٣٥) وهى غير الآية التى يريدها الجاحظ ، وليس فيها محل الشاهد الذى توخاه] .

ص ٤ س ٤ "أى لِبّاه" بدلا من "قال كنّاه" . [وما اعتمدناه هو الصواب كما تراه فى تفسير الرازى وغيره] .

ص ٥ جميع الوارد فى هذه الصفحة ناقص فى س وهو موجود فى الحلبية مثل ما هو فى ص ، مع بعض اختلاف وقع من الناسخ الحلبى .

ص ٧ س ١ اقتصر صاحب الحلبية على ترجمة الباب بقوله "فى الدخول على الملوك" ثم ابتدأ الكلام بقوله : "قال رحمه الله : مما يجب للملك إن كان الرجل من الأشراف والطبقة العالية أن يقف" . [وعندى أن ذلك الترتيب أفضل من روايتنا ولذلك اعتمدته فى تلك المضامين] .

ص ١٣ س ١ "عبد الرحيم" [مثل س] بدلا من "عبد الرحمن" [الذى اعتمدناه عن ص] .

ص ١٣ س ١ "الملك" بدلا من "إسحاق" . [فكأن ناسخ الحلبية اتفق مع ناسخ س إلا فى وضعه لفظة "الملك" فى موضع البياض الذى تركه صاحب س ، وانظر حاشية ٣ من ص ١٣] .

(١) انظر صفحة ٦٢ من التصدير .

ص ١٧ س ٤ "يعنى" بدلا من "يقتدى". [وربما كانت رواية الحلبية أحسن].

ص ١٧ س ١٠ "كان" بدلا من "الحاقّ" . [ولا بأس برواية الحلبية أيضا] .

ص ٢١ س ٤ "وإذوات" بدلا من "وأدوات" . [وكلا الروايتين لا معنىٰ له وأنظر حاشية ١] .

ص ٢٢ س ٦ فى الحلبية : "وإن كان الملك يشرب الخمرة والعياذ بالله ليس للرجل الواقف فى خدمته أن يختار" بدلا من "وليس له أن يختار" ... ... [وفى رواية الحلبية تمطيط لا يتفق مع المعهود من أسلوب الجاحظ] .

ص ٢٣ س ٣ "حذ يليها" بدلا من "جذيليها". [وروايتنا هى الصواب وأنظر الحاشية رقم ٢] .

ص ٢٤ س ١١ "عن أصلها وفصلها" بدلا من "عن فضيلتها" . [وروايتنا توافق المعهود من أسلوب الجاحظ].

ص ٢٥ س ١ "وحصر كل طبقة منها قسمها" بدلا من "وخص كل طبقة علىٰ قسمها". [فقد وافق حزرنا ما فى الحلبية عند ما صححنا "خص" بكلمة "حصر" التى عينها لنا السياق . وأنظر حاشية ١ فى تلك الصفحة].

ص ٢٨ س ١٠ "خرتوماش" بدلا من "خرم باش". (ورواية الحلبية مغلوطة ، وأنظر الحاشية رقم ٢).

ص ٢٨ س ١٢ » » » (» » » » » »).

ص ٢٩ س ٨ "تنقل" بدلا من "شغل". [ورواية الحلبية تتفق مع رواية سـ].

ص ٣٠ س ١٥ "بقوانين" بدلا من "بآيين". [فرواية الحلبية تتفق مع رواية سـ].

ص ٣١ س ٢ فى الحلبية : "إبراهيم الموصلىّ" ... ... [وأنظر الحاشية التى وضعتها فى أسفل تلك الصفحة] .

ص ٣٤ س ٧ "واحدا من مغنيه وبطانته فى عشر سنين" ... ...

ص ٣٥ س ٧ "قليل العطاء سيئ النظر" بدلا من "قليل الإغضاء سيئ الظن" . [وعندى أن روايتنا أفضل].

ص ٣٥ س ٩ "لا تعطنى" بدلا من "لا يعطينى" . [وعندى أن روايتنا أفضل].

ص ٤٥ س ٧ "و[لا] سيما" فقد توافقنا مع الحلبية فى إضافة أداة النفى. ولكن الحلبية عادت فأهملت أداة النفى فى موضع آخر. فأوردت "سيما" فى الموضع الذى أشرنا إليه فى صفحة ١٥٧ من طبعتنا. وهذا الموضع قد اتفقت فيه النسخ الثلاث على إهمال أداة النفى [وانظر الحاشية رقم ٣ ص ٤٥ والحاشية، ثم س ٤ ص ١٥٧].

ص ٤٦ س ٨ لا يمسوا طيبا يتطيب به الملك دونهم ... ... [وهذه الزيادة فى الحلبية جميلة لتخصيصها نوع الطيب الذى يستعمله الملك].

ص ٤٧ س ٢ "مثله وإلا لم يكن بين الملوك والسوقة فرق".

ص ٤٨ س ١ و٢ "وإبراهيم بن المهدى وقد دخل عليه ابن أبى دؤاد" بدلا من "وهذا إبراهيم بن المهدى بالأمس دخل على ابن أبى دؤاد". [فاتفق س و ص على أن الداخل هو إبراهيم ابن المهدى بخلاف ماجاء فى الحلبية. وعندى أن روايتهما هى أقرب إلى الصواب لأن إبراهيم من بيت الخلافة، بل إنه أتى عليه حين من الدهر تبوأ فيه مقعدها وقام بأمرها. ولا شك أنه تخوف دسيسة من ابن أبى دؤاد حينما انتقد عليه لبسة هى خاصة بالخليفة].

ص ٤٩ س ٩ "فى الشرب إذا كان الملك يسكر وأن" ... ...

ص ٤٩ س ١١ "تجاوز حدّ العدل على الخاصة" بدلا من "تجاوز حق العدل على الخاصة" ... ... [ورواية الحلبية أحسن وأمتن].

ص ٥٠ س ١٠ "هذه الخصال منه" بدلا من "هاتان منه" ... ... [وعندى أن رواية الحلبية أكثر حسنا وأتم بيانا].

ص ٥٠ س ١٣ "ولايته اللهم إلا أن" ... ... [وعندى أن هذه الزيادة فى الحلبية فى غاية الجمال].

ص ٥١ س ٩ "ومن أخلاق الملك السعيد الكامل العقل والأدب أن لا يعاقب" ... ...

ص ٥١ س ١١ "الأمة" بدلا من "الملة". [وعندى أن كلمة "الأمة" مصحفة عن "الأئمة" الواردة فى س. وقد استحسنت "الملة" الواردة فى ص من أجل المجانسة مع الشريعة الواردة فى جميع النسخ].

ص ٥٢ س ١ "غيره" بدلا من "السوقة" ...... "العالم" بدلا من "الحاكم". [وهاتان الروايتان أحسن مما اعتمدناه من سـ و صـ].

ص ٥٣ س١٢و١٣ "والحديث عنها أقوم منهم إلى فوائد" بدلا من "والحديث عنهم أقرم وأشهى منها إلى فوائد". [ولا شك أن رواية الحلبية محرّفة وصوابها "أقرم وأنهم إلى فوائد". وأنظر الحاشية رقم ٢].

ص ٥٨ س ٣ "فارتاع من حضر" بدلا من "فارتاع ومن حضره".

ص ٦١ س ٩ "يبق" بدلا من "يتق".

ص ٦٤ س ١٠ "الجواميس" بدلا من "الجواسيس". [ومثل هذه السخافات كثير في الحلبية].

ص ٧٢ س ١٠ "(باب في الخلال التي تساوي الندماء فيها الملوك : قال صاحب الكتاب رحمه الله تعالى : ينبغي أن يكون لندماء الملك وبطانته". [وهو تقسيم وجيه لطيف، ويجب اعتماده في طبعتنا].

ص ٨١ س ٧ "عبد الله بن حسين" بدلا من "عبد الله بن حسن".

ص ٨٧ س ٢ "باسم غير اسمه أو اسم أبيه" بدلا من "باسم أبيه". [ورواية الحلبية أكمل].

ص ٩٥ س ٢ "أن لا" بدلا من "أن [لا]". [فكانت زيادتنا لحرف النفي موافقة لما في الحلبية].

ص ٩٥ س ١٥ "التباله" بدلا من "التأله". [وهذا التصحيف فيه تَبَالُهٌ من الناسخ].

ص ٩٦ س ٣ "فأمتحن بعض الملوك".. ... [وهذه الزيادة سخيفة، وهي توجد في سـ أيضا. والرواية المتعينة هي الواردة في صـ، وهي التي اعتمدناها في الطبع].

ص ٩٦ س ١٧ "إلى نسائه اللواتي" بدلا من "إلى بستانه الذي".

ص ٩٨ س ٢ "التباله" بدلا من "التأله"..... [وهو تَبَالُهٌ ثانٍ من ناسخ الحلبية].

ص ٩٩ س ٩ "بينه لعلة صلح بخلافها ومن فسدت نيته لتيرعلة" ..... [ورواية الحلبية وجيهة جدا وواجبة. فينبغي اعتمادها في طبعتنا].

ص ١٠١ س ١٣ "دراهم" بدلا من "دنانير".

ص ١٠٣ س ١ "أكثروا التفاؤل" بدلا من "السرور التفاؤل". [وروايتنا هي الصحيحة].

ص ١٠٤ س ٢ ولا كرامة لك ....

ص ١٠٦ س ٥ ثم قال: نعم هذا ....

ص ١٠٦ س ٥ "وجاءوا بالرأس فوضع بين يديه، فقال لمن حضره: فيكم من يعرف هذا الرأس؟ فقام ......" [وهذه الزيادة يقتضيها السياق، فلتعتمد في طبعتنا].

ص ١٠٧ س ١ رحمه الله: وعاد إلى مجلسه فقعد فوثب ...... [« « « «].

ص ١٠٨ س ٧ "فقال: أما والله" ....

ص ١٢٠ س ١٠ "والحظوة والسلطان" بدلا من "والحظوة عند السلطان". [ولعل رواية الحلبية أفضل، ويكون السلطان فيها بمعنى السلطة، وأما في رواية س، ص، فمعناه الملك الأعظم].

ص ١٢٢ س ١٥ "فيتواطآن على كذب" بدلا من "فيتواطآ".

ص ١٢٤ س ٧ "ليس منها فراش إلا ومن ورائه من بعيد على الأنفراد لا يُشَكُّ أنه" بدلا من "ليس منها فراش إلا ومن رآه من بعيد على الأنفراد لا يشك أنه" ... ...

ص ١٣٠ س ٧ "أما ترى" بدلا من "ألا ترى". [ورواية الحلبية حسنة جدا].

ص ١٣٤ س ٦ "هلال الهمذاني" بدلا من "مهاهل الهمذاني". [وروايتنا هي الصواب].

ص ١٣٤ س ١٠ "وقد" بدلا من "و[قد]". [فتصحيحنا جاء موافقا لما في الحلبية].

ص ١٣٥ س ٣ "كردي" بدلا من "كريجي". [ورواية الحلبيـة أقرب للصواب وإنما ينقصها التصغير للتحقير].

ص ١٣٥ س ١١ "ولعله لا يجد" ...... [وزيادة أداة النفي هنا وجيهة ومتحتمة].

ص ١٣٦ س ١٠ "كل من قرب من نفس الملك" بدلا من "كل من أنفس الملك". [ورواية الحلبية جيدة والأصح اعتمادها، ويكون المعنى: كل من جعله الملك نفيسا عنده].

ص ١٤١ س ٥ "عيسى بن برمك" بدلا من "عيسى بن نهيك". [ورواية الحلبية مغلوطة فى هذا المقام ولكنها صحيحة فى بقية الكلام لأنها عادت فسمته عيسى بن نهيك].

ص ١٤٣ س ٩ "الشيء هو فيه لم ندر" بدلا من "لشيء آخر لا ندرى" ... ...

ص ١٤٤ س ١٤ "مشاهدة أو مشافهة" بدلا من "مشاهرة أو مساناة" . [وسخافة الحلبية ظاهرة].

ص ١٤٥ س ١٠ "حوادث الدهر والموت" بدلا من "حوادث المؤن".

ص ١٤٧ س ٤ "موانيذ" بدلا من "موابيذ".

ص ١٤٨ س ١٥ "يُجدِّده ... ... يجدّدها" بدلا من "يخذه ... ... يأدبها".

ص ١٥٠ س ١٤ "وجود النَّهِم المشاق" بدلا من " " وجود القرم النهم المشتاق".

ص ١٥٠ س ١٥ "لذة الطعام وطيبته" بدلا من "لذة الطعام وأطيبه". [ورواية الحلبية أطيب].

ص ١٥١ س ١٢ "جمعة يوما وليلة" بدلا من "يوم وليلة مرة" . [ورواية الحلبية أحسن].

ص ١٥٣ س ٦ "الجمعة وربما لم يشرب فى بعض البواقى من أيام الجمعة . فأما هذان اليومان فلم يكن ليشرب فيهما بتة" ... ... [ورواية الحلبية أجود وأكمل].

ص ١٥٣ س ١٣ "فإذا ذهب رونقه و بعض مائه رمى" ... ... [ولعل الصواب "وبعض مائه" كما فى نسخة ص . والماء هنا بمعنى الرونق والبهاء كما يقال فى الجواهر الكريمة والأحجار النفيسة . وحينئذ فلا يكون هنالك وجه لما أوردناه فى حاشية تلك الصفحة من الظن باحتمال أن "مائه" محرفة عن "بهائه"].

ص ١٥٤ س ١١ نادرا معجزا معجبا غريبا ... ... [ولا معنى لوضع "معجزا" فى هذا المقام بل هى زيادة من الناسخ تدل على عجزه].

ص ١٥٥ س ٢ "اختلاف الملوك" بدلا من "أخلاق الملوك".

ص ١٥٥ س ٣ "فمن الملوك من كان إذا" ... ... [وزيادة "كان" واجبة].

ص ١٥٩ س ٤ "من أبناء الملوك وأهل الشرف" ... ...

ص ١٥٩ س ٧ "من ملوكهم قبله وبعده" ... ...

ص ١٦٢ س ١ في الملكة بالباطل ... ...

ص ١٦٣ س ٧ "النحس الكبير" بدلا من "النحس البارنكر". [ورواية الحلبية ربما لا تزيل الإبهام].

ص ١٦٥ س ٣ "لتقوى متنك" بدلا من "لتقوى نيتك".

ص ١٦٦ س ٣ "فأخذ التاج" بدلا من "فأخذوا التاج".

ص ١٧١ س ٢ "وحدثني أبو الترب الشاعر: كان يُجرِي عليّ أرزاقا فدخلت عليه"
"يوما. فقال، بعد أن أنشدته وسألني عن عيالي: تحتاج عيالك في كل"
"شهر من الدقيق إلى كذا ومن الحطب إلى كذا ومن كذا إلى كذا".
"فأخبرني بشيء من أمر منزلي جهلت بعضه وعلمت كله".

[وقد وضعت هذه الزيادة في طبعتي نقلا عن "المحاسن والمساوي" للبيهقي. وليس بين رواية الحلبية وبين رواية البيهقي خلاف كبير إلا في اسم الشاعر ولست أدري صحته أهو أبو البرق أم أبو الترب؟ وأما العبارة التي أوردتها في طبعتي فهي أصح وأوجه].

ص ١٧١ س ١٢ "وفيما ذكرناه كفاية والله أعلم بالصواب". [وهنا وقفت الحلبية مبتورة].

التعريف بكتاب
"تنبيه الملوك والمكايد"
المنسوب للجاحظ

ذكرتُ هذا الكتاب فى "التصدير" وأكثرتُ من الإشارة إليه فى الحواشى التى حلّيت بها "التاج" .

فلا بدّ أن يكون القارئ قد تشوّف إلى الإلمام بشىء عنه . فلذلك رأيت أن التعريف به قد تكون فيه فائدة .

عثرتُ على النسخة الأصلية — وهى الوحيدة فيما أعلم — بخزانة الكوبريلى بالقسطنطينية تحت رقم ١٠١٥ (١) .

وقد وضع بعضهم فوق حرف الباء من لفظة "كتاب" عبارة بخط حادث هذا نصّها . "تأليف أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ". ثم جاء رجل آخر فأيد هذه الرواية إذ كتب تحت العنوان سطرا ثالثا بخط جديد أيضا يغاير خط النسخة من أولها إلى آخرها ، وهى "للجاحظ رحمة الله عليه" .

ظننتُ أنى ظَفِرْتُ بدُرّة يتيمة من تلك الدُّرر التى تفرّد بها الجاحظ . فأنشأتُ أتصفّح الكتاب ، ولكننى ماقرأتُ منه سطرين حتّى نقضتُ الحكم ورجعتُ عن الضّلال الذى أوقعنى فيه ذانك الجاهلان المجهولان .

(١) نقلت بالتصوير الشمسىّ نسخة من هذا الكتاب ، هى الآن محفوظة بدار الكتب الخديوية بالقاهرة .

بل هذه مقدّمة الكتاب بنصّها وفصّها :

" بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله الذى افتتح بالحمد كتابا ، وفتح للعبد إذا وافى إليه بابا ، قسم بين خليقته فطوّروا أطوارًا وتحزّبوا أحزابا . أنفذ فيهم سَهمَه ، وأمضى فيهم حُكمه ، وجعل لكلّ شىء أسبابا . فهم دائرون فى دائرة إرادته لا يستطيعون عنها انقلابا . داهشون فى بدائع حكمته ، ومشيئته وإرادته ، يُعزّ مَن يشاء ، ويُذل من يشاء ، ويرزق من يشاء ، ولم يزل كريما وهّابا . نحمده على ما أولى وأنعم ، ونصلّى على نبيه المبعوث إلى العرب والعجم ، صلى الله عليه وعلى آله وشرّف وكرّم ! (أما بعد) فهذا كتابٌ يشتمل على ذكر تنبيه الملوك والمكايد ، ليَحصُلَ عند مطالعته الاحترازُ من كل صَديق ورفيق وما تحتَ ثيابه من البُغض والتحاسُد . فنعوذ بالله من ذلك ، ونستعينُ بالله ، ونتوكل على الله ، ومَن يتوكَّلْ على اللهِ فهُوَ حَسْبُه إنَّ اللهَ بالغُ أمرِه ، قد جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شىءٍ قدرًا " .

فهذه المقدّمة وحدها تنادى بلسان الحال أن الجاحظ لا يمكن أن يكون هو المؤلف لهذا الكتاب .

تعالى الجاحظ أن يجرىَ قلمُه بمثل هذا السجع المرصّع أو بمثل هذه العبارات المنمّقة ! فهو أعلى كَعْبا وأرسخ قدما من أن يتنازل لافتتاح أحد كتبه بمثل هذا الكلام . هذا الحكم يؤيده الكتاب نفسه . ففى تضاعيفه أحوال كثيرة عن خلفاء وملوك ورجالات لم يخلقهم الله إلا بعد وفاة الجاحظ بسنين وأعوام . مات الجاحظ فى سنة ٢٥٥ للهجرة ، فكيف يصح فى الأذهان أنه يسرد فى صفحة ٣٠٥ بعض الحوادث التى وقعت فى سنة ٢٦٨ ؟ ثم كيف يعود فى صفحة ٤٣٠ فيفصل الوقائع التى حصلت فى سنة ٣٥٨ ؟ ويا بُعْدَ ما بين ابن طولون وكافور الأخشيدى والمتنبى وبين الجاحظ ! ومع ذلك فقد تضمن الكتاب لُمَعًا من أخبار هؤلاء الرجالات ! ! !

حينئذ لم يبق لدينا أدنىٰ شبهة فى أنّ المؤلف كان متأخرا عن الجاحظ بزمان مديد .

وكيف لا وقد أفاض فى شرح المكايد والحوادث التى وقعت بعد وفاة الجاحظ ، شرحا يدل علىٰ أنّ المؤلف كان محيطا بأحوال عصره ، واقفا علىٰ ماجَرَيات دهره ؟

نعم إن المؤلف سطا علىٰ كثير من الحوادث التى رواها الجاحظ فى كتاب "التاج" فأوردها فى النصف الأوّل من كتابه ، وقد وضعنا جدولا للسرقات (1) تراه فى غير هـذا المكان .

ولكن هذا السطو الجزئىّ هل يكون مبررا للسطو الكلىّ ، فيجعل لبعض المتأخرين المتأخرين مساغا فى نسبة الكتاب برمته إلىٰ الجاحظ ؟ كلا لعمرى !

هذا . والكتاب فى حدّ نفسه وفى بابه مفيد ، وجامع للغرض الذى توخاه المؤلف ، وجدير بأن يظهر فى عالَم المطبوعات العربية . وهو يقع فى ٤٣٨ صفحة فى كل صفحة ١٥ سطرا . ولكنه يحتاج لعناية فى التصحيح والتهذيب .

أما موضوعات هذا المؤلَّف فتنحصر فى أربعة أقسام :

(١) مكايد الفُرْس وملوكهم (من صفحة ٣ — ٤٩) .

(٢) « الهنـد (« ٤٩ — ٥٤) .

(٣) « الروم (« ٥٥ — ٦٣) .

وما بقى من الكتاب ، قَصَرَهُ علىٰ أخبار العرب فى مكايدها سواء كان فى أيام الجاهلية أم فى صـدر الإسلام أم بعده . واسهب الكلام فى المكايد التى وقعت من خلفاء

(١) أنظر جدول السرقات فى صفحة ٦٩ من التصدير الذى ضمناه فى أوّل هذا الكتاب .

الإسلام أو من رجالاتهم فى أيام الخلفاء الراشدين وبنى أميّـة والعبّاسيين، ثم فى زمن أحمد بن طولون وكافور الأخشيدى . وقد ختم كتابه بقوله فى صفحة ٤٣٠ :

" فهذا ما قُصِد إيداعه فى هذا الكتاب! وليعلم أن كل مايصنع من هذه المكايد نصْرا لكلمة الدين وإقامةً لعمود الملك فهو حسنٌ عقلا وشرعا : لأن فى المكايد سلامة الأولياء من المخاطرة بالمُهَج، ولهذا صار أهنى الفتوح مابلغ بالمكايد فيــه الغرض المقصود . فإن قُصَىَّ بن كلاب إنمـا غلبت على أهل مكة حيث آنتزعتـها بالمكيدة التى آستعملتها . وكذلك أردشير مؤسس ملك آبن ساسان المرتجع له من أيدى الذين آقتسموه من ملوك الطوائف، إنمـا وصل إلى ما وصل إليه من جمع المملكة كلها له بمـا آستعمله من المكايد . قال النبى صلى الله عليه وعلى آله أجمعين " الحربُ خِدْعة" . وقد أكد عليه السلام من ذلك بأفعاله التى كان يستعملها فى محاربة أعداء الدين من التورية عن مقصده عند مسيره فى غزواته، وخصوصا ما آستعمله فى فتح مكة " .

ثم قال فى صفحة ٤٣٨ :

فقد بان أن الشرع والعقل يحمدان المكايد إذا صرفت على الوجه الذى يعز به الدين وينتفع به المسلمون . وآرتفع بهذا وجه اللوم فى جميع هذه المكايد فى هذا الكتاب .

تمز الكتاب " تنبيــه الملوك" .

والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين، وحسبنا الله ونعم الوكيل، فى "سلخ ربيع الآخر سنة أربعين وستمـائة" .

أما المؤلف فى ذاته فلم أتوصل إلى معرفته مع إنعام النظر فى كتابه . وغاية ماتوفقنا إليه أنه عرفنـا بنفسه عن نفسه تعريفا مبهما مجهولا نستنتج منه أنه من الشيعة، كما أنه آكتفى بتسمية نفسه مرتين بآسم "جامع الأخبار" .

روى "جامع الأخبـار"(١) أنه سهر ليـلة عاشوراء بخندق الموالى القصرية وأطال التفكير فيما عرض لأهل النبوة ومعدن الرسالة والإمامة من آستيلاء أعدائهم عليهم

(١) فى صفحتى ٣٢١، ٣٢٢ .

حتّى تلاعبت به الظنون فى وجه الحكمة والعدل فى ذلك . فاستولى عليه النوم ورأى الإمام عليا فى صفة الساخط عليه لاعتراضه . وما زال المؤلف يستعطفه حتّى حَظِىَ بنعمة الرّضوان . ثم استيقظ وكان بجانبه قاضى "الناحية المذكورة" فاستعلم منه عن سبب انزعاجه وقلقه فشرح له الأمر . فقبّل القاضى يَدَه، لأنها لمست يدَ الإمام على .

ففى ذلك دليل على أن المؤلف كان موجودا بالقاهرة فى أيام الفاطميين ، وأنه كان من الشيعة .

ثم عاد المؤلف (فى صفحة ٣٥١) إلى تسمية نفسه بجامع الأخبار فقال :

" هذا الكتاب يبين فضل المجلس العالى السيدى الصالحى خلّد الله ملكه الذى ينزه بأن يخدع بمثل هذه المحاولات ولهذا يقول فى بعض قصائده .

ولا خدَعتنا منه قطُّ ملاحم * تُسَدّى بأصناف المُحَال وتُلحَم .
فأضعفُها ماكان فيه رواية * وأسقمها الخَطُّ الذى هو أقدَمُ " .

فهذا القول ، أعنى " المجلس العالى السيّدى " لا ينصرف بحسب الاصطلاح الرسمى المقرر فى ديوان الإنشاء إلا لصاحب الوزارة الكبرى فى أيام المماليك أو الأيوبيين أو الفواطم ، كما يشهد بذلك ابن فضل الله فى " التعريف بالمصطلح الشريف " والقلقشندى فى "صبح الأعشى" .

أما المماليك ، فلا شأن لهم هنا . لأن دولتهم إنما كان مبدؤها فى سنة ٦٥٥ أى بعد ١٥ سنة من تاريخ نسخ هذا المخطوط فى سنة ٦٤٠ .

وأما الأيوبيون ، فقد قضوا قضاءً مبرمًا على مذهب الشيعة بديار مصر . فلا يمكن أن يكتب أحد المؤلفين فى أيامهم شيئا مثل العبارة الأولى التى نقلناها عن وجود

صاحبنا بين القصرين . وفضلا عن ذلك ، فإن صلاح الدين هدم القصرين ، وعبارة مؤلفنا تدلنا على تمام العمران بهذه الخطة حيث كان لها قاض خاص بها فى أيامه .

فلم يبق لدينا أدنى شبهة فى أن التأليف إنما ظهر فى أيام الفواطم باسم أحد وزرائهم الأكابر .

فلننظر من هو هذا الوزير حتى نتمكن من تعيين تاريخ التأليف بغاية ما يمكن من التقريب والتحقيق .

أشار المؤلف إلى هذا الرجل باسم "الصالحى" وأنشد له شعرا . فهذا النعت لا ينصرف إلا إلى الصالح طلائع بن رُزِّيك ، خصوصا وقد شهد ابن خلكان بأنه ممن كانوا ينظمون الشعر الجيد ، وأورد لنا غررا من أقواله ، وعرّفنا بأنه رأى ديوانه فى جزأين .

فهذا الوزير تولى الأحكام على عهد الفائز الفاطمى ، واستقل بالأمور وتدبير أحوال الدولة ، وكانت ولايته فى ١٩ ربيع الأول سنة ٥٤٩ . وبعد وفاة الفائز ، استمر الصالح على وزارته وزادت حُرْمته وتزوج العاضد الفاطمى ابنته . ثم دسّ العاضد عليه مَنْ قتله . فكانت وفاته فى ١٩ رمضان سنة ٥٥٦ (١) .

وحينئذ يتعين القول بأن مؤلف كتاب "تنبيه الملوك والمكايد" قد أخرج كتابه للناس فى أخريات الدولة الفاطمية بمصر ، وأن تأليفه كان فى أواخر النصف الثانى من القرن السادس للهجرة .

(١) أنظر ترجمته فى ابن خلكان ، فى حرف الطاء .

التعريف بكتاب
"محاسن الملوك"
لبعض الفضلاء

هذا تعريفٌ وجيزٌ عن ذلك الكتاب الذى أشرتُ إليه كثيرا فى "التصدير" وفى الحواشى . كتبتُه ليكون القارئ محيطا بجميع العيون والمستندات التى لها علاقة بكتاب "التاج" .

عثرتُ على النسخة الأصلية لكتاب "محاسن الملوك" فى خزانة طوب قبو بالقسطنطينية ، تحت رقم ٣٠٥٢ . وهو عبارة عن القسم الأوّل من مجموعة تشتمل أيضا على كتاب آخر يتعلق برسل الملوك وسفرائهم (١) .

فأما "محاسن الملوك" فيقع فى ١٢١ صفحة ، وفى كل صفحة منها ١٥ سطرًا . وعلى طرّته أنه "جمعه بعض الفضلاء" . وقد ابتدأه مؤلفه بعد البسملة بقوله :

"الحمد لله المتطوّل بالعوارف ، المميز بالمعارف ، وجاعل الملوك قائمين فى الأرض بالوظائف التى على الخلائق ؛ الآمر بإعظام السلطان لقيامه بأعباء الإيالة ، وأنتصابه للخلق بالكفالة ؛ وتقلده ما تنتظم به أحوال العالم فى المعاش الذى هو وسيلة معادهم ، وسبب إحرازهم لأصل الخير وازدياده . أحمده على نعمه . . . ."

ثم نوه بالملك الذى ألف له هذا الكتاب وسماه "مولانا السلطان الملك العزيز" . وقد نعت المؤلف نفسه "بالمملوك" . ثم ختم الكتاب بالدعوات لهذا السلطان ، وكرّر فى غضونها التنويه به إذ قال : "ولا زال مولانا العزيز" .

---

(١) وقد نقلت نسخة من كل من هذين الكتابين بالتصوير الشمسىّ وأحضرتهما إلى دار الكتب الخديوية بالقاهرة .

وقد تصفحنا الكتاب فلم نجد أثرا آخر يدلنا على المؤلف أو عصره . فبحثنا عمن هو "السلطان الملك العزيز" هذا .

فرأينا أن هذا الاسم لم يكن إلا لثلاثة من ملوك الإسلام : اثنان منهما من بنى أيوب، والثالث من سلاطين المماليك .

فهذا الثالث هو الملك العزيز بن برسباى . تولى سلطنة مصر فى سنة ٨٤١ هجرية، ولكنه لم يجلس على سريرها سوى ٣ شهور فقط . فلا يكون حينئذ هو المعنى بالتفخيم والتعظيم الذى أورده المؤلف، خصوصا أن الكتاب منسوخ فى سنة ٧٩٥ هجرية، أى قبل أن يأتى هذا السلطان إلى الوجود بنصف قرن تقريبا .

أما السلطان الثانى المسمى "بالملك العزيز" فهو ابن الملك الظاهر غياث الدين غازى الأيوبى . تملك حلب فى سنة ٦١٣، بعد وفاة أبيه غياث الدين .

وكان هذا السلطان صغيرا فانتزع عمه الأفضل المُلْكَ منه فى سنة ٦٣٤ . ثم صارت حلب لعمه العادل . وتُوفّى الملك العزيز هذا فى سنة خلعه، أى ٦٣٤ . فتكون مدة حكمه ٢١ سنة . وقد كان يكون القول بأن الكتاب مؤلَّف له وباسمه وجيها وصحيحا، لولا شهادة التاريخ بأنه تولى الملك وهو فى سن الطفولة مما جعل عمه ينتزع العرش منه . وفوق ذلك فإن الأوصاف الملوكانية والنعوت السلطانية الواردة فى أول الكتاب وآخره لا تطلق مطلقا على صاحب حلب، ولا يمكن أن تنطبق على غير سلطان مصر، فإنه هو الذى كان متفردا بلقب "السلطان الملك" . وأما مَنْ عداه من أولياء الأمر فى الأصقاع الأخرى مثل حلب وحماة وغيرهما فإنما كان لقبهم الوحيد هو "الملك فلان" أو "فلان صاحب حلب أو صاحب حماة" لا غير، دون إضافة لقب "السلطان"

علىٰ آسمهم مهما كانت الأحوال . تشهد بذلك الكتب المؤلفة لهم والتاريخ يؤيد هذه الشهادة التى تستفاد بالصراحة و بالبداهة من آصطلاح القوم فى تلك الأيام، علىٰ ما تراه فى "التعريف بالمصطلح الشريف" لآبن فضل الله العمرىّ ، وفى "صبح الأعشىٰ" للقلقشندىّ .

لذلك لم يبق لنا سوىٰ القول بأن الكتاب مؤلَّف بآسم ثالث الملوك المعروفين "بالملك العزيز" وهو الملك العزيز آبن السلطان صلاح الدين الأيوبىّ . ذلك الذى جلس علىٰ عرش مصر بالنيابة عن أبيه فى حياته ، ثم آستقل بملكها من سنة ٥٨٩ إلىٰ سنة وفاته وهى سنة ٥٩٥ ، أى إن مدّة حكمه كانت ست سنين .

وقد جرت عادة المؤلفين فى الأيام المتقدّمة أن يُسَمِّىَ الواحدُ منهم نفسه "المملوك" إذا خدم بتأليفه أحد الأكابر وخصوصا أحد الملوك أو السلاطين . وهذا الآصطلاح كان متفشيا بمصر خصوصا فى عصر المماليك ، وعلىٰ الأخص فى أيام الأيوبيين من قبلهم .

والمتصفح لهذا الكتاب يرىٰ من أسلوبه ومن عباراته أنه مَصُوغ علىٰ الطريقة المألوفة فى أيام الأيوبيين بمصر . ولا يمكن القول ـ كما قد يستفاد من عبارة الختام ـ بأن تأليف هذا الكتاب كان فى "شهر المحرم أوّل سنة ٧٩٥" . لأن هذه السنة لم يكن فيها رجل من الملوك فى العالم الإسلامىّ يسمّى "بالملك العزيز" . فوجب حينئذ الجزم بأن هذه السنة هى سنة آنتساخ الكتاب ، لا سنة تأليفه . ويكون قد مضىٰ قرنان بين وقت تأليفه و بين وقت آنتساخه .

أما الكتاب ، فهـــذه موضوعاته :

أدب الوقوف على باب السلطان .

أدب الداخل على السلطان .

الأدب فى تنجز وعد السلطان .

الأدب فى تعهد السلطان خَدَمَه .

أدب من يجالس السلطان .

الأدب فى الانصراف عن مجلس السلطان .

أدب من يخاطب السلطان .

أدب من سأله السلطان عن اسمه .

أدب مؤاكلة السلطان .

أدب السلطان فى إقامة الحدود والتعزير .

الأدب فى عزاء الملك .

أدب التعزية بالملوك .

الأدب فى مسامرة الملوك .

أدب مناصحة السلطان .

الأدب فى استعطاف الملوك .

أدب من أسدى إليه الملك يدا .

أدب من رفع الملك قدره .

الأدب فى ممازحة الملك .

أدب الصلاة مع السلطان .

الأدب فى مسايرة السلطان .

أدب حِجَاب الملك وحُجّابه .

الأدب فى الرسول .

أدب الملك فى منامه .

الأدب فى اتخاذ الكاتب .

الأدب فى استعمال الملك الأناة وترك العجلة .

سخاء الملوك .

أدب الملوك إذا دهمهم أمر .

وفى كل هذه الأبواب استطرادات تتعلق بالموضوع ، تعلقا قريبا أو بعيدا .

وقد سطا المؤلف على كتاب "التاج" فأخذ منه كل ما يتعلق بهذه الموضوعات تقريبا[(١)] واختصر بعض فصوله اختصارا كليا أو جزئيا، وأضاف إليه بعض معلومات ليحلل سرقته أولا ، وليجعل لنفسه ثانيا حقا فى إسناد التأليف إليه وفى خدمة سلطان العصر به .

---

(١) أنظر جدول السرقات فى صفحة ٦٩ من "التصدير" الذى وضعناه فى أول هذا الكتاب .

فهارس أبجدية

لكتاب "التـــاج"

الفهرس الأبجدى الأوّل[1]

بأسماء الكتب التى آستخدمتُها للمراجعة وتحرير الحواشى

﴿ ا ﴾

الآثار الباقية عن القرون الخالية لأبى الريحان البيرونى، طبع العلامة سخاو المستشرق الألمانى بمدينة ليبسيك سنة ١٨٧٨

آثار البلاد وأخبار العباد للقزوينى، طبع العلامة وستنفلد بمدينة جوتنجن سنة ١٨٤٨

أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم للمقدسى المعروف بالبشارى، طبع العلّامة ده جويه بمدينة ليدن سنة ١٨٧٧ [وهو الثالث من المكتبة الجغرافية العربية]

إرشاد الألباء إلى طبقات الأدباء = معجم الأدباء

أساس البلاغة للزمخشرى، طبع القاهرة سنة ١٢٩٩

أُسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير، طبع القاهرة سنة ١٢٨٠

الاشتقاق، لابن دُريد، طبع العلامة وستنفلد بمدينة جوتنجن سنة ١٨٥٤

الأصنام لابن الكلبى (نسخة مخطوطة بخزانة كتبى وجار طبعها بتحقيق فى مطبعة بولاق فى هذا العام)

إعجاز القرآن للقاضى أبى بكر الباقلّانى، طبع القاهرة سنة ١٣١٥

الأعلاق النفيسة لأحمد بن عمر بن رُسْتَه، طبع العلّامة ده جويه بمدينة ليدن سنة ١٨٩١ [وهو السابع من المكتبة الجغرافية العربية]

المحاسن والأضداد للجاحظ طبع العلّامة فان فلوتن بمدينة ليدن سنة ١٨٩٨

الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى، فى ٢٠ جزءا طبع بولاق سنة ١٢٨٥هـ، والجزء الحادى والعشرون منه طبع الأستاذ رودلف بُرونُو بمدينة ليدن سنة ١٣٠٥هـ

فهارس الأغانى للعلّامة جويدى وزملائه، طبع ليدن سنة ١٨٩٥ — ١٩٠٠

الأمالى (وذيله) لأبى علىّ القالى، طبع بولاق سنة ١٣٢٤هـ

الأنساب للسمعانى، طبع العلامة مرجوليوث بمدينة لوندره سنة ١٩١٢

(١) هذه الفهارس الأبجديّة كلها لم يرد فيها شىء من المسميات الواردة فى التصدير. فتنبه لذلك.

﴿ ب ﴾

كتاب البخلاء للجاحظ طبع العلامة فان فلوتن بمدينة ليدن سنة ١٩٠٠

بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس، طبع بولاق سنة ١٣١١ هـ

برهان قاطع (معجم فارسى نقله عاصم افندى إلى اللغة التركية)، واسمه تبيان نافع فى ترجمة برهان قاطع، طبع بولاق سنة ١٢٥١ هـ

مختصر كتاب البلدان للهمذانى المعروف بابن الفقيه، طبع العلامة ده جويه بمدينة ليدن سنة ١٣٠٢ هـ وسنة ١٨٨٥ م [وهو الجزء الخامس من المكتبة الجغرافية العربية]

كتاب البلدان لليعقوبى، طبع العلامة جوينبول بمدينة ليدن سنة ١٨٦٠

البيان والتبيين للجاحظ، طبع القاهرة سنة ١٣١٣ هـ

﴿ ت ﴾

تاج العروس فى شرح القاموس، طبع القاهرة سنة ١٣٠٧ هـ

تاريخ ابن خلدون = كتاب العبر الخ

تاريخ الرسل والملوك لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى، طبع العلامة ده جويه وزملائه بمدينة ليدن سنة ١٨٧٩ — ١٩٠١

تاريخ الطبرى = تاريخ الرسل والملوك

تاريخ أبى الفداء = المختصر فى أخبار البشر

التسهيل (كتاب فى النحو) طبع القاهرة، مرارًا

شرح التسهيل (كتاب فى النحو) طبع القاهرة، مرارًا

تقريب التهذيب للحافظ العسقلانى طبع الهند سنة ١٢٩٠ هـ

تكملة المعجمات العربية للعلامة دوزى، طبع ليدن سنة ١٨٨١

التنبيه والإشراف للمسعودى، طبع العلامة ده جويه بمدينة ليدن سنة ١٨٩٣ [وهو الثامن من المكتبة العربية الجغرافية]

تنبيه الملوك والمكايد، منسوب للجاحظ. [ونسخته محفوظة بدار الكتب الخديوية، منقولة بالفوتوغرافيا عن مكتبة الكوپرلى بالقسطنطينية]

﴿ ح ﴾

حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة للسيوطى، طبع حجر بالقاهرة بدون تاريخ سنة الطبع

الحماسة (شرحها التبريزى)، طبع العلامة فريتاج بمدينة بون سنة ١٨٢٨

الحيوان للجاحظ، طبع القاهرة سنة ١٣٢٣ هـ

﴿ خ ﴾

خاتمة الأشمونى (كتاب فى النحو) طبع القاهرة، مرارا

خزانة الأدب للبغدادى طبع بولاق سنة ١٢٩٩ هـ

الخطط للقريزى، طبع بولاق سنة ١٢٧٠ هـ وطبع فييث بالقاهرة سنة ١٩١١

﴿ د ﴾

ديوان حسان بن ثابت طبع تونس سنة ١٢٨١ هـ، وطبع القاهرة سنة ١٣٢١

ديوان الفرزدق، طبع العلامة بوشير ومعه ترجمته له إلى اللغة الفرنسية فى باريس سنة ١٨٧٢ — ٧٥

﴿ ذ ﴾

ذيل الأمالى للقالى = الأمالى

﴿ ز ﴾

زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك لخليل بن شاهين الظاهرى، طبع بولس راويس بمدينة باريس سنة ١٨٩٤

﴿ س ﴾

سلوان المطاع فى عدوان الأتباع لابن ظفر الصقلى طبع الحجر فى القاهرة سنة ١٢٠٨ هـ [وترجمته الإنكليزية بمعرفة العلامة ميشل أمارى الطليانى، طبع لوندرة سنة ١٨٥٢]

سيرة ابن هشام، طبع المرحوم الزبير رحمت باشا ببولاق سنة ١٢٩٥، وطبع العلامة وستنفلد بمدينة جوتنجن سنة ١٨٥٦ — ١٨٦٠ م

﴿ ش ﴾

شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لأبى الفلاح عبد الحى بن أحمد بن محمد العكرى المعروف بابن العماد الحنبلى [مخطوط بدار الكتب الخديوية نمرة ١١١٢ تاريخ]

شرح القاموس = تاج العروس

شرح نهج البلاغة = نهج البلاغة

شفاء الغليل للخفاجى، طبع القاهرة سنة ١٢٨٢ هـ

﴿ ص ﴾

صبح الأعشى للقلقشندى (الجزء الأول، طبع بولاق سنة ١٩٠٥)

الصحاح للجوهرى، طبع بولاق سنة ١٢٨٢

صحيح البخارى، طبع السلطان عبد الحميد الثانى ببولاق سنة ١٣١١ — ١٣ فى تسعة أجزاء

﴿ ط ﴾

طبقات الشافعية للسبكى، طبع القاهرة سنة ١٣٢٤

الطبقات الكبرى لابن سعد، طبع العلامة سخاو وزملائه بمدينة ليدن من سنة ١٣٢١ هـ [ولا يزال العمل فيه جاريا إلى الآن.]

طراز المجالس للخفاجى، طبع القاهرة سنة ١٢٨٤ هـ

﴿ ع ﴾

كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر لابن خلدون، طبع بولاق سنة ١٢٨٤ هـ

عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزوينىّ، طبع العلامة وستنفلد بمدينة جوتنجن سنة ١٨٤٩

كتاب العصا لأسامة بن منقذ، طبع باريس

كتاب العصا للجاحظ (فى ضمن كتاب البيان والتبيين)

العقد الفريد لابن عبد ربّه، طبع بولاق سنة ١٢٩٣

عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة، طبع العلّامة أغسطس مُلّر فى القاهرة سنة ١٣٠٠ هـ

﴿ غ ﴾

غرر أخبار الفرس وسيرهم للثعالبى، طبع العلامة زوتنبرج مع ترجمته له إلى الفرنسية، بباريس سنة ١٩٠٠

﴿ ف ﴾

فتوح البلدان للبلاذُرىّ، طبع العلامة دهجويه بمدينة ليدن سنة ١٨٦٦

الفَرْق بين الفِرَق لعبد القاهر البغدادىّ، طبع القاهرة سنة ١٩١٠

الفِصَل فى الملل والنحل لابن حزم الأندلسىّ طبع القاهرة سنة ١٣١٧ — ١٣٢١

كتاب الفهرست لابن النديم، طبع العلامة فلوجل بمدينة ليبسيك سنة ١٨٧٠

فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى، طبع بولاق سنة ١٢٨٣ هـ

﴿ ق ﴾

القاموس للفيروزابادىّ، طبع القاهرة سنة ١٣١٩ هـ

قاموس الثياب = معجم الثياب عند العرب

﴿ ك ﴾

الكامل فى الأدب للمبرِّد، طبع العلامة رَيْت المستشرق الإنكليزى بمدينة ليبسك من سنة ١٨٦٤ — ١٨٨١

الكامل فى التاريخ لابن الأثير طبع العلامة تورنبرج بمدينة ليدن سنة ١٨٥١ — ١٨٧١

الكلمات الطليانية المأخوذة عن اللغة العربية للدكتور ريبا لدى طبع مدينة نابولى سنة ١٩٠٦ م

كليلة ودمنة، طبع العلامة ده ساسى بمدينة باريس سنة ١٨١٦

كليلة ودمنة، طبع بولاق سنة ١٢٨٥ هـ

كليلة ودمنة، طبع العلّامة الأب لويس شيخو بمدينة بيروت سنة ١٩٠٥

﴿ ل ﴾

لسان العرب لابن المُكَرَّم المعروف أيضا بابن منظور، طبع بولاق سنة ١٣٠٠ — ١٣٠٨ هـ

لَقْف القماط في تصحيح ما استعمله العامة من المعرب والدخيل والمُوَلَّد والأغلاط، للسيد حسن صدّيق خان صاحب مملكة بهوپال بالهند (وعليه هوامش للسيد نور الحسن) طبع، حجر بالهند سنة ١٢٩٦

﴿ م ﴾

مبادئ اللغة لابن الخطيب الإسكافي طبع القاهرة حديثا سنة ١٣٢٥ هـ

المحاسن والأضداد، المنسوب للجاحظ، طبع العلّامة فان فلوتن بمدينة ليدن سنة ١٨٩٨

محاسن الملوك لبعض الفضلاء [نسخة محفوظة بدار الكتب الخديوية نقلا بالفوتوغرافية عن الاصل المحفوظ بخزانة طوبقبو بالقسطنطينية]

المحاسن والمساوى لإبراهيم بن محمد البيهقى، طبع العلّامة فريدبك شوالى بمدينة جيسن سنة ١٣٢٠ هـ — ١٩٠٢ م

محاضرات الأُدباء للراغب الإصفهانى، طبع محمد عارف باشا رئيس جمعية المعارف بالقاهرة سنة ١٢٨٧ هـ

محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر لعلى دده، طبع القاهرة سنة ١٣٠٠

المخصص لابن سيده، طبع بولاق سنة ١٣١٦ — ١٣٢١

مسالك الممالك لإبراهيم الإصطخرى المعروف بالفارسى، طبع العلّامة ده جويه بمدينة ليدن سنة ١٨٧٠ [وهو الأوّل من المكتبة الجغرافية العربية]

كتاب المسالك والممالك لابن حوقل، طبع العلّامة ده جويه بمدينة ليدن سنة ١٨٧٣ [وهو الثانى من المكتبة الجغرافية العربية]

المسالك والممالك عن ابن خرداذ به، طبع العلّامة ده جويه بمدينة ليدن سنة ١٣٠٦ هـ — ١٨٨٩ م [وهو السادس من المكتبة الجغرافية العربية]

المشتبه فى الأسماء للذهبىّ، طبع العلّامة ده يونج بمدينة ليدن سنة ١٨٨١

مطالع البدور فى منازل السرور لعلاء الدين على البهائى الغزولى، طبع القاهرة سنة ١٢٩٩ — ١٣٠٠

المعارف لابن قتيبة، طبع العلامة وستنفلد بمدينة جوتنجن سنة ١٢٦٧ هـ — ١٨٥٠ م

المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، لعبد الواحد المرّاكُشى طبع العلّامة دوزى بمدينة ليدن سنة ١٨٨١

معجم الأدباء لياقوت الحموى طبع العلّامة مرجوليوث بالقاهرة، من سنة ١٩٠٧ [ولا يزال العمل جاريا للآن]

الفهرس الأبجدىّ الثانى
بأسماء المصنفات المذكورة فى متن الكتاب أو فى حواشيه وتكميله

كتاب الآباء والأمهات لأبى حسان الزيادىّ

كتاب آيين لأحمد بن محمد بن نصر الجيهانى (وانظر كتاب الزيادات فى هذا الفهرس)

آيين الأكاسرة

آيين الفرس

آيين ابن المقفع

كتاب أخبار الأكلة للداينى

كتاب أخبار زياد بن أبيه للهيثم بن عدىّ

أخبار زياد بن أبيه للداينى

أخبار ولد زياد بن أبيه ودعوته للداينى

أخلاق الفتيان وفضائل أهل البطالة [من كتب الجاحظ]

الأدب الكبير } لابن المقفع، طبع
الادب الصغير } أحمد زكى باشا

الأغانى (كتابٌ يشير إليه الجاحظ، هو غير الذى لأبى الفرج الاصبهانى)

الأغانى (كتابٌ ذكره المسعودىّ، وهو خلاف الذى لأبى الفرج)

الأغانى (كتابٌ لإبراهيم بن المهدىّ)

الأغانى (كتابٌ لإبراهيم الموصلىّ وإسماعيل ابن جامع وفليح بن العوراء)

الأغانى (كتابٌ لإسحاق بن إبراهيم الموصلىّ. وأصله مما يقال لأبيه وابن جامع وابن العوراء، هذّبه إسحاق بأمر الخليفة الواثق. وقال أبو الفرج إنه ليس له، بل هو مصطنع عليه. ونسبه المسعودىّ له)

كتاب ألقاب الشعراء لأبى حسان الزيادىّ

كتاب البخلاء [يشير اليه الجاحظ فى صفحة ١٤٠ وهو غير الذى ألفه هو]

بدائع البدائه لابن ظافر

الجمهرة لابن دريد

درّة الغوّاص للحريرىّ، طبع الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٢٩٩ هـ، وطبع ليبسك سنة ١٨٧١ م

كتاب الزيادات فى كتاب آيين فى المقالات لاحمد بن محمد بن نصر الجيهانى (وانظر كتاب آيين له)

سرح العيون لابن نباته طبع بولاق

كتاب طبقات الشعراء لأبى حسان الزيادى

الكشّاف [وحواشيه] تفسير القرآن للزمخشرى، طبع مرارا بالقاهرة

مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى

معجم الشعراء للزبانىّ [توجد نسخة مخطوطة منه بمكتبة باريس الأهلية]

كتاب مغازى عروة بن الزبير لأبى حسان الزيادى

كتاب مقتل عمرو بن سعيد بن العاص

كتاب من احتكم من الخلفاء إلى القضاة للعسكرى

الفهرس الأبجدىّ الثالث

بأسماء الرجال المذكورين فى "التاج" وحواشيه وتكميل الروايات

(تنبيه : الرقم الكبير يدلّ على الصفحة من متن الكتاب ؛ والرقم الصغير يدل على الصفحة من حاشية الكتاب ومن تكميل الروايات ؛ والشرطة ـ تحت الرقم الكبير أو الصغير تدل على تكرار الاسم . وهكذا الشأن فى الفهارس التالية)

﴿ ا ﴾

﴿ ح ﴾

خ

د

ذ

ر

﴿ ص ﴾

﴿ ض ﴾

﴿ ط ﴾

﴿ ع ﴾

﴿ غ ﴾

﴿ ف ﴾

﴿ م ﴾

﴿ ن ﴾

﴿ هـ ﴾

﴿ و ﴾

﴿ ى ﴾

الفهرس الأبجدى الرابع

بأسماء الأمم والقبائل والشعوب والبيوت ونحوها

الفهرس الأبجدى الخامس والأخير
بأسماء البلاد والمدن والمواضع والأماكن ونحوها

تم الكتاب

والحمد لله أولا وآخرا

pour ce merveilleux artiste dont il reproduit d'ailleurs plusieurs passages. Il aurait voulu ainsi, en écrivant ses *Mœurs des rois*, enrichir la littérature arabe d'un *Kitâb el Tâdj*, qui ferait en quelque sorte le pendant du monument des Sassanides.

Voilà la raison qui m'a déterminé à donner les deux titres à mon édition, imitant en cela l'exemple du Codex de Sainte Sophie.

***

A la présente édition, j'ai ajouté des index alphabétiques, aussi soigneusement faits que possible, afin de provoquer chez les orientaux l'habitude de recourir à cet instrument de travail d'une importance capitale, toutes les fois qu'ils essayeront d'éditer un ouvrage arabe d'une certaine valeur.

AHMED ZÉKI PACHA.

Le Caire, Avril 1914.

P.S. — Je dois renvoyer les lecteurs arabisants à mes prolégomènes arabes placés d'autre part en tête de la présente édition.

On y trouvera des renseignements détaillés et des notes critiques sur le livre et son auteur, sur les deux manuscrits conservés à Stamboul et sur celui d'Alep, ainsi qu'une dissertation documentée sur les deux titres de cet ouvrage.

Je crois avoir réussi à prouver que Djâhiz est incontestablement l'auteur du livre que je présente aux érudits de l'Orient et de l'orientalisme.

A. Z.

le copiste indiquait son nom, la bibliothèque pour laquelle il l'avait exécuté, dans la ville d'Alep, en l'an 885 de l'Hégire.

Si le texte, d'Alep nous renseigne sur sa date, en revanche il ne porte aucun titre.

On verra dans mes prolégomènes arabes tout le parti que j'ai tiré, quoique tardivement, de ce manuscrit qui venait de tomber entre mes mains d'une façon si inattendue.

Qu'il me suffise ici de remercier M. Sherman qui a eu l'amabilité de mettre son manuscrit à mon entière disposition. J'ai pris les *fac-similés* de la première et de la dernière page, et je les ai ajoutés à ceux que je m'étais déjà procurés d'après les deux manuscrits de Stamboul, les deux seuls connus et dont l'un a été découvert par moi à Top-Kapou.

***

Les nombreux renseignements que nous trouvons dans le présent volume sont, à n'en pas douter, reproduits par Djâhiz d'après des traités persans consacrés à l'étiquette et au protocole royal. Quelquefois même, comme nous l'avons fait ressortir, Djâhiz nous induit simplement en erreur en reproduisant, comme existant à son époque, un cérémonial qui était à coup sûr tombé en désuétude. Il fait souvent allusion au آيين "Ayïn" des Persans, au "Ayïn" des Cosroés, à leur "Ayïn" au "Ayïn" tout court, livre de l'étiquette sassanide que l'auteur arabe met à contribution.

Nous savons d'autre part qu'il y avait chez les Persans un *Kitâb el Tâdj* qui a été traduit en arabe par Ibn el Moqaffaʿ. Il est très vraisemblable de supposer que cette version a été mise à profit par Djâhiz qui avait une véritable admiration

que le livre de Top-Kapou n'est pas mentionné dans le soi-disant *catalogue* et que le texte de Djâhiz se trouve dans un volume contenant tout d'abord deux traités d'Ibn el Moqaffa'. Il est encore à remarquer que ce titre d'*El Tâdj* n'est donné par aucun des auteurs qui ont parlé des œuvres de Djâhiz. Tous, comme lui-même d'ailleurs, font mention seulement d'un livre intitulé : "*Mœurs des rois.*"

Par un hasard heureux, il m'a été donné d'utiliser encore une troisième copie, mais seulement à la dernière minute.

Depuis assez longtemps déjà, le texte de Djâhiz avait été imprimé, et lorsque dans les premiers jours de décembre 1913 mes prolégomènes arabes et les additions et index étaient enfin presque sous presse, j'eus la bonne fortune de recevoir au Caire la visite de M. Sherman. Il venait d'acquérir à Constantinople la belle collection des manuscrits orientaux de Khâlis Bey, un des favoris de l'ex-Sultan Abdul Hamîd II. Il me pria d'examiner cette collection et de lui faire le catalogue de la partie arabe. Quelle ne fut pas ma surprise et surtout ma satisfaction lorsque j'y rencontrai une nouvelle copie insoupçonnée de *Kitâb el Tâdj !*

Dépourvu de la moindre indication au sujet du titre même de l'ouvrage, rempli d'autre part d'une foule d'erreurs, souvent grossières, présentant enfin plus d'une lacune, et amputé pour ainsi dire vers sa fin, par le copiste, qui a sauté une quinzaine de feuilles environ, le manuscrit que j'avais sous les yeux présentait cependant pour moi, un intérêt tout particulier.

A l'encontre des codex que j'ai mis à contribution pour ma présente édition le manuscrit contenait un colophon où

***

J'ai pris pour base de cette édition le manuscrit conservé à la Bibliothèque de Top-Kapou, que je désigne par la lettre ت; il porte le titre de *Kitâb el Tâdj* (كتاب التاج).

La seconde copie de cette œuvre, conservée à la Bibliothèque de Sainte Sophie, a pour titre أخلاق الملوك "*Mœurs des rois.*" J'en ai obtenu dans la suite une copie photographique qui a servi à la révision de mon édition, où elle est indiquée par la lettre ص. Les deux textes, malgré leurs nombreux défauts, se sont complétés, grâce surtout à des recherches patientes et laborieuses que j'ai entreprises dans une foule de documents imprimés et manuscrits.

Le texte de Top-Kapou portait uniquement le titre de كتاب التاج *Kitâb el Tâdj*; celui de Sainte Sophie portait écrit de la main originaire le titre de كتاب أخلاق الملوك *Mœurs des rois,* avec le mot التاج ajouté par une main moderne sur la lettre ب du titre. Nul renseignement sur la provenance ou sur la date, de l'une ou de l'autre copie, ni au commencement ni à la fin. Sauf pourtant que le copiste de Sainte Sophie a ajouté à la fin de son manuscrit cette mention: وكان بالأصل سقامة "L'original qui a servi à cette reproduction était en mauvais état."

La copie de Top-Kapou portait donc formellement le titre *Kitâb el Tâdj* qui était reproduit incidemment en tête de la seconde. Dans quelles conditions cette suscription, évidemment moderne, a-t-elle été écrite sur le manuscrit de Sainte Sophie ? Mystère. L'auteur de cette indication l'aurait-il prise dans le manuscrit de Top-Kapou ? Rien n'autorise cette hypothèse, puisque nous ne possédons aucun indice à cet égard. D'ailleurs cela est peu probable, étant donné

les Abbassides et nous dépeint les stratagèmes qu'ils employaient pour reconquérir la faveur du monarque ou des grands dignitaires de l'Empire. Il nous décrit le protocole qui régit les rapports des Princes avec le Souverain. Une légende est accréditée en Orient qui dépeint le khalife El Manṣour sous les traits d'un avare. Djâḥiẓ combat cette légende avec énergie et produit pour soutenir sa thèse des preuves qu'emploieront ensuite Ṭabarî et d'autres.

Cérémonial employé lorsque le khalife est malade ; façon dont les persans et arabes se comportent avant et après l'Islam, dans les festivals et les réunions intimes ; visites des souverains aux grands dignitaires ; attitude des khalifes pendant les grandes crises qui ébranlent leurs trônes, etc., etc., tout cela est passé en revue par notre auteur.

Le *Livre de la Couronne* est peut-être l'ouvrage où il y a le plus d'ordre relatif, parmi les productions que nous devons à la plume féconde de Djâḥiẓ. Le souci constant qu'il a de ne pas lasser le lecteur l'entraîne ordinairement en effet à traiter, à tout propos et quelquefois hors de propos, les sujets les plus disparates, les plus variés, comme les plus opposés et même les plus contradictoires.

Il explique d'ailleurs lui-même sa méthode dans son grand traité littéraire et indique les moyens de fixer l'attention du lecteur. "Si le livre, dit-il, est de longue haleine, l'auteur, pour captiver et tenir en éveil l'attention du lecteur, doit recourir à divers subterfuges, pour être toujours en faveur auprès de lui. Il est, par exemple, nécessaire de varier les sujets, sans toutefois dépasser les limites du cadre qu'il s'est imposé. Il faut en un mot le renseigner et l'instruire." (1)

(1) Cf. entre autres, BAYÂN, t. II, p. 154, et ḤAYAWÂN, t. V, pp. 30, 51, 61 et 65.

orientaux, les Abbassides suivaient les règles établies par les Sassanides. Cela s'explique d'ailleurs par la contribution armée que les Persans apportèrent pour mettre les Abbassides sur le trône. Les plus grands personnages de l'Empire, du reste, étaient d'origine persane. Mais Djâhiz n'oublie pas néanmoins de nous renseigner sur l'étiquette purement arabe.

Je me permets d'attirer l'attention du lecteur sur *l'interview* (dans le sens actuel du mot) que Djâhiz prit à l'un de ses plus illustres contemporains, Ishâq Ibn Ibrâhîm el Mawsilî. Cette *interview* rappelle les informations de nos plus grands *reporters* modernes. Elle nous initie à la vie intime des khalifes omayyades et abbassides. Nous assistons à leurs divertissements, alors qu'ils boivent en écoutant des chansons. Djâhiz mélange à sa narration ses appréciations personnelles ; il y ajoute des notes complémentaires, d'où résulte une confusion avec les paroles mêmes de l'interviewé que le système de ponctuation nous a permis de dégager et de rendre claires (voir pages 31 à 43 du texte arabe).

Djâhiz nous rapporte tranquillement quelques-unes des particularités de l'étiquette sassanide, alors que ces particularités étaient devenues incompatibles avec l'Islam. Entraîné par son sujet, il oublie même d'attirer le moins du monde l'attention du lecteur sur ce fait.

Il nous renseigne sur la toilette et le costume des souverains ainsi que sur l'usage des parfums qui leur étaient exclusivement réservés. Il nous raconte plusieurs anecdotes et cite des mots historiques. Il nous apprend qu'il ne faut jamais appeler le souverain par son nom, sauf dans la poésie. Il nous donne les raisons de la disgrâce dont furent frappés quelques courtisans sous

bution une foule d'auteurs pour arrêter le texte de façon aussi rigoureuse que possible. Partout où il était nécessaire, pour obvier au défaut de lecture, provoqué par le système graphique de l'alphabet arabe, j'ai mis les points-voyelles pour fixer la prononciation de tel ou tel mot qui présentait une difficulté quelconque. De même pour l'intelligence du texte, j'ai utilisé le nouveau système de ponctuation, adapté par moi à la grammaire arabe, ce qui facilite la lecture en la simplifiant.

Les divisions en paragraphes, destinées à éviter les confusions, ainsi que les manchettes qui jouent un rôle utile pour indiquer les changements de sujet, feront de mon édition, un travail à peu près complet et soigneusement présenté.

Les notes critiques et documentaires, auxquelles s'ajoutent souvent de nombreuses références, permettront au lecteur de trouver facilement tous les détails complémentaires qu'il pourrait souhaiter.

***

J'avais pensé faire une analyse en français du présent ouvrage, mais cela pourrait être un excellent exercice pour un jeune orientaliste qui se trouvera parfaitement en mesure de le faire, grâce aux indications bibliographiques et aux notes explicatives que j'ai semées à profusion à travers tout l'ouvrage.

Je me contenterai donc de dire un mot sur le sujet traité par Djâhiz.

Dans ce livre, l'auteur a voulu nous faire un tableau complet de l'étiquette en usage à la Cour de Bagdad sous les Abbassides, ainsi que du cérémonial adopté par les Omayyades à Damas.

De même que nous voyons aujourd'hui employer l'étiquette européenne, française ou anglaise, à la Cour des Souverains

plus ou moins honnêtes qui lui ont été faits, depuis Ṯabarî lui-même qui ne le nomme pas une seule fois dans sa vaste compilation historique.

Mass'oudî reproduit souvent des passages entiers du Kitâb El Tâdj, sans indiquer l'auteur ni l'ouvrage. Lorsqu'il est amené à citer une appréciation personnelle de Djâẖiẕ, l'auteur des "Prairies d'Or" se contente d'écrire : *des personnes érudites qui s'occupent de littérature ont dit....*

Cependant Mass'oudî consacre à Djâẖiẕ un article élogieux où il rend hommage à sa profonde érudition et à son talent encyclopédique.

Je ne crois pas utile de citer tous les auteurs postérieurs qui sont dans le même cas, car ils sont légion. Je me suis efforcé d'ailleurs, dans les annotations du présent ouvrage, de relever, dans la mesure du possible, tous les emprunts qui lui ont été faits. Du reste, un tableau de ces emprunts a été ajouté à mes prolégomènes arabes, en tête du présent volume.

La fécondité de Djâẖiẕ est connue de tous ceux qui ont étudié la littérature arabe. L'orientaliste hollandais Van Vloten avait annoncé son intention de dresser la liste des œuvres de Djâẖiẕ, lorsqu'il fut surpris par la mort. Je me suis donné la tâche ardue et délicate de consacrer à ce sujet une monographie détaillée et documentée, qui paraîtra bientôt, je l'espère.

***

Quant au livre même que je publie aujourd'hui, étant donné qu'il fait partie des ouvrages qui inaugurent la série de l'œuvre de la **Renaissance des Lettres Arabes**, j'ai essayé d'en faire une véritable édition nationale. J'ai mis à contri-

sentés, ces ouvrages, fussent-ils médiocres à son sens, étaient cependant accueillis avec enthousiasme.

Notre subtil auteur n'ignorait pas les avantages de ce que nous appelons la vogue. Djâhiz mettait à profit cette pensée juste et que devait exprimer malicieusement La Bruyère en écrivant: "Il n'est pas si aisé de se faire un nom par un ouvrage parfait, que d'en faire valoir un médiocre par le nom qu'on s'est déjà acquis."

Djâhiz se plaint d'ailleurs — et cela ne manque pas de piquant — d'avoir été obligé de recourir à cette supercherie. Il déplore que ses ouvrages les plus soignés n'aient eu vis-à-vis des jaloux et des détracteurs d'autre tort que *d'être signés d'un auteur contemporain.*

Le même subterfuge fut employé par des auteurs postérieurs qui voulurent à leur tour exploiter la célébrité que Djâhiz s'était acquise, mais la ruse eut alors moins de succès.

Djâhiz est, d'autre part, le littérateur qui a été le plus pillé par ses successeurs.

De nombreux plagiaires se font un devoir de s'approprier non seulement ses idées mais encore ses expressions et les formules qui caractérisent son style d'une manière si typique. Leur seule préoccupation en cette occurrence, c'est d'éviter soigneusement de le nommer, sauf à de très rares exceptions. C'est à la faveur d'une inadvertance heureuse qu'ils nomment parfois Djâhiz. Quand ils rapportent ses paroles, au lieu de citer son nom, ils écrivent d'habitude : *on* a vu, *on* a rapporté, *on* a assisté. Ils ont organisé à son endroit une véritable conspiration du silence.

Je me suis attaché pour le cadre restreint du livre que je présente aujourd'hui au public à faire ressortir les emprunts

ou par qui que ce soit. Ils se recommandent d'eux-mêmes. Réunissant avec un scrupule parfait tous les arguments qui peuvent être invoqués pour soutenir telle ou telle théorie, ils se distinguent en dehors de la solidité du fond par la noblesse du style et par la clarté et la simplicité de l'exposition. Ils sont aussi bien à la portée du vulgaire que de l'aristocratie ; les intelligences les plus simples peuvent en profiter comme les esprits les plus cultivés." (1)

On peut se renseigner complètement sur la doctrine de Djâhiz en consultant le vaste traité littéraire de son disciple, Ibn Abi el Hadîd qui le désigne chaque fois qu'il parle de lui, et il en parle souvent, sous le nom de "Notre maître Abou Osman (شيخنا أبو عثمان)."

La méthode littéraire de Djâhiz, adoptée par plusieurs littérateurs arabes, a pour caractère essentiel le souci constant de tenir en éveil l'attention du lecteur, de ne jamais laisser languir l'intérêt de l'ouvrage. Celui de ses disciples qui l'admirait le plus, au point qu'on peut dire qu'il avait pour Djâhiz un véritable culte, Abou Hayyân Tawhîdî, a, selon moi, réussi à l'égaler et même à le surpasser quelquefois. Je suis heureux de posséder de ce dernier deux grands ouvrages (2), photographiés d'après les originaux conservés à Stamboul.

Comme on l'a remarqué (entre autres Mr. Van Vloten), Djâhiz, pour répandre ses idées et pour s'assurer l'accueil bienveillant du public a eu recours à un ingénieux subterfuge: il nous avoue franchement qu'il avait publié quelques traités sous le nom du grand écrivain Ibn el Moqaffa'. Ainsi pré-

(1) Cf. Bayân. t. II, p. 157.

(2) Le Kitâb الامتاع والمؤانسة de la Bibliothèque de Top-Kapou, et le Kitâb البصائر والذخائر de la Bibliothèque de Fâtih.

ou de l'autre cause, Djâhiz sait mettre en valeur et en évidence les mérites des deux tribus concurrentes.

Aussi, ses contemporains n'ont-ils pas manqué de lui reprocher cette dualité d'opinion. Mais ces attaques ne l'effrayaient nullement et il trouve la réponse judicieuse à ces critiques en déclarant "qu'il se borne à exposer les arguments de deux camps opposés, les faisant parler par sa bouche, en *reporter* fidèle, qui rapporte consciencieusement les opinions les plus diverses pour mieux les faire connaître au grand public. Quant à ses idées personnelles, ajoute-t-il, elles sont notoirement connues."[1]

Et nous savons qu'il les défend avec tout le talent dont il peut disposer.

Le brillant khalife El Mâmoun, qui n'était pas un esprit médiocre, se fit apporter les livres de Djâhiz sur *l'Imamat* (pouvoir spirituel souverain) et les donna à un de ses hommes de confiance, Yazîdî, dont il appréciait le sain jugement, pour qu'il lui en fît un compte-rendu succinct mais exact. Vivement intéressé par ce que lui en dit ce critique éclairé, El Mâmoun voulut les lire lui-même et convoqua Djâhiz qu'il félicita en ces termes : "Des personnes dont l'esprit judicieux nous est connu et en qui nous avons la plus grande confiance, nous ont informé que vos livres étaient des ouvrages de valeur. Nous avons pensé néanmoins que la critique pouvait en être trop élogieuse, aussi avons-nous voulu les lire nous-mêmes. Nous avons constaté avec plaisir que vos œuvres méritaient ces éloges et que l'appréciation flatteuse qu'on nous en avait donnée n'était pas exagérée. Examinant ces livres avec le soin le plus méticuleux, nous avons reconnu leur grand intérêt. Ils n'ont pas besoin d'être prônés ou défendus par leur auteur

(1) Voir l'introduction de son grand ouvrage, *Kitâb el Hayawân*.

convaincre ses contradicteurs les images les plus vives et les termes les plus osés, selon ses habitudes littéraires.

Quelqu'un lui demandait un jour comment le Coran avait pu être *créé*, et Djâhiz de répondre: "Comme un homme, comme une femme, comme une vache, en un mot comme tout être quelconque mâle ou femelle."

Cette réponse, qui traduit sa pensée de la manière la plus claire, la plus crue, fut interprétée par ses adversaires de façon malveillante et leur parti-pris en dénatura le sens.

N'imaginèrent-ils pas en effet d'en conclure et de répandre *urbi et orbi* que Djâhiz professait que le Coran pouvait devenir tantôt un homme, tantôt une femme, etc. ?

L'école motazilite de Bassora, dont Djâhiz était un des plus grands représentants, consacrait la préséance d'Abou Bakr, le premier khalife rachidite, à l'encontre notamment de l'école chéîte qui soutenait et soutient encore que la succession de Mahomet au pouvoir pontifical devait être dévolue à son gendre, Aly, le quatrième khalife rachidite. Malgré sa conviction, Djâhiz écrivit cependant un livre à l'intention de cette dernière école, livre dans lequel notre auteur réussit peut-être mieux que les partisans les plus déterminés de Aly à mettre en lumière les mérites de ce khalife et à faire ressortir les titres qui le désignaient en première ligne pour recueillir directement la succession du Prophète.

Quand éclata la grande querelle entre Omayyades et Abbassides, Djâhiz, en brillant avocat, sut exposer avec une égale éloquence et même avec une égale désinvolture, les titres des uns et des autres dans deux traités différents.

S'agit-il de faire ressortir les titres nobiliaires de telle ou telle tribu ? Mieux que n'importe quel partisan convaincu de l'une

ainsi à tout ce que lui inspire sa verve parfois outrancière, et même son extravagance.

Sa plume se complaît à nous retracer des tableaux de mœurs, des scènes de la vie publique ou privée, des incidents, des anecdotes, et il sait, à l'exclusion de la plupart des classiques arabes, trouver la formule la mieux appropriée, le mot juste, l'expression typique. Son amour de la couleur exacte est si vif qu'il ne recule pas au besoin devant l'emploi de termes crus ou grossiers et d'expressions réalistes ou même triviales. Il est en effet le seul parmi les littérateurs arabes, qui sacrifie sans hésiter la noblesse du style à la précision. C'est un réaliste épris de descriptions, et dont la verve inépuisable sait user avec hardiesse de tout ce qui peut servir à donner la note vraie à ses relations. Presque tous les autres classiques s'ingénient au contraire à éviter la moindre vulgarité dans leurs récits même les plus osés, et dans les gauloiseries arabes, s'il est possible de s'exprimer ainsi. En un mot, Djâhiz n'a jamais sacrifié, comme tant d'autres, le fond pour la forme convenue.

***

L'influence de Djâhiz s'est manifestée spécialement à deux points de vue différents. Il a fait double école : une école doctrinale de la secte motazilite et une école purement littéraire ; l'une et l'autre portent son nom.

Nombreux sont les adeptes de sa doctrine religieuse très hardie et qui confine à la libre pensée.

Il professait que le Coran est un objet *créé* (مخلوق), combattant ainsi la théorie qui a prévalu par la suite dans l'Islam orthodoxe, et qui soutient que le texte sacré est *incréé* (قديم = غير مخلوق).

Il défend très vigoureusement ses idées et emploie pour

PRÉFACE

Djâhiz n'a pas besoin d'être présenté au public. C'est un des rares auteurs parmi les classiques arabes dont les œuvres très populaires en Orient, jouissent d'une faveur particulière auprès des orientalistes européens, qui y trouvent le même intérêt que les Arabes.

Il est dans la littérature arabe, ce que sont dans la littérature française Voltaire et Renan. Qu'il traite les sujets les plus arides, qu'il aborde les questions les plus ardues, il réussit toujours à captiver le lecteur et à retenir son attention. Il parle de toutes choses avec un égal bonheur et sait dire chaque fois tout ce qu'il a à dire. Le lecteur le suit avec plaisir partout où sa fantaisie l'entraîne, sans éprouver en sa compagnie le moindre ennui, la moindre lassitude. L'intérêt ne languit pas un moment dans ses écrits ; c'est un penseur doublé d'un artiste charmant. Son esprit léger, et souvent ironique, lui inspire les boutades malicieuses qui émaillent ses productions.

Il traite avec un rare talent d'exposition les questions les plus délicates et les plus subtiles qui ont divisé les musulmans aux premières heures de l'Islam, touchant le pouvoir spirituel suprême, le Khalifat. Il plaide avec succès une cause et soutient l'opinion contraire avec la même force de persuasion.

Ces tours de force sont, pourrait-on dire, la spécialité de Djâhiz, qui presque dans toutes ses œuvres s'ingénie à vanter les mérites d'un personnage ou d'une idée pour employer, immédiatement après, toute son érudition à en peindre les défauts. Quoiqu'il en soit, il sait toujours charmer le lecteur et l'intéresse

DJÂḤIẒ

LE LIVRE DE LA COURONNE

(*KITAB EL TADJ.*)

TEXTE ARABE

PUBLIÉ POUR LA PREMIÈRE FOIS D'APRÈS LES TROIS MANUSCRITS CONNUS,
ACCOMPAGNÉ D'UNE PRÉFACE EN FRANÇAIS
ET ENRICHI DE NOTES CRITIQUES ET DOCUMENTAIRES

PAR

AHMED ZEKI PACHA

SECRÉTAIRE DU CONSEIL DES MINISTRES,
VICE-PRÉSIDENT DE LA SOCIÉTÉ KHÉDIVIALE DE GÉOGRAPHIE,
MEMBRE DE L'INSTITUT ÉGYPTIEN.

LE CAIRE.
IMPRIMERIE NATIONALE.
1914.

RENAISSANCE DES LETTRES ARABES

SOUS LE PATRONAGE DE

S. A. LE KHÉDIVE ABBAS II.

LE LIVRE DE LA COURONNE

(Kitâb el Tâdj.)